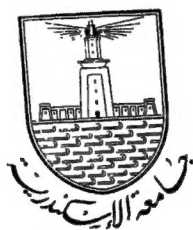


أَمَّنَا العربية



محمد فريد أبو حديد

٥٩٩٠٥



المكتبة

أُمَّتُنَا الْعَرَبِيَّةُ

أُمَّتُنَا الْعَرَبِيَّةُ

تأليف

محمد فريد أبو حديد



دار المعارف بمصر

١٩٦١

...م. ع. م. : دار الخريف بمصر - شارع ماسبيرو - بالقاهرة ج. ع. م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أقدم هذا الكتاب إلى القراء وما هو سوى تعبير عما يدور في نفوسنا جميعاً، وعما كان يدور في نفوس الأجيال التي سبقتنا سواء أكان ذلك عن وعى أم عن غير وعى . فهو أشبه بحديث مجموعة من الأصدقاء أو حديث أفراد من أسرة واحدة إذ يجتمعون وتتبادر إلى أذهانهم الأسئلة التي طالما فكر فيها كل منهم وحده ، فيكون الحديث بينهم أقرب إلى أن يكون كشفاً لما في ضمائرهم أو جلاء لما يتردد في أفكارهم .

ولقد مر وقت طويل على أبناء الأمة العربية وهم متباعدون لا يكاد بعضهم يعرف بعضاً ، لأن أنانية حكامهم وسياسة الأجانب الذين كانوا يتحكمون فيهم وقلة وعيهم إلى حقائق أنفسهم — كانت تقيم بينهم حدوداً مصنوعة تحجب بعضهم عن بعض ، فنذ بدأوا يتنبهون في هذا العصر الجديد ويشعرون بأنفسهم ويتحركون لإزاحة نير حكامهم الطغاة الأنانيين ، ويجاهدون لطردهم الأجانب الذين كانوا يتحكمون فيهم ، أخذوا يتعارفون كما يتعارف أبناء الأسرة الواحدة الذين يجتمعون بعد تفرق شملهم حيناً ، فكل منهم يسأل الآخرين ليتعرف أنباءهم وأحوالهم وكل منهم يدهش إذ يرى أخاه مثله في لهفته على تعرف الأنباء، وحرصه على اجتماع الشمل ، فيتساءلون جميعاً أسئلة واحدة ويجد كل منهم

جواب صاحبه صدى لما فى نفسه ، حتى عرفوا جميعاً آخر الأمر أنهم حقاً أبناء أسرة واحدة ، انحدروا من أصل واحد وتقبلت بهم ظروف الحياة على نمط واحد وتحملوا من هذه الظروف ما تحملوه من الآلام المتشابهة ، والتزموا فى مواجهتها بأعباء متقاربة فرضتها عليهم دوافع منبعثة من عقائد واحدة وثقافة واحدة . فإذا خلا كل منهم إلى نفسه عادت إليه الأسئلة التى كان الحديث المشترك يدور حولها فعكف كل منهم على أعماق وعيه يتساءل « من نحن ؟ ماذا كان ماضينا ؟ وماذا ينبغى الغد لنا ؟ وكيف نواجه الحياة التى نستقبلها جميعاً فى ظروف متشابهة وآمال واحدة ؟

إننا اليوم نردد فيما بيننا وبين أنفسنا هذه الأسئلة وكثيراً من أمثالها لأننا تخطينا الحدود التى كانت تفصل بيننا ، ولأننا أدركنا الأسباب التى أقامت هذه الحدود والآثار التى ترتبت عليها ، ولأننا استطعنا أن نرد كيد الأعداء الذين كانوا يريدون لنا أن نستمر على تدابرنا ، بل كانوا يودون لو أننا جعلنا بأسنا بيننا فاختلفنا وتنازعنا كى نفشل وتذهب ريحنا . ولكننا نحن أبناء هذا العصر لم نكن أول من رددنا هذه الأسئلة بيننا وبين أنفسنا ، فإن هذه الأسئلة عنها كانت تدور فى أذهان أجيال كثيرة من قبلنا ، والفرق بين ما نحدث به أنفسنا فى هذا العصر وبين ما كان آباؤنا يحدثون به أنفسهم فيما مضى أن الظروف التى تحيط بنا اليوم جعلتنا نرى بجملاء ما لم يظهر لأجدادنا فى جلاء ، وجعلتنا نجرؤ على

الاعتقاد فيما لم يجرؤ آباؤنا على الاعتقاد فيه . كانت هذه الأسئلة مثلاً
 تدور بغير شك في أذهان أجدادنا الذين وجدوا أنفسهم فجأة حيال
 جيوش بونابرت وهى تزحف على القاهرة آتية من وراء البحار بأسلحتها
 العجيبة ونظمها الغربية ، ورأوا وهم في عاصفة من العجب والدهشة أن
 حكامهم المتكبرين الذين كانوا منذ قليل يخطرون على خيولهم المظلمة
 فوق سروجهم الذهبية ، لم يستطيعوا الثبات أمام العدو الزاحف إليهم
 من وراء البحر بل رأوا أنهم لم يقفوا في الدفاع موقفاً مشرفاً يستبدلون فيه
 إلى آخر نقطة من دمائهم كما كان ينبغي لهم ، وفروا من الميدان لا يلوون
 على شيء إلا أن يبحث أحدهم عن كثر محبوبه يحمله معه هارباً إلى مكان
 يأمن فيه على نفسه وكنزته . لقد كانت مأساة شهداء هؤلاء الأجداد عندما
 رأوا هؤلاء الحكام ينهزمون بغير خجل تاركين وراءهم الرعية التى كانوا
 يتحكمون فيها جبارين لتواجه الجيوش المنتصرة الأجنبية وحدها ،
 ولا شك أنهم تساءلوا في دهشة ، من نحن ومن هؤلاء الغطارسة الذين
 يفرون هكذا من ميدان القتال ؟ من نحن الذين لا نفكر في الهروب بل
 نشعر بأن واجبنا يقضى علينا بأن نواجه العدو ونحن عزل من كل
 سلاح ، لأن حكامنا المتكبرين أبوا في إصرار أن يسمحوا لنا بالمشاركة
 في حكم البلاد أو الدفاع عنها ؟ من نحن ومن هؤلاء ؟
 ولكنهم مع هذا لم يستطيعوا في دهشتهم أن يهتدوا إلى الحقيقة إذ لم
 تنهياً لهم بعد الظروف التى تمكنهم من معرفة أنفسهم عن وعى واضح .

وقد التف هؤلاء الأجداد بعد قليل حول بعض زعماء منهم ، كشفت الحوادث عن جدارتهم بالزعامة بينهم ، فقاووا الجيوش الأجنبية المنتصرة ، وضحووا بأموالهم وبأنفسهم في سبيل الخلاص من السيطرة الأجنبية ، واستمرت مقاومتهم الباسلة برغم ما أصابهم فيها من الكوارث مع أنهم كانوا حديثي عهد بالقتال والسياسة، لم تسبق لهم تجربة فيهما طوال قرون عدة، فكان دفاع زعماء الشعب وجماهيره منبعثاً من وحي ضمائرهم واستجابة إلى شعور غامض صادر من السليقة والطبيعة لا من الوعي بالحقيقة.

وكان لهذه المقاومة أثرها العظيم في فشل الحملة الفرنسية، وتحقق قادتها من أنهم لن يستطيعوا البقاء في البلاد ولن يستطيعوا الاستمرار في حكمها . وانجلى غبار تلك المواقع والمصادمات عن ظهور زعيم كبير التفت حوله جماهير الأمة وأصبح الشعب هو القوة الحقيقية الكبرى في البلاد بعد جلاء الجيوش الفرنسية عنها ، واستطاع ذلك الزعيم وهو السيد عمر مكرم أن يجمع أزمة القيادة الشعبية في يديه وأن يواجه الحكام القدامى الذين سارعوا عائدين إلى البلاد لاسترجاع سلطانهم فيها بعد أن هربوا منها أمام الجيوش الأجنبية . استطاع السيد عمر مع جماهير الشعب أن يحاصروا القلعة التي تحصن فيها الباشا التركي، وأن يرغم ذلك الباشا وجنوده على النزول منها على حكم الشعب، وأن يبعث به هو وجنوده إلى بولاق كى يستقلوا السفن التي تعود بهم إلى بلادهم وراء البحر . غير أن ذلك الزعيم

العظيم لم يتمكن برغم انتصاره وانتصار شعبه الباهر من أن يدرك الحقيقة المنطوية وراء الموقف كله . لم يدرك أنه هو الزعيم الجدير بأن يأخذ أزمة الحكم في يديه وأن يوجه ذلك الحكم مع شعبة لأجل شعبه ، فتردد في اللحظة الحاسمة وانكمش عن أن يخطو الخطوة التي كان ينبغي له أن يخطوها ، وأخذ السيد عمر مكرم يفكر في اختيار رجل آخر يمكن أن يتولى حكم البلاد ويحقق لأهلها العدالة والحرية .

لم يدرك السيد عمر أن آفة البلاد وآفة حكمها كامن في هؤلاء الحكام الأجانب الذين تعودوا أن يتحكموا في الشعب، لأن هذا الشعب عربى وهم أجنب عنه، ولا يمكنهم أن يشعروا بمسئولياتهم نحوه . فكانت غلطته الكبرى أنه اختار محمد على التركى إذ حسب أنه هو الذى يحقق للأمة أمنها وحريتها . لم يتبين عند ذلك أن شعب مصر العربى له شخصية تميزه وأن الذين يمثلون هذه الشخصية ويحققون له هذه الآمال هم أبناءه الذين اختارهم لزعامته .

ولم يلبث السيد عمر إلا قليلا حتى بدأت الحقيقة تظهر له بعد أن أفلتت الفرصة من بين يديه ، فإن محمد على تنكر له وللشعب بعد قليل حين أغارت الجيوش الإنجليزية على رشيد، فهب الزعيم والشعب للدفاع عن البلاد وذهب السيد عمر مكرم يعرض على الباشا (محمد على) تكوين فرق وطنية من أهالى القاهرة والريف لتسارع إلى نجدة إخوانهم فى رشيد . فأبى محمد على عليهم ذلك قائلا إن الأجنبية ليست من أعمال

الشعب وإن واجب الشعب لا يزيد على إمداد الجنود المحاربين بالأموال .
غير أن معركة رشيد والانتصار الباهر الذى خلدته هذه المعركة للأمة
العربية على أعدائها كانت معركة الشعب العربى نفسه ، وقام بها أهل
رشيد وأهل القرى المجاورة لها برغم معارضة الباشا فى تجنيد شعب القاهرة .
ولم يمحض على هذا الموقف غير قليل حتى بدأ محمد على يكشف
القناع عن حقيقته ، فانقلب على زعيم الشعب السيد عمر مكرم وأخذ
يدبر المكائد لتحطيم زعامته ، ثم انتهى الأمر إلى أنه قبض عليه ونفاه إلى
دمياط ثم إلى مكة . وبدأت الحقيقة تظهر واضحة للسيد عمر مكرم
وللشعب العربى وهى أن الحاكم الأجنبى لا يمكن أن يمثل شخصية الأمة
ولا يمكن أن يحقق لها آمالها ، غير أن الفرصة كانت قد أفلتت وكانت
الأقدار تدخر عودتها إلى جيل آخر يستطيع أن يدرك الحقيقة عن وعى
صحيح فى إبانها .

وقد كان ما حدث للشعب العربى فى مصر مثالا واحداً مما حدث
للشعوب العربية فى الأوطان الأخرى ، حين فاجأتهم الغارات الأجنبية
الأوربية فى القرن التاسع عشر ، فكان السؤال يتردد فى أذهانهم غامضاً
وهم يعجبون لحكامهم الذين يرونهم يفرون من ميدان الجهاد عند أول
صدمة ، ويتركون أهل البلاد العرب ليواجهوا القوى الجبارة التى يجردوها
الأعداء لقتالهم وهم عزل من السلاح ، لا خبرة لهم بشئون القتال
أو السياسة . هكذا كان شأن شعب الجزائر حين أغارت عليه جيوش

فرنسا في سنة ١٨٣٠ فرأى حكامه يفرون من الميدان سراعاً ويتركونه ليواجه نيران الأعداء وحده ، فلم يقف هؤلاء الأعداء إلا الشعب نفسه وعلى رأسه زعيمه العظيم عبد القادر الجزائري ، وهكذا كان شأن شعب تونس في سنة ١٨٨٠ حين أغارت فرنسا على بلاده، وشأن شعب ليبيا حين هاجمت إيطاليا بلاده في عام ١٩١١ . وقد تكررت المأساة في صورة أبشع في مصر في عام ١٨٨٢ عندما استعان خديو مصر توفيق بالإنجليز ليحموه من ثورة الشعب العربي الذي هب يطالب بحريته ويريد استرداد كرامته ، فإن هذا الحاكم الأجنبي لم يتردد في ارتكاب جريمة الخيانة كي يتمكن من الاحتفاظ بسيادته الجوفاء على الشعب تحت ظل العدو الأجنبي المستعمر .

فالحقيقة التي كانت تكمن في المآسى التي حلت بالشعوب العربية في كل بقاع الوطن العربي هي أن الحكام الذين كانوا يسيطرون عليها كانوا من غير العرب ولم يكن يعينهم من الحكم إلا أن يسيطروا وأن ينغمسوا في حياة مترفة يتمتعون فيها بسيادة جوفاء وأبهة خرقاء ، حتى إذا جد الجدل وتعرضت البلاد التي يتحكمون فيها للخطر من غزو الأعداء لم يحرصوا على شيء غير النجاة بأنفسهم واستخلاص ما يمكن استخلاصه من أموالهم وذخائرهم المكنوزة ، بل لأنهم لم يترددوا في الاحتماء بالغزاة الأعداء كي يحتفظوا بما يحرسون عليه من مظاهر السيادة والحياة المترفة .

غير أن هذه الحقيقة كانت تترامى غامضة أمام أنظار أجدادنا قبل

أن تبدو واضحة في عصرنا هذا بعد أن زالت الحدود المصنوعة التي أقامها الأجنبي المستعمر للتفريق بين الشعوب كي تحجب الحقيقة عنها .
ونقطة البداية لكل أمة تريد أن تحقق وجودها هي معرفة نفسها ،
وصفحات التاريخ حافلة بالأمثلة التي تدل على أن الأمم تبقى مفككة
مشتتة القوى ، حتى تتمكن من معرفة نفسها وجمع صفوفها وتوجيه شئون
حياتها بنفسها ، وعند ذلك تستطيع أن تعرف وجهتها وتتهدى إلى طريق
حياتها . فالسؤال الذي جال في أذهان أجدادنا في غموض حين تساءلوا
« من نحن ومن هؤلاء الذين يحكموننا ويفرون أمام أعدائنا » - هو
السؤال الذي يجتمع فيه اهتمامنا بما وراء ضباب القرون من حوادث
تاريخنا ، والإجابة عنه هي الخطوة الأولى في معرفتنا بأنفسنا .

وقد عمد الأعداء إلى التشكيك في تاريخنا وتفسير حوادثه بما يلامم
أهواءهم وما يساعد على إبلاغهم مآربهم من التفريق بين الشعوب العربية ،
لأنهم يعلمون أن الأمة العربية قوة ضخمة وأن أبنائها إذا عرفوا حقيقة
أنفسهم يكونون سداً منيعاً يحول بينهم وبين أطماعهم في الاستغلال
والسيطرة ؛ فقلما نجد مؤرخاً أجنبياً يتوخى العدل أو الاعتدال أو يلزم
الحق في كتابته عن العرب ، ولا تخلو كتابة أكثرهم اعتدالاً من سوء فهم
للحقائق أو من عجز عن التغلغل إلى أعماق الروح العربي .

ولهذا فنحن نشعر بالحاجة الشديدة إلى أن ننظر إلى ورائنا وأن
نشمّل بنظرتنا آثار خطوات أمتنا لنعرف كيف بدأت وكيف نهضت

ولنرى متى استقام لها السير ومتى تعرج بها إلى المآهات والمجاهل ، وأن نجمع أشتات الحوادث في نظرتنا الشاملة حتى لا نضل بين شعابها وثنياتها ومفردات تفاصيلها .

وقد دأبت طائفة من الكتاب الأجانب على ترديد بعض المزاعم الزائفة التي استخدمها الساسة حيناً من الدهر للتشكيك في حقيقة الأمة العربية، فقالوا إن العرب هم وحدهم العرب القدامى الذين كانوا يقيمون في الجزيرة العربية، فلما فتحوا البلاد الأخرى أصبحوا فيها سادة يتحكمون في أهلها ، ثم ذهب دولتهم وأصبحت اليوم لا تزيد على صفحة من التاريخ ولم يبق للأمة العربية وجود بين الأمم ، وأما الشعوب العربية التي تنتشر اليوم في الأرض بين الخليج العربي والمحيط الأطلسي فما هي سوى شعوب متفرقة تعاقب عليها الفاتحون بعد ذهاب الدولة العربية ، فهم أولى بأن ينسبوا إلى الدول التي تتحكم فيهم، وكل منهم جدير بأن يلصق بالقطعة التي حددتها له الدولة التي تسيطر عليه .

ولكن هؤلاء الكتاب الأجانب لم يستطيعوا أن يزيلوا الحقيقة الحية بمزاعمهم ، فالشعوب لا تفنى شخصيتها ولا تتغير بتغير الدول ولا يمكن أن تستقر عليها صبغة يراد أن تصبغها بها المزاعم الزائفة . وقد أثبت العرب أن شخصيتهم باقية متميزة على رغم تقلب الأحوال وتعاقب الأجيال وأنهم كانوا دائماً يشعرون بسليقتهم وفي أعماق طبيعتهم بأنهم أمة حريصة على البقاء مستبصلة في استرداد حرياتهم ، فلجأ دعاة المزاعم الزائفة إلى وسيلة

أخرى للتفريق بين الشعوب العربية بإثارة النعرات القومية المفتعلة كي يقطعوا الروابط الطبيعية التي تربط بينها ، حتى تصير الأمة الواحدة مجموعة من أمم شتى . وساعد سياسة الاستغلال على إثارة هذه النعرات بعد أن مزقوا الوطن العربي إلى قطع صغرى ليزيدوا عدد الشعوب المفتتة وخلعوا عليها قوميات مصنوعة أحاطوها بحدود من الأسلاك الشائكة وأقاموا عليها حراساً لحماية خطوطها الواهنة . وكانوا يستخدمون في هذا التزيق طوائف من السادة المزيفين الذين سخروا أنفسهم لخدمة أعداء الأمة لقاء منافع خاصة بأنفسهم وسلطان مختلس أجوف يتمتعون بمظاهره وغنائمه المسلوبة من الشعوب المقهورة . غير أن هؤلاء الساسة لم يلقوا من النجاح في محاولاتهم ما كانوا يقدرونه لها لأن شعور العرب بشخصيتهم كان أقوى من مزاعمهم وبما بذلوه من جهودهم . فتحطمت آمالهم آخر الأمر بعد أن عاد وعى الشعوب إليها، وأخذت حركة القومية العربية الحقيقية تحتاج دعايات الساسة الأجانب وحلودهم وجنودهم المدججة بالسلاح الواقفة لحماية الحدود المصنوعة التي أقاموها ، وأخذ السادة المزيفون الذين سخروا أنفسهم لخدمة أعداء الأمة يتساقطون واحداً بعد واحد كقطع الجحروف التي تنهار أم السيل الجارف .

وقد كان مما يبعث الأمل في القلوب أن بعض كتاب العرب ومؤرخيهم كانوا يسايرون مزاعم الأعداء لقللة ثقتهم في أنفسهم واغترارهم بمقدرة الأجانب الذين دأبوا على تزييف حقائق تاريخ الأمة العربية،

فكانوا يرددون ما ينقلونه عنهم في جرأة تشبه جرأة من ينطق بما يؤمن به ، وكان لما كتبوه أثر أنكى وأفدح من أثر الكتاب والمؤرخين الأجانب ، لأنهم كانوا يتجهون بما يكتبونه إلى جماهير الأمة العربية نفسها ويقومون فيها بإذاعة ما يفترية الكتاب الأجانب عليها .

فإذا شئنا أن نلقى نظرة شاملة على ماضى أمتنا وأن نتتبع خط سيرها كى نستطيع أن نعرف من نحن ، كان علينا أن نستقل بنظرتنا في تاريخ أمتنا أو بقول آخر علينا أن نعيد كتابة تاريخنا بأيدينا ، مهتدين بتفكيرنا ، متوخين ما ينبغى لنا أن نتوخاه من الصدق وإثبات الحق والعدل في كتابتنا ، فإن الصدق والحق هما الدعامتان اللتان تستطيعان البقاء^١ وتصلحان لأن تكونا معالم الطريق .

وهذا الكتاب الذى أقدمه إلى القراء هو محاولتى لعرض ما يدور في أذهاننا حول سؤال « من نحن » ، وهو السؤال الذى يردده أبناء الأمة العربية منذ زالت بينهم الحدود المصنوعة ، وبدأوا يلتقون ويتساءلون عن ماضيهم وحاضرهم وعما يحبوا لهم المستقبل وكيف يواجهون الحياة التى يستقبلونها على هدى من خط سير الأمة الطويل منذ بدأت السير إلى اليوم .

سؤال « من نحن ؟ »

هذا سؤال ينطوي في ضمير كل من ينتمى إلى جماعة ، فن الطبيعى لكل فرد أن يعرف الحقيقة التى تقوم عليها صلته بالجماعة التى ينتسب إليها . وكما أنه سؤال طبيعى بالنسبة إلى كل فرد ينتمى إلى جماعة فهو سؤال طبيعى أيضاً بالنسبة إلى كل مواطن فى وطن وإلى كل فرد من شعب أو أمة .

وللسؤال جانبان أولهما تحديد خصائص الجماعة التى ينتمى الفرد إليها وثانيهما تحديد هذه الخصائص بالنسبة إلى الفرد حتى يعرف هل يحق له أن يعد نفسه عضواً فى هذه الجماعة .

وقلما يسأل الناس أنفسهم هذا السؤال علناً بطريقة مباشرة ، فنحن نأخذ الكثير من شئون حياتنا على أنها حقائق مسلم بها غير قابلة للتساؤل . وتحديد معنى « نحن » فى وقتنا الحاضر يختلف كثيراً عن تحديده منذ مائة عام وهو منذ مائة عام يختلف كثيراً عن تحديده فى العصور القديمة . فلو سئل رجل يونانى كان يعيش فى أثينا فى أيام بركليس مثلاً عن تحديده لمعنى « نحن » لأجاب بغير تردد أنه ينتمى إلى وطنه « أثينا » المدينة المحيطة سيدة الأوطان فى نظره . وقد طالما حارب أهل أثينا القديمة كل فكرة تدعو إلى تغيير الحدود التى تحدد جماعتهم ، وكانوا ينظرون

إلى المدن المجاورة لهم مثل « طيبة » و « إسبرطة » على أنها بلاد أجنبية خارجة عن حدود « نحن » بالنسبة إليهم . وطالما استبسل أهل « أثينا » القديمة كما استبسل أهل المدن الإغريقية الأخرى في الدفاع عن وحداتهم المتفرقة حتى اضطروا إلى توسيع معنى « نحن » بالنسبة إليهم جميعاً في أيام الملك فليب المقدوني والد الإسكندر فصاروا فيما بعد ينتسبون إلى دائرة أوسع تضم الإغريق جميعاً ، وما زالوا حتى ساروا جميعاً كأبناء أمة واحدة وراء الإسكندر المقدوني لفتح أقطار العالم الأخرى . ولم يكن الإغريق القدامى في أثينا وغيرها من المدن يجهلون أنهم من عرق واحد ولا يجهلون أنهم يتكلمون بلسان واحد وأن لهم عقائد ومشارب واحدة . فحقيقتهم لم تتغير ولكن تغيرت نظرهم إلى أنفسهم .

ونحن اليوم لو سألنا أحد أبناء اليونان المحدثين عن معنى « نحن » بالنسبة إليه لوجد سؤالنا عجباً لأنه بديهى في نظره ولا يحتاج إلى تحديد . فهو يونانى ينتمى إلى أمة معروفة ينتشر أبناؤها في أقطار شتى ويعرف كل فرد منهم أنه يونانى لأنه يتكلم في بيته باليونانية ويفكر باليونانية ويتمتع بالقراءة في اليونانية ، وقد أشرب عادات قومه وأساليب حياتهم ويعرف أن مصيره هو مصيرهم في الخير وفي الشر ، فهو يجد آلامهم آلامه وآمالهم آماله وهو مستعد للبدل والتضحية في سبيل خيرهم ودفع الشر عنهم .

على أننا لو تأملنا الحقائق التى تنطوى في حياة الأمة اليونانية الحديثة

لوجدنا أنهم لا يمثلون أبناء أثينا القدامى ولا أبناء أية مدينة يونانية قديمة أخرى تمثيلاً خالصاً من الإضافات الأجنبية ، فقد خالطت دماءهم دماء من شعوب أخرى وطرأت على لغتهم تحويرات وتغييرات شتى ؛ كما تغيرت أساليب تفكيرهم وطرق حياتهم تغيراً كبيراً يجعلهم شيئاً آخر يختلف في كثير من الخصائص عن اليونان الذين كونوا وحدتهم الأولى على يد فليب المقدوني وابنه الإسكندر الأكبر .

ففي هذا المثال البسيط ما يدل على أن الأمم والشعوب تتطور مع الزمان تطوراً كبيراً فتبقى لها عناصر من الأصول القديمة وتدخل إليها إضافات من الظروف الجديدة التي تطرأ عليهم مع مرور الزمان ، فإذا قدر للأمة أن تبقى محتفظة بشخصيتها كان ذلك لأنها احتفظت بالعناصر الجوهرية من شخصيتها القديمة وهي العناصر التي تبقى وتذيب في نفسها كل الإضافات الطارئة التي طورت شخصيتها على مر الزمن .

وقد بينا أن العناصر الجوهرية في حالة الأمة اليونانية الحديثة هي اللغة الواحدة والتضامن الشعوري وتشرب العادات الواحدة وأساليب الحياة الواحدة ، ولا يضيرها أن دماها خالطت دماء من شعوب أخرى أو أن أفكاراً جديدة وأساليب حياة جديدة طرأت عليها وطعمت أفكارها وأساليب حياتها الأولى .

ولزيادة إيضاح هذه المعاني نضرب مثلاً آخر من إحدى الأمم أو أحد الشعوب الحديثة كالإنجليز ، وقد كان كثير من كتابهم يحاولون

التشكيك في حقيقة أمنا العربية . فلو سألنا إنجليزياً من الذين ينخرطون في سلك البحرية أو في الجيش الإنجليزي ويعرضون حياتهم للأخطار في سبيل استعباد البلاد الأخرى أو في سبيل الدفاع عن إنجلترة وممتلكاتها - لو سألنا هذا أن يحدد لنا معنى « نحن » بالنسبة إليه لعجب من سؤالنا لأنه يجد الجواب عليه بديهياً لا يحتاج إلى إيضاح أو تحليل ، فهو رجل إنجليزي . هو يتكلم الإنجليزية ويشعر بالزهو لأنه ينتمى إلى أمته الإنجليزية وقد أشرب أسلوب قومه في ما كلهم ومشربهم وتفكيرهم فيحب ما يحبون ويكره ما يكرهون له ويرقص على طريقتهم ويغنى أغانيهم ويجد لها صدقاً عميقاً في نفسه ، ويعترف بأنه ينطوى على فضائلهم وعيوبهم ولا يجد بأساً من ذلك لأنها بعض سمات قومه . وقد يخالف فرداً آخر من الإنجليز أو يعادى آخر منهم ولكنه مع ذلك ينتمى إلى المجموعة الإنجليزية ذات الخصائص المتميزة في لغتها ومشاعرها وأساليب حياتها وتفكيرها وهي الأمة الإنجليزية . وهو لذلك يحس بأنه متضامن معها في صورتها المعنوية التي تشمل ما ضيها ومستقبلها ، ويعمل جهده لاحتفاظها بهذه الصورة المعنوية والعمل على زيادتها وضوحاً .

على أننا حين نتأمل حقيقة الشعب الإنجليزي على ضوء ما مر به من الحوادث على توالى العصور ، لا نملك إلا أن نرى أنه في هذا العصر لا يكاد يمت بصلة إلى الشعب الذي كان يعيش في الجزيرة البريطانية

منذ ألف عام فقط .

فمنذ ألف سنة كان في إنجلترا خليط من شعب قديم هو (الكلت) ومن شعوب أخرى أغارت على الجزيرة مثل الإنجليز والسكسون وقبائل الشمال من أهل الدنمرك والنرويج . كان لكل منهم لغته وطريقة حياته وهي لا تكاد تشبه في شيء لغة الإنجليز اليوم وطريقة حياتهم . ثم أغار النورمانديون الفرنسيون على إنجلترا وحكموا الشعوب التي كانت تعيش قبلهم في الجزيرة كما يحكم الأجانب أهل البلاد المقهورة ، فكان النورمانديون هم السادة وكان الآخرون هم الرعايا أو أنصاف العبيد . ولكن التطور أحدث أثره في هذه الأخطا الكثيرة على مر الزمن وكانت نتيجة التطور البطيء ما نراه اليوم في الشعب الإنجليزي المحدد السمات والخصائص الموحد في لغته وعاداته وطرق حياته وفي المثل العليا التي يؤمن بها ومقاييس الخلق ومعايير الخير والشر عنده والدلائل التي يميز بها بين الحسن والقبيح . فن هذين المثالين يظهر لنا أن شخصية الشعوب تتميز بما يكون لكل منها من عناصر الوحدة في المشاعر والتشارك في أساليب التفكير ومقاييس الحكم على الأمور ، والتضامن في مواقف الحياة المختلفة . ووحدة اللغة من أهم العوامل التي تؤدي إلى هذه الوحدة في المشاعر والأفكار وهي في الوقت نفسه أداة لتحقيق التضامن والتماسك بين أفراد الجيل الواحد من الشعب وبين الأجيال المتعاقبة على مر الزمن . والمتأمل في تاريخ الأمم لا يجد أمة انحدرت من أصل واحد

وحافظت على عنصرها صافياً على اختلاف العصور ، وليس أبعد عن الحق من تلك النعرات التي يثيرها بعض الدعاة بين حين وآخر حين يزعمون أن شعوبهم تمتاز بصفاء دماها وأنها تنتمي إلى أصول بشرية تمتاز عن سواها في بعض الفضائل ، فإن الأمم جميعاً تتكون من عناصر بشرية شتى تطورت على مر السنين واندججت وأصبحت تكون في مجموعها خصائصها المشتركة بينها . فتحديد معنى نحن بالنسبة إلى كل أمة يشتمل على خلاصة ما انتهى إليه تطورها الذي أبقي لها عناصرها الجوهرية من اللغة الواحدة وطرق الحياة المتشابهة وأساليب التفكير المتقاربة. ونحن حين نوجه إلى أنفسنا سؤال « من نحن » لا نملك إلا أن نجيب بما يجيب به أبناء الشعوب الأخرى ، فنحن أمة عربية كما أن الألمان جميعاً في شرق ألمانيا وغربها أمة ألمانية وكما أن اليونانيين في شبه جزيرتهم وفي جزائرهم المبعثرة في البحر أمة يونانية. وقد مر حين من الدهر على بعض الأمم كانت الدوافع السياسية تحمل البعض على إنكار شخصيتها وتجاهلها ولكن الحقيقة لا تزول بالإنكار أو التجاهل ، فلم تلبث هذه الدوافع السياسية أن تبددت ومضت الحقيقة في سبيلها الطبيعي المقدور لها . ففي هذا الوطن العربي الممتد في نطاق سوى متوسط بين الأمم من غرب آسيا إلى أقصى غرب أفريقيا تعيش أمة واحدة اجتمعت لها كل العناصر الجوهرية التي تميزها عن غيرها وتبرز شخصيتها . وإذا كانت بعض الدوافع السياسية تحمل البعض على إنكار هذه الشخصية أو تجاهلها فإن

الحقيقة ان تلبث أن تمضى فى سبيلها الطبيعى المقذور لها ولن تلبث تلك الدوافع السياسية أن تزول وتتبدد كما تتبدد السحابة العابرة . لقد نشأت هذه الأمة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً وأقامت معاً حضارة عظيمة مشتركة، ووهبت للإنسانية من آثار عبقريتها إضافات كان لها أكبر الفضل فى إغناء تراث الحضارة البشرية ، وعاشت معاً على السراء والضراء قروناً متعاقبة يبلغ عددها أكثر مما عاشته أية أمة أخرى من الأمم الحية الباقية فى عصرنا هذا ، وهى فى كل قطعة من هذا الوطن تعز بعروبها وتحلم فى حاضرها بأمال مشتركة كما تأملت فى ماضيها من آلام مشتركة ، وواجهت معاً عواصف واحدة . وسنعرض فى الفصول التالية معالم سيرة حياتها على مر هذه القرون الطوال كى تبدو الحقيقة من خلالها ماضية فى سبيلها الطبيعى المقذور لها .

سنن تصور الأمم وأدوار حضاراتها

استرعى أنظر المؤرخين منذ مئات السنين أن الأمم تسير في حياتها على سنن ثابتة تكاد تشبه سنن الطبيعة في عمومها ودوامها ، ومن بين هؤلاء المؤرخين مؤرخنا العربي عبد الرحمن بن خلدون الذى سبق المؤرخين المحدثين في مقدمة تاريخه الكبير إلى استخلاص القوانين التى تسير عليها الأمم في تطورها من حالة البداوة إلى حالة الحضارة ، والعوامل التى تؤدي إلى ازدهار حضارتها أو اضمحلالها . غير أنه وإن كان رائد المفكرين في استخلاص نظريات التاريخ والاجتماع لم يخلف لنا نظرية شاملة في سر تطور الأمم ولم يحنئ بعده من العرب من خلف لنا هذه النظرية الشاملة .

وقد حاول كثير من مفكرى أوروبا ومؤرخيها أن يستخلصوا من بحوثهم نظريات شاملة لسنن تطور الأمم في الحضارة ومن أحدثهم وأعمقهم بحثاً المؤرخ الإنجليزي (توينبي) في كتابه الضخم الذى سماه «دراسة في التاريخ» .

والذى يهمننا هنا أن نلم إلى ملامحة موجزة بأهم الخطوط العامة لنظرية هذا المؤرخ الكبير وقد استخلصها من بحثه الشامل في تاريخ حضارات الأمم جميعاً شرقياً وغربياً في قديمها وحديثها ، وهذه النظرية تلقى ضوءاً قوياً

على العوامل التي تؤثر في الشعوب وتوجهها في إقامة حضاراتها والأدوار التي تمر بها في بناء تلك الحضارات ، وهي تساعدنا على إبراز معالم الطريق الذي سارت فيه الأمة العربية في تطورها .

بدأ المؤرخ باستعراض شامل لأنماط الحضارات العالمية وبين أن بعضها نما وازدهر وآتى ثماره الخالدة في الحضارة الإنسانية، وبعضها قضى عليه قبل أن يتم نموه ، أو مات طفلاً أو زهق روحه وهو ما زال جنيئاً . وانتهى به البحث إلى أن الأمم الكبرى التي كان لها الفضل في بناء الحضارات الإنسانية منذ القدم إلى اليوم كانت تسير في نموها وتطورها وفق مبادئ عامة تشترك جميعاً في السير على مقتضاها .

والبدء الأول الذي اتخذته أساساً عاماً لنظريته هو أن الأمم تتأثر في حياتها بعاملين متقابلين أولهما عامل المحافظة ويقابله العامل الثاني وهو عامل التحرك .

فأما عامل المحافظة فهو ميل الإنسان إلى الاستمرار على الحالة التي يألفها وكراهته لتغيير هذه الحالة ، لأن تغييرها يسبب له قلقاً ويحمله على بذل الجهود والإقدام على مواجهة المجهول . فالشعوب إذا لم تدفعها دوافع قوية تضطرها إلى تغيير حالتها المألوفة تبقى مستمرة على طريقتها في الحياة وتعمل على تخليدها بأن يقوم كل جيل بتوجيه الجيل الذي بعده للإبقاء على أنماط معيشته وتفكيره التي اعتادها حتى تصير الأجيال الناشئة استمراراً للأجيال التي سبقتها .

وهذه الحالة إذا استمرت طويلا تؤدي إلى تقديس الأمم لموارثها تقديساً مطلقاً وتجعلها تنظر إلى كل جديد بعين الشك والإنكار وتعدده بدعة سيئة تجب أن تقاوم، لأنها تهدد حالة الاستقرار التي قامت عليها حياتها منذ القدم . وهذه الظاهرة الاجتماعية تشبه ظاهرة القصور الداني في القوانين الطبيعية فإن الأجسام تبقى ساكنة إذا لم تحركها قوة دافعة تقلقلها وتجعلها تتحرك بعد سكونها .

وأما عامل التحرك المقابل لعامل المحافظة فهو الذي يطرأ على حياة الأمم ويجعلها تهتز وتتغير "من حالة السكون التي استقرت عليها إلى حالة حركة تناسب الظروف التي طرأت عليها :

وهناك أنواع كثيرة من الظروف التي تطرأ على الأمم وتبعثها إلى التحرك . فقد تتغير الظروف الجوية التي تعود شعب من الشعوب أن يعيش فيها وتكون نتيجة الظروف الجديدة غير ملائمة لأسلوب الحياة التي تعودها ذلك الشعب ، فيكون عند ذلك مضطراً إلى أحد أمرين فإما أن ينزح من الأرض التي يقيم فيها إلى أرض أخرى تلائم أسلوب الحياة الذي تعودده وإما أن يعمل على تغيير أسلوب حياته بحيث يجعله موافقاً للظروف الجوية الجديدة .

فإذا قلت الأمطار مثلاً في إقليم من الأقاليم حتى أصبح ما يسقط منها غير كاف لاستمرار حياة الناس على ما كانت عليه بأن تحولت المروج الخضراء إلى سهوب قليلة السخاء، كان لابد لبعض أهل ذلك الإقليم أن يهاجروا إلى إقليم آخر يكفل لهم العيش فلا يبقى في الوطن

القديم إلا بعض من كان يقيم فيه ، ويكون هؤلاء الباقون مضطرين إلى تغيير أسلوب حياتهم بحيث يناسب ظروف الجفاف الذى حل بأرضهم . وقد حدثت أمثلة كثيرة من هذا التغير الجوى وما أعقبه من الهجرات ومن تغيير أسلوب الحياة فى المهاجرين إلى البلاد الأخرى والمقيمين فى أرضهم المتغيرة . وتكون نتيجة تغير الظروف الجوية فى كل الأحوال تحركاً للناس وتغيراً فى أساليب حياتهم وتحولاً بهم من حالة قديمة استقروا عليها إلى حالة جديدة لا بد لهم أن يواجهوها بما يناسبها من التجديد فى الأفكار وطرق المعيشة .

وقد ينشأ تحرك شعب من الشعوب على أثر حركة فكرية انبعثت فيه كما حدث لشعوب أوروبا حين تحركت بعد استقرارها فى عصور الظلام على أثر تنبيه وعيها إلى شعاع الحضارة العربية الذى انبعث إليها من الشرق والشعاع الآخر الذى وصل إليها من الآثار الفكرية اليونانية القديمة . ومن أمثلة تأثير الحركة الفكرية فى تنبيه الشعوب ما حدث لشعب فرنسا الذى هب فى ثورته الكبرى على أثر حركة فكرية قومية استمرت تؤثر فيه أكثر من قرن من الزمان . وسنرى فيما بعد أن الأمة العربية أخذت كذلك تتحرك وتتحول من الحالة التى استمرت عليها قروناً عدة على أثر الدفعة القوية التى دفعتها بها رسالة الإسلام .

ومن أهم الأسباب التى تهز الأمم وتبعث فيها حركة قوية شعورها بخطر يهدد وجودها كما لو أغار عدو عليها ، فإن الأمة إذا هددها عدو

مغير تهتز هزة قوية وتنبه إلى أن سلامتها وحريتها في خطر وتجد نفسها في موقف يحملها على أن تواجه الخطر الذي يهددها ، فتتحرك للمحافظة على حياتها وحريتها . ومضى بدأت هذه الحركة تحول استقرارها إلى تحفز ينتهى بها إلى تغيير أسلوب حياتها المألوفة . ومضى بدأت تتحرك أصبح كل ما استقرت عليه معرضاً للتحويل والتغير . وتتجه في حركتها إلى طرق جديدة وتلجأ في دفاعها عن نفسها إلى الابتكار والتجديد ، ومن هنا يبدأ دور كفاح قد ينتهى بالفوز إذا كان في الأمة من القوى ما يجعلها تثبت للصدمة التي أصابها وتخرج منها سليمة قوية ، أو قد ينتهى بالانهيار أو الاضمحلال إذا لم يكن فيها من القوى ما يمكنها من تحمل الصدمة ومقاومتها . فإذا انتهى أمرها إلى الفوز وخرجت بحياتها سليمة على أثر كفاحها كان ذلك ابتداء لعصر جديد من حياتها تعمل فيه على استغلال نشاطها الطارئ في تطوير أساليب حياتها وتنطلق في التجديد والبناء في مجالات التفكير والعمل والتفنن .

والأمم حين تتحرك تسير على سنة اجتماعية ثابتة تشبه ظاهرة الحركة في قوانين الطبيعة إذ أنها تستمر في حركتها في الاتجاه الذى اتجهت إليه ما لم تعترضها قوة مضادة توقف حركتها أو تغير اتجاهها .

وليس لمدة الزمن دخل في تحديد فترات الجُمود والاستقرار أو فترات التحرك والتجديد ، فقد تَمْضَى على إحدى الأمم ألوف من السنين وهى محافظة على قديمها مستقرة على أسلوب حياتها المألوفة فلا يحدث في حياتها

ولا في حضارتها تجديد طوال هذه السنين ما دامت الظروف لا تهزها ولا تدعوها إلى إحداث تغيير فيها استقرت عليه .

وبما يسترعى النظر في حركات الأمم أن الظروف التي تطرأ عليها وتجعلها تهاجر من موطنها الأول وتنساح في الأقاليم المجاورة قد تحدث آثاراً متباينة ، ففي بعض الحالات تؤدي الهجرة إلى اصطدام عنيف بين المهاجرين وبين أهل البلاد التي تستقبلهم ، وقد ينجلى هذا الاصطدام أحياناً عن تخريب شامل يشبه تخريب السيل الجارف إذا انطلق في سبيله محطماً ولا يترك وراءه إلا الدمار فلا يؤدي إلى حركة تجديد لا في الشعب المهاجر ولا في الشعب الذي واجه صدمته ، لأن ذلك الاصطدام العنيف يبذل قوى المهاجمين وقوى المدافعين جميعاً . وقد حدث مثل هذا عندما أغارت قبائل الهون على أوروبا أو عندما أغارت جموع التتار على بلاد الدولة العباسية إذ أن سيل الغارة المدمر أفنى قوته في التحطيم فلما هدأت دفعته آخر الأمر كان قد هدم قواعد الحضارة في البلاد التي اجتاحتها ولم يكن يحمل في دفعته غير العنف والتدمير فبقيت البلاد التي تعرضت لتدميره حطاماً هامداً خامداً .

وقد ينجلى الاصطدام بين المهاجرين وبين البلاد التي يغزونها عن اجتياح لنظام الحكم القائم فيها فيستولى زعماء الشعب المغير على أزمة الحكم مع بقاء أهل البلاد الأصليين على ما كانوا عليه من قبل وفي هذه الحالة يأخذ أفراد الشعب المغير في الحلول بالبلاد التي فتحوها ويمتزجون بأهل البلاد القديمة

شيئاً بعد شيء فتتكون من امتزاجهم أمة جديدة تحمل في أغلب الأحوال طابع الشعب المنتصر الفاتح . ومن أمثلة ذلك ما حدث في أوروبا على أثر لغارات الشعوب الثيوتونية وتدميرها لنظام الحكم الرومانى وحلولا في البلاد التى كانت الدولة الرومانية تحكمها قبلهم ، ثم امتزاجها بأهل البلاد القدامى وتكوينها للأمم الأوروبية الحديثة . وأسماء أمم أوروبا الحديثة ما تزال تدل على أن كل أمة منها انطبعت بطابع الشعب الذى أغار عليها فانجلترة تحمل طابع قبائل الأنجلو السكسون وفرنسا تحمل طابع الفرنج وألمانيا تحمل طابع قبائل الألمان وهكذا .

ومهما يكن الأمر في الأسباب التى تبعث الأمة إلى الحركة ومهما تكن نتائج هذه الدفعة فإن نظرية المؤرخ توينبى تنتقل بعد ذلك إلى شرح السنن الاجتماعية التى تسير الأمم عليها في بناء نهضاتها بعد أن تهتز هزتها القوية لأى سبب من الأسباب التى أشرنا إلى طائفة منها فيما سبق من القول .

فالأمة عندما تتحرك بعد ركودها تكون حاملة شبيهة بحالة الطفل الصغير إذا بدأ يتنبه إلى ما حوله ، فهو يمد يده إلى كل شيء ويحاول أن يعرف ما يحيط به وهو يريد أن يجرب وأن يقيس قوته بالنسبة إلى ما يحيط به ، وكلما كبر وزاد إدراكه وسع دائرة معرفته وتجاربه وزاد علماً بقياس قواه بالنسبة إلى عالمه المحدود ، وكل شيء يبدو له جديداً وكل تجربة تجعله يحس إحساساً جديداً ويخيل إليه أنه أول من أدرك ما في هذا العالم

العجيب وأنه أول من أحس بأحاسيسه، فيكون تعرفه على عالمه ممزجاً بحماسة المستطلع الذى يرى أرضاً جديدة لأول مرة . وكلما زاد تطلعه إلى المعرفة زاد ميله إلى التساؤل فيأخذ فى التماس المعرفة عند غيره ممن هم أسبق فى الحياة منه ، ولكنه يجمع ما يجمعه من المعارف كى يجعلها مادة لتفكيره ويحصل ما يحصل من التجارب كى يكون بها شخصيته .

هكذا تبدأ الأمة فى تكوين شخصيتها وجمع المعارف مما يحيط بها وهى كلما زادت تجربة ومعرفة زاد نموها ورقبها فتأخذ فى الابتكار والإبداع والإنشاء بكل ما توافر لها من التجارب والمعارف ويكون ما تنشئه مطبوعاً بطابع الشخصية التى كونتها لنفسها .

غير أن هذا التشبيه وإن كنا نقصد به تقريب فكرة نهوض الأمم قد يؤدى إلى غموض فى الفكرة نفسها لأن الأمم ليست كائناً واحداً يتحرك بهذه الطريقة ويأخذ فى التجربة وتحصيل المعرفة على النحو الذى وصفناه ، بل هى مكونة من أعداد كبيرة من الأفراد الذين يختلفون فى المقدرة والحس والذكاء، وبما قد يكون لهم من قوة الإرادة وما يكون نصيب كل منهم من المواهب الطبيعية . ولهذا فإن نظرية المؤرخ تؤكد أهمية وجود مجموعة من الأفراد النوابع فى كل أمة ويسمى (بالأقلية الفعالة) لأنها هى التى تؤثر فى حركة جماهير الأمة وتوجه نشاطها . وهذه الأقلية تكون أسبق الناس إلى التنبه والوعى وإلى الشعور بضرورة التجديد والبدء فى العمل من أجله . وهى التى تتراد الطرق المؤدية إلى الترقى بالأمة التى

تتمى إليها وتسير في طليعتها . فوجود هذه الأقلية شرط أساسى فى نظرية توينبى لابتداء كل أمة فى النهوض والتحول من حالة قديمة إلى حالة جديدة .

فعلى ضوء هذه النظرية يمكن أن يقال إن الأمم تميل إلى أن تبقى محافظة على قديمها مستقرة على مألوف حياتها حتى تطرأ عليها ظروف تحدث فيها هزة قوية وتشعرها بضرورة التحرك لمواجهة الموقف الجديد الذى لا تلاءم أساليب حياتها المألوفة . والذين يتنبهون أولاً ويهتزون أولاً ويتحركون أولاً لمواجهة الظروف الجديدة هم الأقلية الفعالة من أبناء الأمة الذين يأخذون على عاتقهم عبء ارتياد الطرق الجديدة ودعوة جماهير الأمة إلى السير معهم فيها .

فلذا ما بدأت الأمة تتحرك مع أقليتها الفعالة نحو حياة جديدة مرت فى مراحل تطورها واحدة بعد واحدة إلى أن تم دورة حضارية كاملة . وتقسم النظرية هذه الدورة الحضارية إلى خمس مراحل محدودة على وجه العموم وإن كانت ظروف كل أمة هى التى تكييفها بما يناسبها .

ففى مرحلة الحركة الأولى تكون الأمة فى حالة شبيهة بالفوران وتمتاز بالقلق أو الفوضى أحياناً وتكثر فيها المصادمات العنيفة التى تتجلى فيها بطولات بعض الأفراد الممتازين الذين يحوزون إعجاب قومهم بما يظهرونه من آيات الشجاعة والمروءة ورباطة الجأش وتكون نتيجة إعجاب الجماهير بهم بداية تصوير الأمة لمثلها العليا وتكوين مقاييس القيم فيها وإقامة الموازين التى تميز بين الحسن والقبيح والخير والشر والفضائل والذائل وهى

المقاييس والموازين التي تحكم الأمة بمقتضاها على ما هو نبيل جدير بإعجابها ورضائها وما هودنىء يحمر على صاحبه الازدراء والسخط . ففي هذه المرحلة الأولى تأخذ الأمة في تحديد مثلها وتصوير أحلامها وأمانها وترشيح الأقلية الفعالة التي تستطيع أن تحقق في حياتها هذه المثل والأحلام والأمانى .

وتستمر هذه المرحلة الفلقة حتى تجتمع للأمة الأقلية الفعالة التي تتمكن من الانتقال بها من حالة الاضطراب والتفرق إلى حالة التجمع والوحدة من أجل تحقيق المثل المرجوة والاتجاه المتزن إليها . فالأقلية الفعالة بالنسبة إلى الأمة هي الصورة المجسدة لمثلها العليا وفضائلها وهي التي تودع فيها الأمة رجاءها في تحقيق أمانها .

وتمضى الأقلية الفعالة في طريق التقدم ، وكلما مضت في طريقها زاد اتصال جماهير الأمة بها وزادت ثقتهم فيها لأنها تستمر على إثارة وعى الأمة والدعاية لرسالتها ، وتدعيم ثقة الجماهير بما تبديه من الإخلاص والكفاية . ويتوقف نجاحها على استمرار التفاف الأمة حولها ومقدار ثقة الجماهير فيها والإيمان بدعوتها ، وكلما زاد عدد المتفانين حولها والمؤمنين برسالتها تضاعف عدد المنضمين إلى دعوتها ممن كانوا من قبل لا يهتمون بها أو يقاومونها . ويجتمع إلى هؤلاء المؤمنين عدد آخر من جماهير الأمة عن طريق التقليد والعدوى حتى يأتى وقت تسير فيه الأمة جميعاً حول أقليتها الفعالة ويتضاعف الإنشاء والبناء شيئاً بعد شيء من أجل خلق

المجتمع الحديد على أساس المثل العليا والمقاييس الحديدية التي تمثلها هذه الأقلية . وهذا هو الدور الذي تقيم فيه الأمم أسس حضاراتها وتطبعها بطابع شخصيتها .

وتتزايد حركة البناء الحضارى على مر الأيام وتزداد قوة ما دامت الأقلية الفعالة مندمجة في الأمة ماضية في اتجاهها موحدة في غايتها عاملة على الملاءمة بين حياة الأمة وبين الظروف الحديدية التي تحيط بها ، مستعينة على تحقيق غايتها بتشاطر جمهور الأمة الذي تدفعه معها من الداخل بوجودها مندمجة فيه . فإذا حدثت فرقة في صفوف هذه الأقلية وانقسمت إلى فرق متعددة الاتجاه وإلى أحزاب متعارضة الاتجاه تصادمت اتجاهاتها وفقدت مقدرتها على الاستمرار في حركة التجديد والبناء الحضارى ، وتبددت قواها في المصادمات المتبادلة وتحولت عن تحقيق الغاية العامة إلى تحقيق غايات شتى تشوبها أنانية زعماء الفرق والأحزاب ، فيصبح المقصود هو تحقيق المصالح الخاصة بالزعماء والأحزاب التي تجتمع من حولهم .

ولا تلبث الأمة أن تشعر بانصراف قادتها ورواد نهضتها عن تحقيق أغراضها الكبرى فتأخذ هي في الانصراف عنهم ولا يبقى مع كل حزب إلا من تكون له مصلحة خاصة يريد أن يصل إليها . وبهذا يتغير موقف الأقلية التي كانت تسير موحدة الصفوف في طليعة الأمة المجتمعة حوطا وتصبح طبقة منفصلة عنها تسيطر عليها من أعلى بعد أن كانت تدفعها

وتندفع معها من الداخل وهي مندمجة فيها .

وعند هذا يبدأ دور ثالث من أدوار تطور الأمة وهو دور السيطرة . فالفرق المتنافسة والأحزاب المتعارضة تشيع الفرقة بين أبناء الأمة حتى يختل أمنها ويعود الاضطراب إليها ، فلا تجد الأمة أملاً في هذه الحالة إلا أن يعود إليها أمنها وتعود إليها وحدتها بأية وسيلة من الوسائل ، وترحب عند ذلك بانتصار أحد زعماء الفرق أو أحد قادة الأحزاب على منافسيه من الفرق أو الأحزاب الأخرى فيقهرهم بالقوة وينحضع أتباعهم لسلطانها حتى يجعلهم يسلمون له القيادة طوعاً أو كرهاً . فتتحول الأمة عند هذا من أمة حرة تؤمن برسالة وتتجه مع روادها نحو تحقيق أمانها إلى أمة خاضعة لسيطرة سيد انتزع السيادة فيها بالقوة لا بالثقة والإيمان، وسادها من أعلى ولم يتجه بها من داخلها . غير أن البناء الحضارى الذى بدأ ونما وازدهر في المرحلة السابقة لا يتوقف فجأة على أثر هذا التغير ، بل يبقى مستمراً في سيره على الدفعة السابقة التى اندفع بها . وتحفظ الدولة في صورتها العامة بما كان لها من رونق بل لأنها تزيد رونقاً في ظاهرها ويتضاعف إنتاجها المادى نتيجة لما اجتمع لها من أثر نشاط الأجيال التى توفرت بحماسة لإيمانها على البناء . فتصبح الحضارة أوسع دائرة ويكون مجد السلطان أكثر أهبة ويستكسب البناء الحضارى بهذا المجد وهذه الأبهة فيكون أبهر للأنظار وأبدع في المظاهر .

وتصبح الدولة الحيدة بسلطانها العظيم هى الصورة الظاهرة من الأمة

وإن كانت جماهير الأمة تصبح منعزلة عنها خاضعة لها خضوع الرعية لحكامها وليس سير الأمة مع روادها وقادتها .

وتؤثر مظاهر هذا المجد العظيم في الشعوب البدائية المجاورة لها فتأخذ في الاغتراف من الحضارة الباهرة ، وتسارع إلى الخدمة في جيوش الدولة التي كانت من قبل تعتمد في دفاعها وهجومها على جماهير شعبها ، فيتحول الدفاع عن الأمة إلى أيدي جنود مرتزقة ، وتفقد الأمة حماسها للدفاع عن نفسها .

وينتهي هذا الدور من حياة الأمة إلى خسارة كبرى على شعبها ، لأنه يعتزل حكامه الذين يتعالون فوقه وينصرف بثقته عنهم بل ينظر إليهم على أنهم سادة مستعلون دائماً للبغي عليه والتعسف في حكمه ، ويزيده اعتزالا عن حكامه حين يعتمد هؤلاء الحكام على الجيوش المرتزقة التي يجمعونها من الشعوب البدائية المجاورة ، ولا يلبث هؤلاء الجنود المرتزقة يتعالوا فوقه ويشاركوا السادة في البغي عليه والتعسف في حكمه . غير أن الدولة المسيطرة التي بدأت قاهرة مجيدة تحيط بها الأبهة ومظاهر الحضارة الرائعة لا تلبث أن تشعر بتأثيرات تعاليها عن الشعب وعزلة الشعب عنها . فالشعوب البدائية المجاورة لا تلبث أن تتجرأ عليها لأنها تعرف اعتماد الدولة عليها في الدفاع عن أرضها . وجمهور الأمة ينظر إليها نظرة التوجس وسوء الظن ولا يهيمه مصيرها ، بل يكون حريصاً على الخلاص من مظالمها . فتشعر الدولة المسيطرة بأنها تواجه جبهتين عدائيتين إحداهما جبهة الشعوب

الأجنبية من الخارج والأخرى جبهة جماهير الأمة المنزلة عنها في الداخل . فيبدأ عند ذلك الدور الرابع من أدوار تطور الأمة وفيه تأخذ الدولة في الانهيار تحت ثقل أعبائها ويأخذ الاضطراب في تمزيق أوصالها ، فقد ينتزع أحد القواد إقليماً من أقاليمها ، وقد يعتدى شعب مجاور على قطعة من أملاكها، وقد تتعرض في داخلها إلى ثورات جماهيرها الحائرة عليها أو إلى خروج منافس يبتغي انتزاع الحكم لنفسه كي يقيم دولة لنفسه ليحل محل الدولة القديمة في السيطرة على جماهير الأمة .

وفي هذا الدور تبدأ حضارة الأمة في الانحدار وتتجمد حركتها فيكون أكبر ما تستطيعه تقليد الأساليب التي ابتكرتها الأجيال السابقة والسير على أثر الأفكار التي أبدعتها هذه الأجيال . ويكون الدور الخامس والأخير من الدورة الحضارية الكاملة هو الدور الذي تتعرض فيه الدولة لصدمة عنيفة من داخلها أو من خارجها أو تصيبها أزمة من الأزمات الاقتصادية أو الاجتماعية فينفرد عقدها وتشملها القوضى ويعمها الشقاء وتهدر فيها الدماء وتختل فيها مقاييس القيم وتهدر المثل العليا فلما أن ينجمها من هذه القوضى استيلاء شخص قوى ينبع من وسط الظلام فيعيد تكوين دولة مهيمنة جديدة على أنقاض الدولة المسيطرة السابقة، وفي هذه الحالة تستمر الأمة في دورها الخامس نفسه وتزداد جموداً وتورطاً في مواجهة الجهتين العدائيتين السابق ذكرهما، ولما أن ينتهي أمرها إلى قوضى شاملة وتسئول الشعوب البدائية المجاورة على أملاكها وتنتهي بذلك دورة كاملة

من دورات حياتها وحضارتها .

فراحل تطور الأمم كما تصورها نظرية توينبي تتلخص فى الأدوار الخمس الآتية : المرحلة الأولى مرحلة البطولة التى يسودها القلق وفيها تكثر المصادمات وتظهر البطولات وتتجلى المثل العليا للأمة .

والمرحلة الثانية دور الوحدة والتحرك حول أقلية فعالة تسير معها الأمة نحو تحقيق أمنائها وتبدأ فى بناء حضارة متميزة بطابعها، والمرحلة الثالثة دور التحول الذى تغلب فيه الأقلية الفعالة إلى دولة مهيمنة، ويستمر فيها البناء الحضارى ويزداد العمران، ولكن الأمة تبدأ فى فقد حيويتها وتأخذ فى الانعزال عن حكامها .

والمرحلة الرابعة دور سيطرة الدولة المهيمنة التى تتسم بمظاهر المجد ولكنها تنطوى على عوامل الضعف والانحلال فتعرض لعداوة جبهة خارجية من الشعوب البدائية المحيطة بها وجبهة داخلية من شعبها الذى انعزل عنها وفقد الثقة فيها .

والمرحلة الخامسة دور انهيار الدولة وشيوع الفوضى واستيلاء الشعوب البدائية على أرضها .

فلننظر الآن إلى تاريخ أمتنا العربية وأدوار حياتها على ضوء هذه النظرية .

الدور الأول من حياة الأمة العربية

(العصر الجاهلي)

كانت الجزيرة العربية مهداً للأمة العربية منذ أقدم العصور ، ولكن قلة الآثار المتخلفة عن هذه العصور لا تمكننا من معرفة الكثير من تاريخ هذه الأمة وما شهدته رمال جزيرتها العظيمة من الحوادث الكبرى . غير أننا نستطيع أن نقول استناداً على بعض الوثائق التاريخية إن طائفة عظيمة من عرب الجزيرة هاجرت إلى مصر وامتزجت بأهلها حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وإن طائفة عظيمة أخرى منهم هاجرت نحو العراق وغمزت الحضارة السومرية القديمة لتكون منها فيما بعد حضارة بابل الكبرى . وحوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد حدثت هجرة ثالثة عظمى من العرب إلى سوريا وكانت نشأة الفينيقيين إحدى نتائج هذه الهجرة .

ثم خرجت من جزيرة العرب موجات هجرة أخرى، كان من بينها الآراميون الذين أقاموا حول دمشق والحكسوس الذين حلوا بمصر .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق ما كانت عليه حالة جزيرة العرب في العصور الموزلة في القدم، ولكن بعض الباحثين يقولون إنها كانت في وقت ما أغزر أمطاراً وأكثر خصباً شأنها في ذلك شأن الإقليم الصحراوي الفسيح الذي يمتد من أواسط آسيا إلى شمال أفريقيا ، فلما تغير جو ذلك

الإقليم وقتل أمطاره شيئاً بعد شيء ، أخذ سكانه يهاجرون إلى الأرض المتاخمة له ليجدوا فيها وطناً جديداً أصلح لحياتهم ، واضطر من بقي من أهله إلى الملازمة بين حياتهم وبين الظروف الجديدة التي تتطلب الصبر والجلد وقوة المقاومة .

غير أن الجزء الجنوبي من جزيرة العرب كان وما يزال أكثر أمطاراً وخصباً فنشأت فيه حضارة موعلة في القدم وهي الحضارة اليمنية التي تتصل بها أسماء دول متعاقبة كالدولة المعينية والدول السبئية والقطبانية والحمرية . وكان الجزء الشمالى من الجزيرة العربية كذلك موطناً لدول مختلفة أحدث عهداً من الحضارة اليمنية مثل دولة تدمر التي يتصل بها اسم الملك أذينة وزوجته الملكة (زنوبيا) ، وكان لها شأن كبير في حوادث الشرق الأدنى خلال المصادمات العنيفة التي وقعت بين دولتي الفرس والروم في القرن الثالث الميلادى ، وقد امتد ملك دولة تدمر في زمن الملكة زنوبيا إلى العراق وآسيا الصغرى ومصر حيث ضربت النقود باسمها واسم ولدها (وهب اللات) ، غير أن دولتها لم تلبث أن تحطمت على يد الإمبراطور (أورليان) في أواخر القرن الثالث للميلاد . وكانت مدينة (بطرة) مركزاً لدولة أخرى وهي دولة (التبط) التي استطاعت أن تصد غارات (أنتيجون) خليفة الإسكندر المقدونى في عام ٣١٢ قبل الميلاد . وقد استمرت هذه الدولة مزدهرة وبقيت (بطرة) مركزاً للتجارة بين الشرق والغرب إلى أول القرن الثانى للميلاد عندما دخلت في أملاك الدولة الرومانية .

وإذا كانت الجزيرة العربية قد بعثت بهذه الهجرات الكثيرة إلى البلاد المجاورة لها فلإنها كذلك لم تخل من محاولات كثيرة للهجوم عليها من الدول الكبرى التي تعاقبت على البلاد التي حولها .

فقد سجلت الآثار الآشورية أن الملك (شالمنصر) الثالث أغار في عام ٨٥٤ قبل الميلاد على ملك عربي اسمه (جندبو) ، وغنم ألفاً من إبله كما أن المصريين بعثوا بعثة قبل ذلك بألاف من السنين لاستخراج النحاس والعقيق من حول مدينة (يثرب) وهي المدينة المنورة. وقد غزا الفرس أرض العراق العربي في القرن الثالث للميلاد وسيطروا على مملكة الحيرة العربية التي يرجع تأسيسها إلى أواخر القرن الثاني للميلاد، كما سيطر الروم على دولة الغساسنة العربية التي كان ملوكها يقيمون في (جلق) على مقربة من دمشق الحديثة .

ولما مدت الدولة الفارسية سلطانها إلى العراق العربي واتصلت حدودها بحدود الدولة الرومانية ، زادت فرص الاحتكاك بين الدولتين الكبيرتين وأدى ذلك إلى حروب دموية استمرت قروناً عدة وكانت كل منهما تعتمد على العرب الذين تسيطر على بلادهم في مساعدتها على القتال ، فكان عرب العراق يقاتلون في صفوف فارس وكان عرب الشام يقاتلون في صفوف الدولة الرومانية .

وقد مدت الدولة الفارسية سلطانها في أطراف الجزيرة العربية من ناحية الشرق فاستولت على (عمان) في القرن الرابع الميلادي كما استولت

الحبشة على اليمن ، وحاول (أبرهة) الحبشى أن يستولى على مكة ، وأعد لذلك حملة عظيمة استخدم فيها الفيلة لإرهاب أهل مكة وأكثرهم من قبيلة قريش ولكن هذه الحملة انتهت إلى كارثة عظيمة ترددت أصدائها في الجزيرة العربية عامة ، وبقيت قريش والقبائل المجاورة تؤرخ الحوادث بعام الفيل وهو العام الذى خاب فيه أبرهة فى فتح مكة .

وقد ثار عرب اليمن على الدولة الحبشية المسيطرة عليهم بمساعدة الدولة الفارسية التى سيطرت على اليمن فى أواخر القرن السادس للميلاد .

فمن هذه الحقائق يبدو لنا واضحاً أن الجزيرة العربية كانت منذ أقدم العصر موطناً لشعب العرب ، وأنها بعثت من داخلها هجرات كثيرة كانت لها آثار عظيمة فى إقامة حضارات ودول عدة فى الأقاليم المجاورة ، ومعنى هذا أن هذه الجزيرة كانت على صلة وثيقة بالبلاد المجاورة لها وكان أهل تلك البلاد يمتنون بصلات كثيرة إلى وطنهم الأصيل الذى يشاركونه فى اللغة ، وأن هذه الصلات كانت بطبيعة الحال تؤدي إلى الأخذ والعطاء ، وسريان مستمر لمظاهر الحضارة وآثار الثقافة بين العرب فى بلادهم وأبناء عموماتهم فى الأقطار المجاورة . ولم تكن جزيرة العرب نفسها بمنأى عن تأثير البلاد المجاورة ، فإن الفرس سيطروا على شرقها وجنوبها فى عمان واليمن كما أن الروم سيطروا على شمالها فى دمشق وتدمر وبطرة بل حاولوا غزو قلبها فى القرن الأول للميلاد فردتهم عن غزوتهم رمالها الفسيحة ، ولهذا بقي العرب لائذين فى وسط جزيرتهم الفسيحة

محتفظين باستقلالهم ، مع اتصالهم بالأقاليم المجاورة اتصالاً وثيقاً على توالى العصور .

فالأمة العربية وإن كانت منذ أقدم العصور متصلة بجيرانها من كل جهة بقيت محتفظة باستقلالها في وسط جزيرتها الصحراوية التي لم يكن شعب آخر غير العرب يستطيع أن يخترق شعابها أو يقدر على مواجهة الحياة في أرضها .

وأول ما يسترعى النظر في حياة العرب في حصنهم العظيم بالجزيرة العربية قيام نظامهم الاجتماعي على الرباط القبلي ، فولاة الفرد لا يكون إلا لقبيلته وولاؤه لها لا يقف عند حد ، فأعداء القبيلة أعداؤه وأوليائها أولياؤه . وإذا كان العربي يحمل هذا الولاء لقبيلته فلأن قبيلته كذلك تحمل له ولواء مماثلاً ، فهي المسئولة عن سلامته وهي التي تحميه من كل اعتداء ، فإذا اعتدى أحد عليه كان عليها أن تنصره بغير تحفظ ، وأن تضحي في سبيل نصرته بكل ما لديها من قوة ، ولا تبخل بدماؤها وأموالها في الانتقام له إذا قتل . وكان للفرد في القبيلة أن يجبر من ينزل في جواره ويكون من واجب القبيلة أن تحمي ذلك الجار من كل اعتداء ما دام مقيماً بها ، فإذا تبين لها أنه غير جدير بحمايتها أُنذرت به بأنها تريد أن تتخلى عن جواره وتطلب منه أن ينزح عنها ، ولكنها لا تسمح لأحد بالاعتداء عليه حتى يرحل عن جوارها .

وكانت كل قبيلة ترشح من بينها سيداً زعيماً ولا تختار زعيمها إلا من

رضاء وطوعية لما تجده فيه من صفات السيادة، وهى الصفات التى تعدها القبيلة ذروة فضائلها . فلا بد للزعيم أن يكون شجاعاً وأن يمتاز بالحلم والكرم والمهارة فى فنون القتال وقيادة المعارك . غير أن ذلك الزعيم لم يكن حاكماً مسيطراً فالحياة فى الصحراء تسوى بين الأفراد، وكان لكل فرد فى القبيلة حق الاشتراك فى المناقشات المتصلة بمصالحها ومعارضة رأى الزعيم إذا بدا له أن رأيه غير حكيم أو غير مناسب للظروف .

فالحرية والمساواة وكرامة الفرد كانت دعائم الحياة الاجتماعية بالنسبة إلى الفرد، ووحدة القبيلة وتضامنها وتكافلها وولاء كل فرد فيها لمجموعها كانت دعائم الحياة الاجتماعية بالنسبة للقبيلة .

وأما سلوك الفرد فى حياته الخاصة فيما لا يتصل بعلاقته بقبيلته فكان مطلقاً من كل قيد . فكان مقياس القيم عندهم قائماً على الاعتداد بالفضائل الاجتماعية وصرف النظر عن كل ما عدا هذه الفضائل .

فالكرم فضيلة ذات قيمة كبرى لأنه يمثل فضل الفرد على غيره من الناس ، وكذلك كانت المروءة والشجاعة والوفاء والمحافظة على العهد فهى جميعاً فضائل اجتماعية لأنها تمثل أفضال الفرد على غيره من الناس ، ولكن القسوة على الأعداء ونهب أموالهم وسبي نسائهم واتخاذهم إماء أحياناً أو زوجات أحياناً أخرى، والتمتع بنشوة الخمر وغيرها من الملهيات عقب الانتصار والغيرة الشديدة التى تؤدى إلى المبادرة بسفك الدماء والإسراع إلى العنف عند أول بادرة تشعر بمس الكرامة فلم تكن تعد من

الردائل لأنها لم تكن متصلة بعلاقة الفرد بقبيلته بل لقد كان بعض ما نعهده اليوم من الردائل يعد فضائل عند العرب مثل المقامرة لأنها كانت تعود بالنفع على الفقراء، إذ كان الفائز يوزع ما يصيبه من الربح على فقراء القبيلة .

ونظراً إلى القيمة الكبرى التي كانت لعلاقة الفرد بقبيلته كان أكبر عقاب يمكن أن يقع على أحد أبناء القبيلة أن يتبرأ قومه منه فيصبح طريداً منبوذاً، ويكون دمه مباحاً ولا حق له في أن تثار له القبيلة إذا اعتدى عليه أو تطالب بدمه إذا قتل . ولكن هذه العقوبة الشديدة لم توقع إلا في أحوال نادرة يكون فيها الفرد قد ارتكب ما يجلب العار على قبيلته . والظاهرة العامة التي تتميز هذه العصور القديمة التي استمرت إلى قبيل ظهور الدعوة الإسلامية كانت المصادمة المستمرة بين القبائل المختلفة .

فكثيراً ما كانت المشاحنات تنشأ بينها إذا اصطدمت مصالحها على موارد المياه القليلة في الصحراء أو احتك بعضها ببعض في المنافسة على المراعى . ولكن هذه المشاحنات لم تكن السبب الوحيد في قيام الحروب بين القبائل إذ كان القتال يثور بينها على أثر عداوة شخصية بين فرد من قبيلة وفرد من قبيلة أخرى، فتنصرف قبيلة كل منهما لصاحبها ظالماً أو مظلوماً بدافع العصبية الشديدة وينتهى الأمر إلى حروب دموية قد تتطاول لسنوات عدة . ولسنا نعرف على وجه التحقيق أسباب

الحروب المستمرة التي ثارت في هذه الحقبة الطويلة من تاريخ الأمة العربية، لأنها لم تسجل في وثائق يمكن الرجوع إليها، وكل ما نعرفه عنها لا يزيد على أصداء بعيدة أثبتتها المؤرخون ورواة الأخبار في العصور التالية بعد أن مضى على وقوعها مئات من السنين . وكان شعراء العرب يرددون في قصائدهم ذكر الوقائع القديمة ليفاخروا بما أحرزته قبائلهم فيها من النصر والمجد أو لما كان لأجدادهم من المآثر والمكارم ، وكانوا من ناحية أخرى يرددون في قصائد هجأهم ما وقع لخصومهم من الهزائم أو ما روى عنهم من النقائص . وقد استمر ترديد الشعراء لأصداء الحوادث القديمة مئات من السنين بعد أيام وقوعها، فكانوا في مدائحهم أو أهاجيمهم للزعماء يذكرون ما كان للقبائل التي ينتسبون إليها من المفاخر أو المثالب . وما تزال كتب التاريخ والأدب العربي تحتوي على طائفة كبيرة من الأخبار المتصلة بوقائع الحروب بين القبائل، مثل قصص حروب بكر وتغلب التي ثارت بين القبيلتين على أثر مقتل كليب واستمرت على ما قيل عشرات من السنين ومثل قصص الحرب بين العرب والحبشة في اليمن وهي الحرب التي كان بطلها سيف بن ذي يزن كما رددت طائفة أخرى من قصص الأبطال، كعنبرة بن شداد العبسي وعروة بن الورد ، ونحن نستطيع مع قلة ما وصل إلينا من هذه السير أن نتصور ما كان عليه العرب في حياتهم المضطربة في جاهليتهم كما نستطيع أن نتعرف ما كانوا يعدونه من الأعمال مدعاة للإعجاب والفخر ، وما كانوا

يرونه مجلبة للخزى والهوان . فهذا العصر من تاريخ الأمة العربية يمثل دور البطولة في حياتها .

وهو يشبه عصر البطولة اليونانى الذى تخللته حروب طروادة ، تلك الحروب التى خلدت ذكرها ملاحم الإلياذة والأوديسية التى تنسب إلى الشاعر اليونانى القديم (هوميروس) . وقد ألف العرب فيما بعد عدداً من القصص الشعبية الطويلة التى يمكن أن نقرنها بملاحم الإلياذة والأوديسية مثل قصص عنتره والوزير سالم وسيف بن ذى يزن .

فالعصر الجاهلى بالنسبة إلى الأمة العربية كان عصرأ خصباً حافلاً بصور المثل العربية العليا وإليه يرجع الكثير مما كون الشخصية العربية ووضع لها مقاييسها فى القيم الاجتماعية والخلقية كالكرم والشهامة والوفاء وحفظ حرمة الجوار والأنفة من الذل وبذل الحياة والأموال فى سبيل المحافظة على الشرف وتقديس معنى الحرية والصبر على الشدائد ، غير أنه خلف للعرب مجموعة أخرى من الحاصل التى لا تستقيم معها الحياة الاجتماعية المظمئة ، ولا يمكن معها جمع شمل القبائل المتنافسة فى أمة واحدة ، فإن الحياة القلقة التى سادت العرب فى جاهليتهم كانت تثير فيهم العصبية الهوجاء للقبيلة كما كانت تثير فيهم الغلظة والقسوة فى معاملة الأعداء والمنافسين ولم يكن لديهم حدود خلقية فى مسالكهم الخاصة التى تتصل بعلاقتهم مع أفراد غير قبيلتهم .

غير أننا نستخلص من أخبار العرب فى جاهليتهم بعض المظاهر

الأخرى التى تدل على أنهم كانوا يشعرون برابطة عامة تجمع قبائلهم على رغم ما كان يقع بينها من المنافسات والمصادمات ، فكانوا يجتمعون فى كل عام فى مواسم معينة ليقيموا أسواقاً يتبادلون فيها البيع والشراء ، كما يعرضون فيها ما لديهم من فنون كالرقص والغناء ، وكان الشعر أعلى فنونهم وألصقها بنفوسهم . فكان شعراء كل قبيلة ينشدون ما أبدعوه من القصائد التى يودعون فيها ما تفيض به نفوسهم من المشاعر و يقيمون بعض كبار شعرائهم محكمين للمفاضلة بين القصائد فإذا قضا بفوز أحد الشعراء أصبح لقبيلته فضل معترف به على سائر القبائل ، وأصبح الشاعر مفعرة أى مفعرة لقومه . وهذه المواسم العربية تشبه فى كثير من الوجوه ما كان اليونانيون يقيمونه من المواسم التى يتبارى فيها الشبان فى إظهار براعتهم فى فنون الرياضة ، وكانت هذه وتلك من العوامل القوية على إشعار كل من اليونانيين والعرب بأنهم ينتسبون إلى أمة واحدة ، على رغم ما كان يمزق شملهم من المنافسات والحروب . وكان العرب يتهادنون فى هذه المواسم فيمتنعون فيها عن القتال ويحرون فيها الاعتداء ، ويعدون من ينهك حرمة هذه الأوقات مجرمًا يجر العار على نفسه وعلى قبيلته . فإذا وقع قتال أو اعتداء فيها عده العرب حادثاً خطيراً وتحدثت به القبائل جميعاً وقد تجتمع طائفة منها لإيقاع العقاب الرادع بالمعتدى .

وكان من أظهر دلائل شعور العرب بالرابطة العامة بينهم إجماعهم على القيام بشعيرة الحج إلى معبد واحد وهو كعبة مكة ، فيقصدون إليها

كل عام في شهر ذى الحجة وهو أحد الأشهر الحرام التي أوجب العرب على أنفسهم فيها الامتناع عن القتال والاعتداء ، وكان موسم الحج أكبر محافل العرب وأشملها ومنه استمدت قبيلة قريش سكان مكة ، مكانتها المرموقة بين قبائل العرب . وقد بذلت محاولات شتى للقضاء على هذه الرابطة التي كانت تجمع بين العرب وتشعرهم بأنه أمة متميزة بنفسها ، وكان من أخطر هذه المحاولات ما قام به أبرهة الملك الحبشي الذي كان يسيطر على بلاد اليمن ، فإنه أنشأ كنيسة عظيمة في صنعاء تعرف باسم (القليس) وبالع في تجميلها لتبهر أنظار العرب حتى يحجوا إليها وينصرفوا عن الحج إلى الكعبة ، وساعده في محاولته الإمبراطور الروماني الكبير جستنيان فبعث إليه بالصناعات المهرة والمعادن الثمينة فصارت (القليس) تحفة فنية رائعة ولكنها لم تجتذب الحجاج العرب من كل فج عميق كما كان يأمل أبرهة . فحاول أن يحطم كعبة مكة بالقوة فسار في جيش كبير لمحاربة قريش وهدم كعبتهم وحشد في طليعة جيشه عدداً من القبيلة الضخمة ولم يكن للعرب عهد برؤيتها ، فهالتهم ضخامتها ولم تستطع قريش أن تقف في وجه الجيش الكبير الذي اتجه به أبرهة إليهم فصعدوا في الجبال المحيطة بمكة واختفوا بين شعابها فلم يجد أبرهة صعوبة في دخول المدينة والاستيلاء على الإبل التي كانت ترعى في الأودية المجاورة لها . وحاول الملك الحبشي أن يستميل زعماء قريش فبعث إلى شيخهم عبد المطلب بن هاشم ليفاوضه في الصلح على شرط أن تمكنه

قريش من هدم الكعبة فلم يلق في مفاوضته نجاحاً، وهم بأن يهدمها بنفسه ولكنه عوجل قبل أن يتم عزيمته إذ تفشى مرض غامض في جنوده ففضى على أكثرهم واضطر أبرهة إلى العدول عما أرادته وانصرف راجعاً إلى صنعاء ولكنه مات في طريقه إليها . ولاشك أن الصحراء كانت في هذه المرة كما كانت دائماً حصناً منيعاً للعرب فليس فيها من الطعام والماء ما يكفي لمؤونة جيش كبير وليس فيها من العمران ما يمكن لأعداء العرب أن يستظلوا به إذا أرادوا غزوهم . وكانت خيبة أبرهة في هدم الكعبة وإخضاع قريش من أكبر الحوادث في نظر العرب عامة حتى إنهم صاروا يؤرخون حوادثهم بالنسبة إلى العام الذي سار فيه أبرهة بفيله الضخمة لغزو مكة وكانوا يسمونه بعام القيل .

ومن المظاهر التي تدل على شعور العرب بوحدتهم في الجاهلية على رغم منافساتهم القبلية أنهم حاولوا تنظيم العلاقات بينهم حتى لا تقضى الفوضى الشاملة عليهم ، فكانت القبائل تعقد المحالفات فيما بينها حتى لا يتجرأ أعداؤها على مهاجمتها مفردة ، ولكن هذه المحالفات لم تؤد إلى منع الحروب فيما بينها بل جعلت حروبهم تزداد شدة لوقوعها بين مجموعات متعادية من القبائل. على أننا نلاحظ أن شعور العرب بالعدالة كان عنصراً هاماً في حياتهم المضطربة وفي عقد محالفاتهم أو نقضها ، فإذا اعتدت إحدى القبائل على قبيلة أخرى بغير أن يكون لها مسوغ عادل لهذا الاعتداء في نظر القبائل المحالفة لها بادر الحلفاء بالانصراف عن نصرتها .

وقد حدث مثل هذا في الحروب التي ثارت بين أبناء العم بكر وتغلب ، فقد اجتمعت القبائل المجاورة على نصرة تغلب لأنهم رأوا في مقتل زعيمها كليب ظلماً واعتداء من بكر ، ولكن هذه القبائل انصرفت عن نصرة تغلب حين تبين لها أن المهلهل شقيق كليب قد تعدى حدود القصاص العادل في طلبه لثأر أخيه وبالغ في التنكيل بأبناء عمه فانقلبت على المهلهل وحاربتة عندما أصر على المضي في الحرب حتى انتهى أمره إلى أن مات أسيراً طريداً . وحدث مثل هذا حين قام امرؤ القيس بن حجر مطالباً بثأر أبيه الملك حجر من قتلته بنى أسد فلن كثيراً من القبائل المجاورة هبت لنصرته على بنى أسد انتصاراً للعدالة حين وجدته يطالب بحق مقرروهو الثأر لأبيه ، ولكن هذه القبائل انصرفت عن نصرته عندما وجدت أنه لا يتردد في الغدر ولا يراعى حدود الاعتدال والعدالة في طلبه لثأر أبيه ، وكانت نتيجة ذلك أنه ذهب إلى خارج الجزيرة لالتماس المعونة من الروم ومات في عودته من هناك طريداً وحيداً منبوذاً . فهذه القصص في مجموعها تبين مقاييس العدالة التي كان العرب يتمسكون بها في جاهليتهم .

وهناك أدلة لا حصر لها في ثنايا الأخبار الباقية من ذلك العصر وكلها تشير إلى أن محالفات القبائل في مصادماتها كانت تقوم على أساس ما تقرره قواعده العدالة المقررة بينها . حقا إن الفوضى كانت عامة وشاملة وكانت المصادمات بين الأفراد والقبائل لا تجد ما يكبحها من قوة دولة

مسيطرة أو هيمنة ذات سلطان تفصل في منازعاتها، ولكن القبائل كانت تهب من تلقاء نفسها إلى نصرته المعتدى عليه وتتحالف ضد المعتدى وكانت لديها حدود مقررّة لمعنى الحق والواجب ومعنى العدالة والمروءة .

ولم تقتصر هذه الحدود المقررة على تحديد الحقوق والواجبات في العلاقات بين القبائل بل كانت تشمل حقوق الأفراد ومن أمثلة ذلك ما اتفقت عليه قبائل قريش فيما بينها عندما وجدت أن بعض الأقوياء من أهل مكة يعتدون على الضعفاء، وهذا الاتفاق هو المعروف في التاريخ بحلف الفضول وهو يقرر أن القبائل جميعاً تجتمع للأخذ بناصر الضعفاء وتحول بين الأقوياء وبين الاعتداء عليهم .

ومن القواعد التي كانت موضع الاحترام عند العرب جميعاً في قانون العدالة العرفي بينهم ما أشرنا إليه من حق الجوار فإن الذي يلجأ إلى أحد الأفراد في قبيلة كان يعتبر جاراً للقبيلة كلها .

وقد يطول بنا الحديث إلى مدى بعيد لو أردنا أن نبين ما تجلّى في العصر الجاهلي من قواعد السلوك ومقاييس القيم والمثل العليا من خلال حوادث الاضطراب والفوضى الشاملة التي سادت قبائل العرب في هذا العصر . وقد صارت مجموعة هذه القواعد والمثل ميراثاً عاماً للعرب وكونت في مجموعها قانوناً عرفياً يخضع الجميع له خضوعاً اختيارياً ويلتزمون حدوده من تلقاء أنفسهم فكان الخروج عليه يعتبر عندهم شلوذاً شنيعاً يقابلونه بالإنكار ويعملون على إيقاع العقوبة الرادعة بمن يخرجون عليه .

ولكن أكبر المظاهر الدالة على شعور العرب بوحدتهم كانت تتجلى حين تتعرض بعض القبائل لاعتداء أجنبي من إحدى الدول المحيطة بجزيرتهم . وقد مر ذكر امتناع القبائل عن الحج إلى القليس وابتهاج العرب جميعاً بخيبة أبرهة في هدم الكعبة في عام الفيل . وهناك أمثلة عدة على تجلى هذا الشعور في مناسبات عدة ، فقد اهتزت القبائل العربية جميعاً حين نجح سيف بن ذى يزن في طرد الحبشة من اليمن بمساعدة الملك أنو شروان ملك الفرس واعتبرت ابن ذى يزن أحد أبطالها وذُهِبَ وفودها إليه لتهنئته بانتصاره .

وكان من أوضح الأمثلة على شعورهم بالوحدة موقفهم من وقعة ذى قار التى وقعت بين الجيش الفارسى وبين بعض بطون قبيلة تغلب على الحدود الشمالية الشرقية لجزيرة العرب ، فقد اجتمعت قبائل الحدود ووقفت مع تغلب فى شعاب ذى قار وأحرزوا فيها نصراً باهراً على الجيوش الضخمة ذات العدد والعدة وكانت رمال الصحراء من أكبر الحلفاء التى ساعدتهم على الانتصار . وقد عدت قبائل العرب هذا الانتصار من مفاخرها وابتهجت به فى طول الصحراء وعرضها .

وقد تجمعت آثار هذا الشعور وبلغت ذروتها قبيل ظهور الإسلام حتى إنه ليحق لنا أن نقول إن نفوس العرب كانت قد نضجت للوحدة فى ذلك الوقت وتبلورت فيها مواريث عصر البطولة الجاهلى واستعدت للصقل والتهذيب والتجمع لتحقيق غاية حين يتهاها وجود الدافع الذى

يدفعها إلى التجمع والتحرك . فليس ببعيد من هذا المعنى ما يردده مؤرخو العرب إذ يقولون إن العرب كانوا يشعرون قبيل ظهور الإسلام بقرب انبعاث رسول منهم يجمع كلمتهم ويوجه ما فيهم من قوى كامنة وينقى حياتهم من شوائب الفوضى والقسوة والعنف ويحقق معجزة ميلاد أمة عربية موحدة .

وكانت علاقة العرب بالدول المجاورة في العصر الجاهلي تتسم بظاهرتين تبدوان متناقضتين ولكنهما في الحقيقة ترجعان إلى سبب واحد وهو طبيعة الجزيرة التي يقيمون فيها . كانت بلاد العرب تتوسط العالم المعروف عند ذلك فلمل شرقها تقع دولة الفرس وما يليها من البلاد ذات المدنية العريقة كالهند والصين وإلى غربها تقع الأقاليم الفسيحة التي كانت تسيطر عليها دولة الروم . وكانت الجزيرة العربية تمتد جناحين منها إلى الشمال يبرزان بين الدولتين الكبيرتين فارس والروم ، فأحد الجناحين هو العراق العربي الذي سيطرت عليه الدولة الفارسية منذ القرن الثالث للميلاد والجناح الآخر هو الشام الذي سيطرت عليه دولة الروم .

وكانت كل من الدولتين الكبيرتين المجاورتين للجزيرة العربية تتحكم في شعوب عدة على طريقة تشبه طريقة الاستغلال الذي عرف في القرن التاسع عشر بالاستعمار ، فكانت دولة الفرس تسيطر على مجموعة من شعوب العرب والأرمن في العراق وعلى شعوب الديلم في جوار بحر قزوين وعدد من شعوب الترك فيما يلي نهري سيحون وجيحون ، وكانت

دولة الروم تسيطر على جانب آخر من الشعب العربي في الشام وعلى مجموعة أخرى من اليونان والمصريين وشعوب شمال أفريقيا . فكانت جزيرة العرب هي القطعة الوحيدة المستقلة في موطن الحضارات القديمة بين الدولتين الكبيرتين وكانت رمالها الفسيحة تحميها من امتداد سيطرة هاتين الدولتين إليها . وقد تعود العرب أن يعتزوا بحريتهم وأن ينظروا إلى الشعوب الأخرى نظرة تم عن الاعتداد بالنفس حتى قيل إن أمراءهم كانوا يأنفون أن يزوجوا بناتهم من ملوك غير العرب . ولكن العرب لم يكونوا في وقت من الأوقات منعزلين عن العالم الذي يحيط بهم من كل جانب ، بل كانوا بحكم موقع جزيرتهم في وسط هذا الإقليم ، يندكون بأنهم أمة وسط بين الشعوب ، يتعاملون مع الجميع ويعرفون الشيء الكثير عن خصائص بلاد الإقليم كله . كانوا منذ عهد بعيد يحملون التجارة بين الشام ومصر وبين اليمن كما يحملونها بين فارس وبين البحر الأحمر .

وكانت سفن القبائل المقيمة على الشواطئ الشرقية والجنوبية تعوض البحار إلى سواحل آسيا الجنوبية والشرقية وإلى سواحل أفريقيا الشرقية . وهناك أدلة كثيرة على أن كثيراً من العرب كانت لهم صلات وثيقة ومعرفة دقيقة بالبلاد المجاورة فمنهم من كان يتردد على مصر ومنهم من كان يتردد على الحبشة ، بل إن منهم من أقام في سواحل الهند وأفريقيا قبل الإسلام بمعهود طويلة . وقد ترددت فيما بعد أقاصيص كثيرة في أساطير

تمكس حقيقة هامة وهي أن طوائف من العرب جاست خلال بلاد أفريقيا وامترجت بشعوبها كما جاست خلال أواسط آسيا وامترجت بشعوبها ، فلم يكن العرب منعزلين عن العالم المحيط بهم رغم تحصنهم كأمة في جزيرتهم والحفاظة على شخصيتهم واستقلالهم عبر القرون . ولم يخف عليهم أن شعوب البلاد المحيطة بهم فيما بين النهرين وفي الشام ومصر وشمال أفريقيا كانت جميعاً ذات حضارة مألوفة عند العرب وذات صلات قوية بهم وأنها كانت خاضعة لحكم أجنبي يتحكم فيها بالقسر والضغط وهي تتألم وتأنف من خضوعها لذلك الحكم وتحاول الثورة عليه وتود لو أتاحت لها الفرصة لرفع نيره عن رقابها .

لهذا لم يكن بعيداً عن تصور العرب أن هذه الشعوب المجاورة تعيش في حالة قلق وتحفز للثورة على حكامها ، مع أنه لم يخطر ببالهم في ذلك العصر أنهم يستطيعون التدخل في شئون هذه الشعوب ، بل لم يخطر لهم أنه من الممكن لهذه الشعوب أن تتحرر من الدولتين المسيطرتين عليهما لما كان للدولتين من مظاهر القوة والجد وما كانت كل منهما تملك من الثروة وما لكل منهما من الجيوش الجاراة . وفي الوقت عينه لم يكن يخطر لرعايا الدولتين الكبيرتين ولا لحكاهما أن الأمة العربية الممزقة في قبائلها المتنافسة تستطيع في يوم من الأيام أن تجمع شملها وتصبح أمة واحدة وتكون باجتماعها قوة يقام لها وزن إلى جانب الدولتين العظمتين المسيطرتين على الأقاليم المجاورة لها .

غير أن ذلك الذى لم يخطر لأحد من العرب ولم يخطر لأحد من أبناء الشعوب الخاضعة للروم والفرس كما لم يخطر لأحد من حكام الدولتين العظيمتين قد حدث فعلا على حين فجأة، فإذا هذه الأمة الممزقة الدامية فى حروب قبائلها المنحصنة وراء رمالها تتوحد بعد فرقها وتكون دولة تجمع شملها وترفع علمها فى مدة لا تزيد على عشرين عاماً، فتقدم للتاريخ مثالا فذاً لحدوث معجزة لم يكن أحد يتوقعها .

ولما كان تاريخ الأمة العربية فى العصور التالية متصلاً أقرب الاتصال بالشعوب المجاورة لها والدولتين المسيطرتين عليها كان علينا أن نلم بشيء من تاريخ نشأة الدولتين الكبيرتين ومنشأ علاقتهما بالشعوب الخاضعة لها ، وما آل إليه حكمهما من الفساد والانحطاط فى الوقت الذى كانت فيه الأمة العربية تستعد لتحقيق المعجزة بتوحيد شملها .

جيران العرب في العصر الجاهلي

في الوقت الذي كان فيه العرب في جاهليتهم على الحالة التي أجمعنا وصفها كان العالم المحيط بهم يفور ويستولى القلق الشديد على شعوبه لأسباب تختلف كثيراً عن أسباب القلق والفوران في داخل الجزيرة العربية .

ولسنا نستطيع أن ندرك حقيقة ما كانت تشعر به هذه الشعوب من الضيق والشقاء بغير أن نلم لإمامة قصيرة بما كانت تعانيه من الآلام والإذلال على أيدي حكامها الجبابرة .

فالذي يتتبع نشأة الدولة الفارسية (الساسانية) لا يسعه إلا أن يدرك أنها قامت من مبدأ أمرها على أساس القهر والاستغلال . كان مؤسس هذه الدولة أردشير بن بابك مغامراً استطاع أن ينتزع الحكم في إمارة صغيرة في قلب هضبة إيران ، ثم أخذ ييسط سلطانه بالقوة على من يليه من الأمراء الذين تقسموا أقاليم الدولة الفارسية القديمة ، في عصر ملوك الطوائف ، الذي أعقب استيلاء الإسكندر الأكبر على بلاد الفرس . وامتد ملك الساسانيين شيئاً بعد شيء ، نحو الشرق والغرب حتى أخضع

شعوب الترك شرقاً والديلم والأرمن شمالاً وكان الشعب العربى المقيم فى العراق من بين هذه الشعوب التى غلبت على أمرها ودخلت بالقهر فى هذه الدولة الجديدة .

ولكن هذه الشعوب بقيت متحفزة للتخلص من سيطرة الدولة الساسانية فما كان يخلو حكم أحد ملوكها من حملات واسعة النطاق لإخضاع الثورات التى كانت تهب فيها الشعوب نائرة بين حين وآخر لترفع عن رقابها نير الحكم الفارسى الشديد .

وكانت قبائل العرب الخاضعة للفرس من أكثر الشعوب ثورة على سادتها، فثارت مرة بعد مرة للتخلص من سيطرتهم وتعرضت لنكبات شديدة فى أعقاب ثوراتها إذ كان الملوك يقمعون ثوراتها ويوقعون بها أقسى صنوف التنكيل حتى لا تكون مثالا يشجع الشعوب الأخرى على الثورة . ومن أمثلة هذا التنكيل ما أوقعه الملك سابور ذو الأكتاف الذى أطلق عليه العرب ذلك اللقب لأنه كان يعذب شيوخ القبائل النائرة بخلع أكتافهم وتقطع أوصالهم .

ولكن المصادمات بين هؤلاء العرب وبين دولة الفرس المسيطرة عليهم لم تنقطع برغم هذا التنكيل فعمل ملوك فارس على تجنبها باستمالة أمراء العرب الخاضعين لحكمهم وكان مقرهم فى الحيرة على الحدود المتاخمة للجزيرة العربية ، فكان هؤلاء الأمراء أعواناً للفرس على تهدئة قبائل العرب عنهم كما كانوا أعوانهم فى حروبهم مع دولة الروم .

غير أن ذلك لم يكن كافياً لاستقرار الأمور بين دولة الفرس والعرب حتى إن الملك كسرى لإبرويز بعث بحملة كبيرة لغزو العرب في قلب جزيرتهم وكانت نتيجتها موقعة (ذى قار) التي أشرنا إلى انتصار قبائل العرب فيها .

ولم تكن الشعوب الأخرى الداخلة في حدود دولة الفرس بأقل تحفظاً للخلاص من نير حكمها ، فكانت الثورات لا تكاد تنقطع في إقليم أو آخر من الأقاليم وكان الملوك لا يحفظون هيبتهم إلا بتجريد الحملات الحربية على الشعوب لإخضاعها والتنكيل بها .

وليس لدينا من الوثائق التاريخية ما يمكننا من ذكر تفاصيل الثورات التي كانت تهب في داخل الدولة الفارسية من جانب الشعوب الخاضعة لحكمها رغبة في الخلاص من طغيانها ، ولكن المؤرخ العربى ابن جرير الطبرى يذكر في تاريخه الكبير عبارات عامة تدل على مقدار ما اتصف به الحكم الفارسى من الفساد والظلم بصفة عامة .

قال الطبرى في حديثه عن مدة حكم الملك سابور المعروف بلدى الأكثاف إنه جرد حملة لإخضاع العرب الذين كانوا يقيمون على سواحل فارس الجنوبية وسواحل بلاد العرب الشرقية « فأفشى فيهم القتل وسفك فيهم من الدماء سفكاً سالت به كسيل المطر . . . ثم عطف على بلاد عبد القيس فأباد أهلها إلا من هرب منهم فلحق بالرمال ثم أتى الإمامة ففعل بها مثل ذلك ولم يمر بماء من مياه العرب إلا غوره ولا بجب من

جبايهم إلا طمه . ثم عطف على بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة الفرس والروم بأرض الشام فقتل من وجده بها من العرب . . . إلخ » .

وكانت نتيجة هذه القسوة أن العرب كانوا يتحينون الفرص للوثوب عليه مرة بعد أخرى ويوقعون به ويحيوشه خسائر فادحة حتى اضطر في أواخر حكمه أن يترضاهم وعاد فأسكن قبائل تغلب وعبد القيس وبكر ابن وائل في مقاطعات كروان وتوج والأهواز .

وقال المؤرخ العربى نفسه فى حديثه عن مدة حكم الملك يزديجرد إنه كان سيئ الظن برعاياه شديد الإيقاع بهم حتى إنهم « اجتمعوا وشكوا ما ينزل بهم من ظلمه وتضرعوا إلى ربهم بتعجيل إنقاذهم منه » .

وقال فى حديثه عن الملك بهرام جور بن يزديجرد إنه قضى حياته فى حروب لإخضاع رعيته الثائرة وأنه خطب فى أهل مملكته أياماً متوالية حثهم فيها على لزوم الطاعة وأعلمهم أن نيته التوسعة عليهم وإيصال الخير إليهم وأنهم إن زالوا عن الاستقامة نالهم من غلظته أكثر مما نالهم من أبيه . . . » وفى هذا القول دلالة واضحة على أن رعيته كانت تتحفر للثورة عليه فهو يعدها بالخير إذا هى هدأت وأسلمت له القيادة ويهددها إذا هى ثارت بالعقوبة الشديدة التى لا تقبل عن إيقاع أبيه بها .

وقد استمر ملوك فارس على عسفهم بالشعوب التى يحكمونها فكان لا يخلو حكم أحدهم من حملات حربية لإخضاع ثورة أو أخرى فى ناحية من نواحي الدولة حتى كاد حكم دولة ساسان يكون سلسلة متصلة

من الحروب الدموية في داخل البلاد وخارجها . ويقول المؤرخ العربى عند حديثه عن حكم الملك كسرى (أبرويز) :

« إن كسرى طغى لكثرة ما جمع من الأموال وأنواع الجواهر والأمتعة ولكثرة ما غنم من بلاد العدو ، فبطر وشربه شرهة شديدة وحسد الناس على ما فى أيديهم من الأموال . . . وسام عماله الناس سوء العذاب فاستفسدوهم بذلك وبغضوا إليهم كسرى وملكه .

وقال فى موضع آخر : « واحتقر كسرى الناس واستخف بما لا يستخف به الملك الرشيد الحازم وبلغ من عتوه وجرائته على الله أنه أمر رجلاً كان على حرس بابه الخاص أن يقتل كل مقيّد فى سجن من سجنه فأحصوهم فبلغ ذلك ستة وثلاثين ألفاً » .

ويصف المؤرخ نتيجة هذه المظالم فقال إن الثورة هبت ضد كسرى حتى اضطّر إلى الهروب لينجو بنفسه واختار الثوار ولده شيرويه ليكون ملكاً عليهم واضطّروه إلى قتل أبيه .

وما كاد شيرويه يتولى الملك حتى قتل إخوته وكان عددهم سبعة عشر أخاً ، ولكنه لم يعمر بعد ذلك طويلاً فأتته بعد ثمانية أشهر . واستمر العرش ينتقل سريعاً من ملك إلى آخر أسوأ منه وكل منهم ينتهى من حكمه بكارثة لانتشار الفوضى فى البلاد وفساد نوايا الشعوب نحو حكامها ، وعسف الحكام برعاياهم وفساد أخلاقهم .

فهذه اللمحات القليلة التى أوردناها من التاريخ تستطيع أن تبين

لنا صورة عامة مما بلغه حال دولة الفرس من الفساد والاضطراب في داخل أرضها وما بلغته حال الشعوب الراضحة تحت سيطرتها من البؤس والشقاء . أما دولة الروم فكانت نشأتها أشد اتصالاً بالسيطرة والاستغلال من نشأة دولة فارس ، إذ بدأت روما كمدينة صغيرة أخذت تبسط سلطانها على القرى المجاورة ، وكانت تسكنها شعوب شتى تختلف عن شعب روما في الجنس وتمتاز عليه في الحضارة . وما زالت روما تمد حدود سلطانها حتى استولت على شبه جزيرة إيطاليا ثم أخذت توسع سلطانها على جزائر البحر الأبيض المتوسط إلى أن انتهى أمرها إلى التصادم مع دولة قرطاجنة في شمال أفريقية . وما زالت في حروبها مع هذه الدولة حتى قضت عليها قضاء تاماً وأصبحت أكبر قوة في حوض البحر الأبيض المتوسط فما جاء القرن الأول للميلاد حتى كانت روما الصغيرة قد بسطت سلطانها على أعرق البلاد حضارة وهي مصر والشام وبرقة وما يلي ذلك من السواحل ، حتى وصلت إلى أقصى بلاد المغرب . فصار الروم بذلك سادة الشعوب ذات الحضارة العريقة على حين لم تكن لهم أصول عريقة في حضارة أصيلة ، فكان حكمهم لتلك الشعوب قائماً على القهر والعنف والإرهاب ، لا ينظرون إليها إلا نظرة المسيطر المستغل الذي يريد أن يمتص خيراتها ويكبلها بالقيود خشية من وثوبها للخلاص .

فكانت هذه الشعوب تشعر منذ بداية حكم الروم بقلق شديد من الحكم الأجنبي وبالأثقة من الخضوع لدولة تسومها الذل وتعاملها بكبرياء

الدولة المسيطرة . ولم يكن فوق هذا كله بين دولة الروم وبين هذه الشعوب رابطة حضارية تقرب ما بينهم ، إذ كان الرومان أجانب عن حضاراتها كما كانوا أجانب عن جنسها .

فبدأ حكم الروم للشعوب ذات الحضارة القديمة أجنبيًا واستمر أجنبيًا أكثر من ستة قرون .

وكانت نظرة دولة الروم إلى الشعوب المقهورة التي تسيطر عليها نظرة تجمع بين التعالي والاستغلال ، فكان الجيش الروماني يظهر سطوة الدولة بأسوأ مظاهرها ، وجباة الضرائب يستنزفون ما لدى الشعوب المقهورة من ثروة ليبعثوا بها إلى خزائن روما للإنفاق على أبهة الأباطرة وحاشيتهم ، ومجموعة كبرى من الأعيان المترفين ، وجماهير صاخبة تعيش عاطلة في العاصمة الكبرى (روما) تطلب من السادة ما يشبع نهمها من الخبز والخمر ومناظر اللهو القذيفة . كانت المسارح الكبرى في العاصمة ترتج بالجماهير المتزاحمة لمشاهدة المصارعات التي تنتهى بالقضاء على حياة المصارع المهزوم أو لمشاهدة المصارعات بين الوحوش المفترسة أو المصارعات بين هذه الوحوش المفترسة وضحايا البشر الذين أوقعهم نكد الحظ تحت غضب أولى الأمر القساة . وما زالت مناظر اللهو تتنوع وتزيد فظاعة كلما زاد حكام الدولة طغياناً وزادت الجمالير العاطلة وحشية . وانحدرت مقاييس القيم شيئاً بعد شيء في الدولة الرومانية حتى بلغت من الانحطاط ما لا يكاد يوجد له مثيل في أشد الشعوب الممجية وحشية . وكان لهذا

أثره في زيادة حرص حكام الدولة الرومانية على سلب خيرات الشعوب الخاضعة لهم وزيادة التعسف في حكمهم .

وقد صور المؤرخ الإنجليزي (جيون) ما وصلت إليه روما — شعباً وحكومة — من الانحطاط تصويراً مفصلاً في تاريخه الكبير الذي عنوانه « انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها » ونرى من المناسب أن نأتي هنا ببعض فقرات منه : قال :

« كان ظلم الأغنياء يزيح الأعباء الجاثرة عن أنفسهم وبلقيها على العامة من الشعب ، فكان الأغنياء يسلبونهم ويخدعونهم حتى لقد بلغ من شدة وطأة ديوان مصادرة الأموال في اغتصاب أموال الناس ولإيقاع ألوان العذاب عليهم أن كان رعايا الإمبرطور (قالتين) يؤثرون حكم البرابرة وهو أخف هولاً بالنسبة إليهم ، أو يلجأون إلى الغابات والجبال هرباً بأنفسهم . بل إنهم كانوا يضطرون إلى الهبوط إلى أدنى مراتب الإنسانية ويرضون أن يصيروا عبيداً مسخرين للسادة . وقد أدى هذا إلى أن عامة الشعب كرهت لقب المواطن الروماني وتبرأت منه » .

وقال المؤرخ في حديثه عن مناظر الملاحى الرومانية :

« إننا لو قصرنا النظر على صيد الحيوانات الوحشية مهما أنكرناه وكرهنا ما فيه من قسوة ، لاكتفيناً بأن نعترف بأنه ما من أمة قبل الرومان ولا بعدهم بذلت من التفتن والإنفاق ما أسرفت فيه الدولة الرومانية على صيد الوحوش لتسلية أهلها » .

وأخذ المؤرخ يصف في تفصيل كيف كان المسرح الفسيح يعد لعرض قتل الوحوش وكيف كانت تنقل إليه الأشجار الضخمة حتى يصير مثل غابة ثم تحشد فيه أنواع الوحش . ويقول بعد ذلك :
 « وتقع المأساة في اليوم التالي وهي تتمثل في قتل مائة أسد وعدد مماثل من أنثى الأسد ومائتي فهد وثلاثمائة دب » .

وقد بلغ عدد ما قتل من الوحوش في معارض اللهو الشعبية مئات الألوف كما بلغ الضحايا من البشر المظلومين الذين قتلوا فيها أضعاف ما قتل من الوحوش .

وقد صور المؤرخ الإنجليزي حياة القسطنطينية في حكم الإمبراطور جستنيان فبين مقدار ما آلت إليه حالة الدولة وسادتها وأعيانها من الفساد والانحلال الخلقي إلى جانب ما انحدرت إليه من الطغيان والظلم بأهل البلاد والشعوب الخاضعة للإمبراطورية ، ولسنا نستطيع أن نذكر هنا كل ما قاله المؤرخ الإنجليزي من وصف هذا الانحطاط الخلقي ، ولهذا نكتفي ببعض ما قاله محاولين أن نخفف من شدته بما لا يذهب بقصد المؤرخ . قال في صدد حديثه عن المرأة التي صارت فيما بعد زوجة الإمبراطور جستنيان وهي (ثيودورا) :

« نشأت ثيودورا ابنة لأسرة فقيرة ، واتمست رزقها من العمل على مساح العاصمة الكبرى . وكانت حسناء بارعة الجمال ولكنها تمثل عصرها في الانحدر الذي هوى إليه في الأخلاق . . . كانت في أول
 (٥)

حياتها تعرض محاسنها لطلاب المتعة وهم جمع مختلط من أهل العاصمة ومن الأجانب الذين كانوا يفدون عليها من كل مرتبة اجتماعية ومن كل مهنة . . .

فلما سيطرت على مباهاج العاصمة تنازلت فرضيت أن تصاحب أحد أعيان مدينة صور ، وكان قد عين حاكماً على أنطا بوليس (برقة) ولكن هذه العلاقة لم تدم طويلاً ، فذهبت إلى الإسكندرية حيث قضت حيناً في بؤس شديد ثم عادت إلى القسطنطينية بمجدة وكانت تعرض محاسنها على أهل كل مدينة تمر بها . . . وكانت تحاذر في مهنتها الغامضة أن تقع في المحذور الذى كانت تخشاه وهو أن تعقب نسلاً ، ولكنها مع ذلك صارت أمّاً مرة واحدة فجاءت بولد لأب عربى ، عرف فيما بعد أنها أمه .

ويمضى المؤرخ بعد ذلك فيتحدث عن ذلك الولد كيف ذهب إليها بعد أن صارت ملكة وشريكة للإمبراطور العظيم جستنيان فى حكم الدولة الرومانية العظيمة وكيف أنه دخل إلى قصرها بدعوة منها ثم لم يخرج منه ولم يعثر له على أثر فيما بعد . فهى على قول المؤرخ جديدة بأن تكون قاتلة ولدها ، كى تخفى سرّاً يعرض مكانتها للأقاويل فى العاصمة .

ويستمر المؤرخ الإنجليزى فى وصف ثيودورا زوجة الإمبراطور العظيم فيقول عنها :

« فأصبحت هذه المرأة (. . .) معبودة كملكة وهى التى دنست

مسارح قسطنطينية في وسط جموع لا حصر لها من النظارة . وسارع إلى تكريمها على القوم من حكام عظام ورجال دين أتقياء وقواد مظفرين وملوك أسرى .

ويتحدث المؤرخ نفسه عن امرأة أخرى وهي زوجة أكبر قواد جستنيان القائد المظفر بلزاريوس . واسم امرأته (أنطونيا) فيقول :
 « كانت أم أنطونيا إحدى راقصات المسرح ، ولكنها (أى أنطونيا) استطاعت أن تكون رفيقة للملكة (ثيودورا) ثم صارت بعد ذلك عدوتها ثم صارت خادمة لها ، فأقرب المقربات إليها . وكانت قبل زواجها من بلزاريوس متزوجة من رجل آخر ولكنها لم تخلص له .

ويمضي المؤرخ في وصف مسالكها الشائنة وهي زوجة للقائد الكبير فيصف كيف فاجأها الزوج يوماً وهو على رأس الجيش الروماني في شمال أفريقيا ، وكانت متلبسة بجريمة الخيانة مع أحد الشبان . ولكنها بهتت زوجها واستطاع الشاب شريكها في الخيانة أن يرتدى ملابسه ويخرج ، واستطاع القائد الكبير أن يكذب عينيه ويغضى عن جريمة امرأته .

هكذا يتحدث المؤرخ الكبير عن زوجة القائد المظفر الذي كان الرجل الثاني في الدولة ، فلا يسه القارئ لهذا الوصف إلا أن يعجب أن تكون هذه حالة الدولة المسيطرة التي تتحكم في بلاد الشرق ذات الحضارة العريقة ومقاييس القيم العليا .

لهذا تعددت المصادمات طوال حكم الرومان لهذه البلاد بين الشعوب وحكامها وكم أدت هذه المصادمات إلى كوارث وآلام وكم أدت إلى إراقة دماء وتعذيب شهداء .

وكان أباطرة الروم الأول يأمرّون الشعوب بعبادتهم كأهله على عادة الوثنية القديمة التي تؤله الملوك، فإذا رفضت الشعوب ذلك أوقع الأباطرة بها إيقاعاً شنيعاً . فلما ظهرت المسيحية لاذت بها هذه الشعوب ورفضت عبادة الأباطرة رفضاً صريحاً فقابل الأباطرة هذا الرفض بالاضطهاد واعتبروا المسيحيين ثواراً على الدولة وقوانينها وأوقعوا بهم أشد أنواع التنكيل عقاباً لهم على رفض العبودية .

ولكن المسيحية انتشرت بين الشعوب برغم هذه القسوة وكان انتشارها سريعاً بين أهل الشام ومصر وشمال أفريقيا فبدأت سلسلة من سطوات العنف والظلم الذي لم يسبق له مثيل في الشناعة ، فأزهقت أرواح ألوف من الشهداء وما زال التاريخ القبطي يذكرنا بهؤلاء الشهداء الذين راحوا ضحية اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس .

ولم يقتصر اضطهاد الروم لأبناء الشعوب المقهورة على عهود الأباطرة الوثنيين فقد استمر الاضطهاد بعد أن اعتنق الأباطرة الدين المسيحي ، فإن الشعوب المقهورة ميزت نفسها عن الدولة المسيطرة عليها باتباعها للمذهب ديني خاص بها . وحاول الأباطرة لإرغامها على اتباع المذهب الرسمي ولكنها أصرت على التمسك بمذهبها الخاص ، فلجأت

الدولة إلى العنف مرة أخرى وأوقعت بأثباع المذاهب المخالفة للمذهب الرسمي صنوفاً من التنكيل والتعذيب لا تقل في شاعتها عن تنكيل الأباطرة الوثنيين بالمسيحيين الأوائل من أبناء هذه الشعوب . فكانت البلاد الخاضعة للدولة الرومانية من الشام إلى المحيط الأطلنطي مسرحاً دائماً تتمثل فيه أبشع مناظر القسوة الوحشية .

إذن فقد كانت النفوس في كل أنحاء الإقليم الخاضع لدولتي الفرس والروم نائرة قلقاً ، شعوب كارهة لحكامها محتقرة لهم سيئة الظن بهم تشعر بأنهم ليسوا منها ولا يمتنون إليها بصلة في الحضارة ولا في العواطف ولا القيم . وكان الحكام من ناحية أخرى يعرفون ما تنطوي عليه قلوب هذه الشعوب من الكراهة لهم وهم يشعرون بالتعالى عليها ولا ينظرون إليها إلا كشعوب مسخرة لا غاية لحكمها إلا ابتزاز ما لديها من الثروة لينفقوا منها وتنفق منها الدولة وأعيانها على ما هم عاكفون عليه من اللهو والترف . فلم يكن لهذه الحال من مآل إلا إحدى نهايتين فلما أن ترغم الشعوب على التخلي عن شخصيتها وحريتها وتنسى كل ماضيها العريق وتقلع عن المقاومة وتستسلم للعبودية ولما أن تصبر على المكاره وتتحمّل ما يصب عليها من العذاب وهى محتفظة بروح المقاومة حتى تتاح لها فرصة تمكنها من القضاء على حكم الطغيان الذى يعذبها . وقد اختارت هذه الشعوب الخطة التى أملاها عليها تاريخها وعراقه حضارتها . فصبرت وتحملت أقسى صنوف الأذى ، وحاولت الثورة على الطغاة مرة بعد مرة برغم ما كانت الدولة

تحشده لها من القوة لإخماد ثوراتها ، وبقيت تترقب الحوادث وتنتظر الفرص التي تمكنها من الخلاص مما هي فيه من العذاب .

وفيما كانت الشعوب المسكينه ، تقاسى الآلام تحت وطأة حكم الروم والفرس طوال عدة قرون ، كانت الدولتان المستعمرتان لا تنقطعان عن إثارة الحروب فيما بينهما ، وكانت ويلات تلك الحروب تزيد هذه الشعوب البائسة بؤساً . لم تكد تنقطع الحرب بين الدولتين منذ القرن الثالث الميلادى إلى القرن السادس . وكانت كل منهما تتقلب بين النصر حيناً والهزيمة الطاحنة حيناً آخر ، وقد اتخذت هذه الحروب في القرن السادس صورة أبشع مما سبق لها لتمكن الحقد والغل من الجانبين فتحولت الحروب من مواقع قتال بين جيشين إلى حروب إبادة وتدمير شاملين . وكان العرب بحكم موقع بلادهم المتوسط بين الدولتين يحدون فرصاً كثيرة للاشتراك في هذه المعارك المتبادلة كما يحدون فيها فرصاً كثيرة للاطلاع على ما آلت إليه حال الشعوب الخاضعة للدولتين من البؤس والشقاء .

الدور الثاني من حياة الأمة العربية

١ - الرسالة الجديدة

بينما كانت الحروب نائرة بين دولتي الروم والفرس وكل منهما تريد القضاء على الأخرى لتنفرد بالسيطرة على الشعب ، كان العرب يتابعون قلب الحوادث في دهشة ويتساءلون فيما بينهم ماذا يكون مصير ذلك الصراع العنيف . كان صراع الدولتين الكبيرتين أشبه شيء بموجات المد والجزر فتصطدم جيوشهما الجحرة وتتدافع كالموج المضطرب ، فتتحسر جيوش الفرس تارة وتتبعها كتائب الروم حتى تصل إلى طيسفون عاصمة الفرس ثم ترتد جيوش الروم متقهقرة وترتد عليها كتائب الفرس فتجتاح الشام ومصر وآسيا الصغرى وتصل إلى قريب من البوسفور وتوشك أن تثب عبر الخليج إلى القسطنطينية عاصمة الروم .

ولم يقتصر العداء بين الفرس والروم على شن تلك الحروب المدمرة في أرضهما بل كانت كل منهما تعمل على إثارة المتاعب للأخرى في مبادي أخرى بعيدة عن بلادهما ، فالإمبراطور الروماني جستنيان يحرك الحبشة لتغزو بلاد اليمن ويساعدها على غزو قلب الجزيرة العربية كي يتخذ بلاد العرب منفذاً إلى ثغور الفرس من ناحية البصرة وكي يحشد فرسان العرب للقتال في أسفل بلاد أعدائه ليضربوا في ظهورهم في وقت

هجومه على بلادهم من الشمال ، والملك الفارسي الكبير أنوشروان عدو جستنيان الرهيب يبعث بكتيبة من جيشه لتحارب الأحباش وتحرض عرب اليمن على قتالهم وطردهم من جنوب الجزيرة العربية . ولما هزم الأحباش وطردوا من اليمن أبى أنوشروان طائفة من جنده في اليمن وأقام عليها والياً من قبله كى يكفل السيطرة على مداخل البحر الأحمر من الجنوب ويهدم سيطرة أساطيل الروم على مياه ذلك الطريق المائى الهام الذى يصل بين الشرق والغرب .

فالتقاتل الذى طال عهده بين الدولتين أصبح فى القرن السادس الميلادى صراعاً مستميتاً كان لا يمكن أن ينتهى إلا بهلاك إحدى الدولتين .

وقد حدثت فى أثناء هذه الحرب الضروس حادثة لم يفطن إليها أحد فى ضجة الحوادث لأنها كانت لا تزيد على ميلاد طفل وضعته سيدة من أسرة شريفة فى مكة وهى آمنة بنت وهب التى فجعت وهى حامل بموت زوجها الشاب النبيل الجميل عبيد الله بن شيخ قريش الحكيم عبد المطلب بن هاشم . وكان مولد هذا الطفل اليتيم فى عام القيل بعد أن ارتدت جيوش أبرهة عن مكة عائدة إلى صنعاء بالحبشة والوباء الغامض يفتك بها ويصرعها مثل عصافى مأكول .

وعلم شيخ قريش بميلاد حفيده فأسرع إليه ليضمه إلى صدره ويتخذ له ولداً فى مكان ابنه عبد الله الذى عجل الموت إليه فى عودته من

رحلته إلى الشام . واختار الشيخ لحفيده اسماً نبيلاً . لم يسبق إليه إلا قليل من العرب وهو (محمد) ، وكان أهل مكة عند ذلك فرحين بالنجاة العجيبة التي دبرتها لهم الأقدار بتحطيم جيش أبرهة .

واستمرت الحرب الماثلة بين الروم والفرس وكانت القوافل الآتية من الشمال تحمل إلى قلب الجزيرة العربية آخر أنبائها وهي تدل على انتصار الفرس حيناً وعلى انهزامهم حيناً آخر والحياة تمضي في سبيلها في الجزيرة العربية وشيخ قريش يضم حفيده إليه ولا يكاد يفارقه ، حتى إذا بلغ الطفل الخامسة أو السادسة من عمره امتحتته الأقدار بموت أمه النيلة وهي في عنفوان شبابها ، فصار الشيخ أشد لطفة على حفيده حتى كان يفزع كلما افتقده ولم يجده قريباً منه فلا يهدأ قلبه حتى يجده . وكانت عينه البصيرة ترعاه وترقب حركته وتتوسم فيه أنه سيكون رجلاً عظيماً . ولما بلغ الطفل اليتيم الثامنة من عمره مات جده الرحيم فبقي في كنف عمه شقيق أبيه (أبي طالب) بن عبد المطلب ، فكان مثل أبيه رفيقاً به لا يرتاح إذا غاب محمد عنه ، فإذا ذهب إلى رحلة من رحلاته إلى الشام للتجارة وتعلق به الطفل لم يتردد في أن يصحبه ويفيض عليه من بره وعطفه ما يجعله يشعر بدفء الأبوة الرحيمة .

وكبر الصبي فكان يرعى الغنم مع بعض لذاته من صبيان قريش ثم كبر فاشتغل بما يشتغل به الشباب من قومه في التجارة حتى بلغ سن الخامسة والعشرين وقد عرف بين الناس بالصدق والأمانة وكرم الخلق

والوفاء . وكان في مكة امرأة من ذوات الشرف والثروة وهي السيدة خديجة بنت خويلد، وكانت مثل الموسرات من نساء مكة تشتغل بالتجارة فتستأجر بعض الرجال ليتجروا بمالها على أن يكون لهم نصيب من الربح ، فعرضت على محمد أن يخرج إلى الشام للتجارة بمالها على أن تعطيه أفضل مما كانت تعطى غيره من التجار . وبعثت معه بغلام لها اسمه (ميسرة) ليساعده في عمله أو ليحمل إليها الأنباء عما يرى من خلاله ، فلما رجع محمد من رحلته وباعت السيدة ما حملة إليها من المتاجر ربحت ربحاً عظيماً وأخذ خادمها يحذثها بما شهد من نبل خلق محمد وسياحته . فعرضت السيدة نفسها على محمد كي يتخذها زوجة ، وكان زواجه منها خيراً ما وفق إليه في حياته إلى ذلك الحين إذ كانت خديجة مثلاً أعلى لزوجته الصالحة الوفية الحكيمة .

وكانت حياة محمد في بيته صورة من صور السعادة والسلام والطمأنينة ، فكان يخلو إلى نفسه بعيداً عن مكة ليتعبد ويتأمل ويفكر حتى إذا بلغ الخامسة والثلاثين كان قد عرف بين قومه بالزهد والورع فوق ما سبق لهم أن عرفوه عنه من الصدق والأمانة والنبل والوفاء . وأرادت قريش أن تعيد بناء الكعبة لتجدها بعد تلف أصابها ، وأعدت للبناء عدته وهدمت المبنى القديم حتى بلغت به الأساس وأخذت تقيم البناء الجديد حتى وصلت إلى مكان الحجر المقدس الذي كان يروى أنه بقية من أول بناء للكعبة وهو الحجر الأسود ، فاختلفت بطون القبيلة فيمن يكون له شرف

وضع ذلك الحجر في مكانه . واشتد الخلاف بين زعماء البطون حتى كاد يؤدي إلى القتال ، فاقترح أحد عقلائهم أن يحكموا أول من يقبل عليهم من داخل المدينة وكان محمد هو ذلك الرجل . فحكم بينهم بأن يوضع الحجر في ثوب ويشترك ممثلو البطون جميعاً في رفعه إلى مكانه ، فلما بلغوا به مكانه أزاحه محمد بيده فوضعه به وتيمن قومه بذلك لثقتهم فيه وتقديرهم لفضله .

ثم بلغ محمد سن الأربعين وبدأ الوحي ينزل عليه يأمره بأن يدعو الناس إلى تطهير نفوسهم من نقائصها وفتح عقولهم إلى أسرار الوجود ، وكانت السنوات الأربعون التي مرت من حياته لإرهاصاً لتلقى هذه الرسالة العليا ، لأنها صفت نفسه وصقلتها وهذبها . فقد ولد يتيماً من أبيه ثم لم يلبث أن صار يتيماً من أمه وهو طفل ، ثم مات جده الذي احتضنه منذ ميلاده وهو ما يزال صبيّاً ، فكانت هذه الحوادث تكشف له حقائق الحياة مجردة وتحمل قلبه الصغير على مواجهتها بمشاعر أرقها الحزن وأحاسيس غسلتها الدموع وتجعل عقله يتنبه إلى أنه وحيد لا يستند إلى ثروة مورثة ولا إلى غرور جاه ولا إلى كبرياء سلطان . فكان من أعمق مشاعره أن الله تعالى هو الذي أحاطه بعنايته منذ وجدته يتيماً فأواها ووجده ضالاً فهداه ووجده عائلاً فأغناه وعوضه عن كل ما نزل به من الآلام بعقل صاف يفكر في الحقائق المجردة حتى يحلوها ونفس طاهرة تجعل له في قلوب الناس منزلة تفوق منزلة أصحاب الجاه الموروث والسلطان القاهر .

ولو أراد محمد وهو في سن الأربعين وكمال العقل والرجولة أن يسعى إلى مجد الحياة أو إحراز الثروة لكان ذلك من أيسر الأمور عليه فقد عرف قومه فضله وأمانته وكان يستطيع أن يبلغ من السيادة فيهم ما يؤهله له شرف نسبه وشرف نفسه وكان يستطيع أن يبلغ من الغنى ما تؤهله له ثقة الناس فيه ، ولكنه حين تلقى الوحي الذي يأمره بدعوة الناس إلى تطهير نفوسهم وإزالة غشاوات الغرور والجهل والخرافة عن عقولهم لم يلتفت إلى شيء مما يغري بالراحة والعافية والمجد الدنيوي وامتأ قلبه إيماناً بأن قيامه بهذه الدعوة هو الغاية التي أعدها له الله تعالى لحياته . ولقد أشفق في أول الأمر من تحمل عبء هذه الدعوة واعتبرته رهبة شديدة منها إذ كان يدرك ما يتطلبه القيام بها من مواجهة الشدائد ومعاناة المتاعب فقد كان يعرف أنه سيبدأ بدعوة عشيرته وقومه الأقربين من قريش وهم قوم أشداء استطاعوا لشدة بأسهم أن يكونوا أقوى قبائل العرب وأبعدهم صيتاً وأكثرهم غنى ، وقد أقاموا حياتهم على قواعد ثابتة من تقاليد العرب في الجاهلية والإباحية الخلقية للأفراد ، فكان يعرف منذ نزل عليه الوحي بدعوة الناس إلى الحياة المطهرة أنه سيلقى عنتاً شديداً من زعماء قومه وأنهم سيتنكرون له ويحسدون فضله ويناصبونه العداوة حرصاً على نظام حياتهم الذي ألفوه وأقاموا عليه سيادتهم ومجدهم ، بل إنه كان يعلم أن هؤلاء الزعماء سيؤثرون عليه عامة القوم الذين يسيطرون عليهم فيحشدونهم لمقاومة دعوته . واختار محمد بغير تردد أن يصدع بالدعوة التي أمره الله تعالى

بإبلاغها ، وكانت زوجته الوفية الحكيمة خديجة أول من آمن بها وشجعه على المضى فيها .

ولم يلبث أهل مكة أن أخذوا يتحدثون عن محمد الذى عرفوه وعرفوا نسبه ومكانته فيهم واختلفت آراؤهم فيما سمعوه منه بعد أن أعلن أنه مكاف بإبلاغهم رسالة أمره الله بأن يؤديها إليهم . فكان بعضهم يستمع إلى الآيات التى يقرؤها عليهم فتصل إلى أعماق قلوبهم فتزها وتدخل إليها أشعة وضياء من الأمل والإيمان والسمو وكان البعض الآخر يسمع بها فيحس بما تنطوى عليه من الخطر عليه وعلى سيادته وأطماعه . كانت هذه الآيات تذكر الناس بأنهم مخلوقون من عنصر واحد فليس فيهم من خلق ليكون سيداً ومن خلق ليكون مسوداً وأن المفاضلة بينهم تكون بمقدار ما يتصف به كل منهم من مكارم الأخلاق لا بمقدار ما يكون عنده من المال أو ما له من الجاه والسلطان ، وكانت تدعوهم إلى عبادة إله واحد يعرف كل صغيرة وكبيرة ولا تخفى عليه خافية فى الضمائر وهو يحاسب الناس ويميز المحسن بإحسانه ويميز المسىء بإساءته سواء كان عظيماً بين قومه أو ضعيفاً فيهم وتدعوهم إلى الاستقلال فى الرأى والاعتداد بالنفس فلا يتبغى لأحد أن يقبل الدل ولا أن يستخلى للقوة بل يأمر كل مستضعف إلى الهجرة من موطن الهوان كى يستعيد كرامته فى أرض الله الواسعة . وأحس السادة فى مكة بالخطر الذى يهدد سلطانهم فأخذوا يتنكرون لمحمد ، والدعوة الجديدة التى جاء بها لإقامة الحياة على أساس

من المساواة والحرية والعدالة بين الناس . وقد بلغ منهم الضيق بالرسول مبلغاً لم يستطيعوا الصبر عليه حين دعاهم إلى التخلي عن أنانيتهم وكبريائهم دعوة صريحة ، وغضبوا أشد الغضب لما كانت آيات القرآن الكريم تعنفهم به على ضلالهم في الحياة وما كانت تنذرهم به من العقاب إذا استمروا على ما هم فيه من الظلم والجحود . وفي أثناء تحفز زعماء مكة لهذه الرسالة الجديدة جاءتهم الأنباء عن موقعة ذي قار التي انتصر فيها العرب على الفرس وعدتها القبائل جميعاً نصراً مؤزراً للعرب على الدولة الكبرى الباغية المسيطرة على الشعوب ، فأعلن الرسول عليه الصلاة والسلام اغتباطه بذلك النصر وعده انتصاراً لدعوة الوحدة العربية التي تدعو إليها رسالته ، ولكن زعماء قريش لم يظهروا اغتباطاً بها فكان موقفهم منها مخالفاً لموقفهم من انتصار اليمن على الحبشة . بل إنهم أظهروا ابتهاجاً عظيماً حين جاءتهم الأنباء بما أصابه الفرس من الانتصار في حربهم المستميتة ، لأن الفرس كانوا أقرب إليهم من الروم فهم يعبدون النار ولا ينكرون على الوثنيين عبادة آلهتهم فكانوا يعللون أنفسهم بأن الفرس إذا انتصروا على الروم وصاروا سادة العالم لم يدعوا فرصة لحمد أن ينشر رسالته التي تزلزل الأرض من تحت سلطانهم . وواصلت جيوش فارس تقدمها ففتحت الشام ومصر وزحفت على آسيا الصغرى حتى نزلت بشواطئ خليج البسفور توشك أن تعبر إلى القسطنطينية عاصمة دولة الروم فأعلن سادة قريش شاتمهم في الدولة التي تؤمن بالمسيح وهو النبي الكريم الذي أشادت به آيات القرآن

الكريم، وظنوا أن انتصار الفرس على هذه الدولة يحمل في طياته معنى خذلان أتباع المسيح وما أحراه أن يكون مقدمة لخذلان رسالة الإسلام التي دعا محمد إليها ، وانتظروا النهاية التي توشك أن تكون محتومة حين يدخل كسرى أبرويز على رأس جيوشه إلى عاصمة الروم الكبرى ليقم عليها والياً من قبله كما فعل جده أنوشروان حين هزم الحبشة في اليمن وأقام عليها والياً من قبله يحكمها باسمه .

ولكن الدعوة الإسلامية كانت قد استقرت في قلوب المؤمنين بها وهم ما يزالون قلة في مكة ، وأنزلت على الرسول آية الروم التي تبشر بعودة الريح إلى جيوش الرومان وأنهم « من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين » فآمنوا بما بشرت به الآية من أن الروم منتصرة بعد حين بغير شك . ولكن الذين لم يؤمنوا برسالة الإسلام سخروا من الآية الكريمة وتندروا بها في مجالسهم وبلغ من أحدهم العجب أو الغيظ أن ذهب إلى أبي بكر الصديق صاحب الرسول وأول من آمن بالرسالة السامية فراهنه على عشر نياق إن تغلبت الروم حقاً أخذها أبو بكر وإن تم النصر لفارس أخذها الرجل منه . فقبل أبو بكر ذلك التحدى بعد أن زاد قيمة الرهان من عشر نياق إلى مائة .

وكانت إحدى العجائب المعجزة أن جيوش فارس المنتصرة التي بلغت شواطئ البوسفور واستولت على الشام ومصر لم تلبث أن عادت مدحورة إلى بلادها وكرت جيوش الروم المهزومة فانتصرت عليها أعظم الانتصار

واستردت ما استولى عليه الفرس من البلاد وانطلقت في بلاد فارس حتى بلغت قريباً من العاصمة طيسفون .

فلم يزد هذا الانقلاب العجيب سادة قريش إلا حنقاً وسخطاً ولم يكن أحد منهم يحسب في أبعد ظنونه أن ذلك الدين الجديد الذي بعث به محمد سيكون في بضع سنين أكبر معجزة ظهرت في العالم على مر العصور والدهور ، وأن الدعوة التي بدأ النبي يدعوهم إليها ولا يزيد أتباعها على عشرات من الناس ستكون بعد قليل أعظم دعوة إنسانية بعثت إلى العالم ، وأنها ستتيح للعرب أعظم فرصة أتاحت لأمة أن تكون هي حاملة رسالة هذه الدعوة الإنسانية السامية إلى شعوب العالم جميعاً ، بعد أن توحدهم لأول مرة في تاريخهم الطويل وتضمهم جميعاً لأول مرة تحت علم واحد ولتحقيق غاية واحدة هي نشر الرسالة الجديدة بين الناس جميعاً .

وكان سادة قريش منذ ضاق صدرهم بدعوة الإسلام وما توجهه إليهم آيات القرآن من التعنيف قد عمدوا إلى إثارة أهل مكة على المؤمنين الضعفاء الذي سارعوا إلى تلبية الدعوة الإسلامية ذكائوا يضطهدونهم أنكر الاضطهاد ويعذبونهم أشد العذاب في وحشية تعيد سيرة وحشية الوثنيين الرومانيين في تعذيب المسيحيين الأوائل ، ولكن المؤمنين كانوا يصبرون على هذا الأذى الشديد ولا يخضعون لإرادة مضطهديهم في التكلون عن إيمانهم فاتجهوا إلى الرسول نفسه بالأذى وحرصوا عليه السفهاء من العامة ؛ فكانوا يحاولون الاعتداء عليه بكل ما اجترأوا عليه من وسائل السخرية

حيناً، والسبب أو لإيقاع الأذى حيناً آخر ، ولكن شخصية الرسول كانت من أكبر العوامل على كبح جماحهم عنه ، ومضى في إبلاغ رسالته والدعوة إلى الإسلام غير عابئ بما يحاول هؤلاء السفهاء أن يلحقوه به من الأذى وكان لا يعتمد في نشر دعوته إلا على قوة الحق الكامن في رسالته . والإسلام قائم على السلام الذى يملأ قلوب المؤمنين بالثقة والاطمئنان إلى الحق، فلا يعتمد في الدعوة على قوة سوى قوة الحق، ولا يحتكم إلى مبدأ سوى مبدأ العدالة . فاستمر الرسول يدعو قومه إلى أن يفتحوا أعينهم إلى ما حولهم لأن كل ما حولهم من آيات الله ، ويدعوهم إلى أن يعرفوا نسبتهم إلى الكون الذى يحيط بهم كى يشعروا بالعلاقة الوثيقة بينهم وبين هذا الوجود.. فالتأمل والبحث والمعرفة من الواجبات التى دعا إليها الإسلام لأنها هى الوسائل التى تؤدى إلى الاطمئنان والسلام ، والحقيقة عند الإسلام هى غاية التفكير وهى فى الوقت عينه وسيلة إلى غاية أسمى منها وهى الإيمان والاطمئنان والسلام .

وقد دعا الإسلام إلى الأخوة الإنسانية ووكد هذه الأخوة أعظم التوكيد . فالله خلق الإنسانية من أصل واحد وجعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا فيما بينهم ويتعاونوا، لا ليتعادوا ويتفانوا، ودعا إلى المساواة بين البشر فليس فيه تفرقة بين سيد. ومسود ولا بين لون من الخلق ولون آخر ، بل الخلق جميعاً سواسية كأسنان المشط وإنما يكون التفاضل بينهم بقدر ما يكون حظ كل منهم من التقوى ، وما التقوى فى حقيقتها إلا الحرص (٦)

على المكارم والبعد عن الرذائل والمظالم .

وشعار الإسلام هو الإيمان بالله الواحد الذى لا ينبغي لأحد أن يشرك معه غيره من آلهة زائفة ولا أن يخضع لإرادة غيره مهما بلغ من السيطرة وعظمة السلطان ، هو الله الذى خلق الأكوان وهو الذى أنشأ الوجود ، وهو الذى يدل على وجوده كل كائن من الكائنات والذى تتمثل قدرته فى كل ظاهرة من الظواهر فى الأرض أو فى السموات . قد دعا الإسلام الناس إلى أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم لتأمل ما فى الوجود ليروا فيه البرهان على وجود الله ، كما دعاهم إلى التفكير فيما بينهم وبين أنفسهم كى يعرفوا حقيقة ما جاءت به رسالته من الآيات . فالله يعلم كل ما ينطوى فى الضمائر ، وعلمه يحيط بكل ما فى الوجود مهما بلغ من الدقة أو الخفاء . وكل فرد موكول إلى ضميره فلا رقيب عليه سوى هذا العلم الإلهى المحيط بالوجود كله ، وكل فرد مسئول عن تصرفه فلا سيطرة لأحد عليه سوى إرادته التى توجهه إلى الخير إن كان يريد لنفسه الخير أو توجهه إلى الشر إن كان يريد لنفسه الشر .

فكان ما تنطوى عليه رسالة الإسلام من العدل والاعتدال وتحكيم العقول فى شئون الحياة والتحرر من قيود الجحود والنظم القائمة التى تحمى أطماع الطامعين وسيطرة الأنانيين — كان ذلك من أكبر العوامل على تزايد عدد المؤمنين يوماً بعد يوم على رغم محاولات الاضطهاد والأذى المتكرر للرسول والمؤمنين الذين لبوا دعوته . وفزع سادة قريش من سرعة

انتشار الإسلام بين الناس حتى لقد كانت الزوجة تؤمن به وهي زوجة لرجل غير مؤمن وكان الابن يلبي الدعوة وأبواه منكران لها ، فحاولوا أن يستميلوا الرسول بعد أن عجزوا عن مقاومة دعوته بالاضطهاد والأذى فتوسلوا إليه بعمه الطيب أبي طالب وهو الذي كان منه في منزلة الوالد الرحيم فبعث الشيخ إلى الرسول فلما دخل عليه قال له : « يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم وقد جاءوا يسألونك أن تكف عن ذكر آلهتهم وأن تعبد إلهك كما تشاء » فأجاب الرسول يخاطب السادة بما معناه : لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غير أن تؤمنوا بالرسالة التي كلفت بالدعوة إليها . فغضب سادة قريش أشد الغضب وضيقوا على الذين آمنوا حتى اضطروا كثير منهم إلى الهجرة إلى الحبشة بإذن من الرسول وبقي هولواصل دعوته متعرضاً للأذى المتزايد من القساة العتاة الذين زاد الغضب قسوتهم عنفاً فكان ذلك داعياً إلى زيادة انتشار الإسلام ، وكان من بين من آمن عمه حمزة بن عبد المطلب وهو أحد فرسان الشبان المعروفين بالشجاعة والسطوة ، ومنهم عمر بن الخطاب وهو كذلك أحد شجعان قريش وكان معروفاً بالإقدام والصرافة . فزاد فرع زعماء مكة وعزموا على انتهاج خطة شاملة للقضاء على مقاومة محمد نفسه فعمدوا معاهدة فيما بينهم على مقاطعته ومقاطعة أسرة بني هاشم جميعاً ما دام أبو طالب شيخهم لم يستطع تحويل الرسول عن دعوته ، فحصرُوا بني هاشم في شعب من شعاب مكة وتعاهدت بطون قريش على الامتناع

عن معاملتهم فلا يبيعون لم ولا يشترون منهم ولا يصاھرونهم أو يحاملونهم بشيء ، واستمرت هذه المقاطعة سنتين أو ثلاثاً والرسول وأسرته صابرون على ما وقع عليهم من الشدة من أثر هذه المقاطعة . وذهب وفد من سادة قريش إلى الحبشة ليحرضوا النجاشي (ملك الحبشة) على طرد من بلأ إلى بلاده من المسلمين ، ولكن هذه الوسائل جميعاً لم تؤد إلى القصد الذي قصد إليه زعماء مكة فإن الإسلام كان ما يزال ينتشر في سرعة متزايدة كلما زاد اضطهاد السادة لأتباعه ، بل إن قسوة الاضطهاد حملت بعض عقلاء قريش على السعي في نقض المعاهدة التي عقدها الزعماء على مقاطعة الرسول وأسرته ونجحوا في ذلك نجاحاً جعل الزعماء يفكرون في القضاء على الرسول نفسه .

وقد نزلت بالرسول محنة جديدة وذلك بموت السيدة خديجة زوجته ، وموت عمه أبي طالب عقب نقض معاهدة المقاطعة ، ففقد عند ذلك زوجته الوفية التي كانت تؤنسه بإيمانها الراسخ وقلبها العاطف وعقلها الحكيم وفقد عمه الشيخ الذي كان يضيئ عليه جابه ويجمع كلمة بني هاشم على حمايته ، وزاد سادة قريش في عنفهم عليه فلم يبق له إلا أن يوجه الدعوة إلى قبائل العرب في خارج مكة . ولكنه لقي من سادة هذه القبائل ما لقيه من سادة قريش حتى أتاح له الله الاتفاق مع طائفة من أهل المدينة أن يهاجر إلى مدينتهم ليقم بين ظهرانهم وينشر دعوة الإسلام وهو في حمايتهم .

ولما علم زعماء قريش بذلك عزموا على أن يقضوا على محمد قبل أن يتمكن من الهجرة إلى يثرب (المدينة) ، فقد رأوا من قبل أنهم كلما زادوا في التضييق عليه وكلما اشتدوا في اضطهاد المؤمنين بدعوته زاد الإسلام انتشاراً وانتقل من دائرة أضيق إلى دائرة أخرى أفسح وأرحب . وأخذوا يدبرون فيما بينهم المكائد لاغتياله وأعدوا لذلك خطة إجماعية تشترك فيها بطون قريش جميعاً حتى لا يستطيع بنو هاشم أن يقوموا في وجهها للدفاع عنه . وأمر محمد أصحابه بالهجرة إلى المدينة أولاً وبقى هو حتى اطمأن إلى أن أكثرهم قد سبقه ثم خرج خفية من مكة مع صاحبه الأوفى أبي بكر الصديق ، وتم له اللحاق بأصحابه في المدينة آخر الأمر فكانت هذه هي الهجرة المباركة التي اعتر بها الإسلام وتحرر من قيود قريش .

ولكن زعماء مكة لم يياسوا من متابعة مقاومتهم للدين الجديد الذي أعجزهم في مكة فأخذوا يعدون العدة للإيقاع بمحمد وأصحابه في يثرب وصادروا أموال المسلمين في مكة وبعثوا كتائبهم لتحريض القبائل الضاربة حول المدينة على الإغارة عليها ، فاضطر الرسول أن يخرج من المدينة في جمع من أصحابه ليعمل على سل ما بثه سادة قريش في قلوب القبائل من عداوته ونجح في ذلك مع بني ضمرة وهي بطن من بطون كنانة حول المدينة ، وخرج جيش من مكة قاصداً إلى المدينة فبعث الرسول جمعاً آخر من المهاجرين للقائهم فعاد جيش قريش إلى مكة بغير قتال وفر منهم عدد من المسلمين الذين خرجوا مع الجيش كي يتمكنوا من الوصول إلى المدينة

واللحاق بأصحابهم المسلمين . وبعث الرسول بعد ذلك بقليل جمعاً آخر من أصحابه بقيادة عمه حمزة بن عبد المطلب إلى أرض قبيلة جهينة حيث كان أبو جهل أحد القساة من زعماء قريش يعمل على إثارة القبائل ضد المسلمين . وهكذا مضى نحو ستين على مقام الرسول في المدينة وهو يشعر بما تدبره قريش له من خطط الاعتداء ويعمل على إحباط خططهم . ولكن بعض من أثارتهم قريش من القبائل المجاورة للمدينة استطاع أن يسطو على سرح المدينة وأن يسلبه ، فلم يكن للرسول إلا أن يواجه ذلك الاعتداء المتكرر بالدفاع عن رسالته وعن أصحابه وعن المدينة التي تعرضت للهجوم عند هجرته إليها بعد أن كانت من قبل آمنة تخشى القبائل بأسها .

وبدأ الاصطدام العنيف بين الجانبين آخر الأمر في موقعة بدر الكبرى وكان عدد المسلمين لا يزيد إلا قليلاً على ثلثائة على حين كان عدد محاربي قريش نحو ألف ، وانتهت الموقعة بفوز ماحق انتصر به الضعفاء على الأقوياء ، وأصحاب المال القليل والعدة الضئيلة على أصحاب الثروة الضخمة والعدة الكاملة ، لأن الفقراء كانوا أحرص على انتصار رسالتهم منهم على حفظ حياتهم .

وهكذا انتهت محاولات سادة قريش للقضاء على الدعوة الإسلامية في مهدها الجديد باستخدام القوة الحربية إلى انتصار باهر للمسلمين ، وانطلقت دعوتهم مرة أخرى إلى مجال أوسع وأرحب في أنحاء الجزيرة

العربية كلها . وعاد سادة قريش من المعركة يشعرون بمראה الهزيمة وغصبة الخيبة ، وثارت في نفوسهم مشاعر الغيظ والأنفة فوقفوا كل أموالهم ونشاطهم على الاستعداد للانتقام في معركة بعد أخرى — أحد والحندق وحنين وعشرات غيرها من المصادمات الصغرى—ولكن حشد القبائل العربية لعداوة المسلمين وكل ما أدى إليه ذلك من المواقع انتهى إلى سريان الدعوة الإسلامية في القبائل القريبة والبعيدة وأخذ من آمن بها يدعو إليها في حماسة لا تقل عن حماسة أول المسلمين إيماناً ، وبعد ثمان سنوات من الهجرة تمكن المسلمون من فتح مكة وهي معقل أعداء رسالتهم واضطر السادة الطغاة إلى التخلي عن عداوتهم وبدأوا يفكرون في موقفهم من الدعوة الجديدة حتى تبينوا آخر الأمر أنهم كانوا يقاومون دعوة فيها خيرهم وخير العرب وخير الإنسانية جميعاً .

ولم تمض إلا عشر سنوات من الهجرة حتى كانت قبائل العرب قد اجتمعت كلها على الإسلام وانتقلت الدعوة مرة أخرى إلى مجال آخر أوسع وأرحب — إلى العالم القسيح وراء الجزيرة العربية .

وكان الرسول في أثناء هذه السنوات وما واجهه فيها من الشدائد والبعداوات ، لا ينفك يباهر بأنه رسول إلى الناس جميعاً وأنه إنما جاء مبشراً ليدعوهم إلى الخير وإلى السلام والسعادة وأنه لم ييحي مسيطراً ليحكم ولا ليتحكم فيهم . وبعث يرسل من أصحابه إلى الملوك والأمراء على حدود الجزيرة العربية أو خارجها ليدعوهم إلى الدخول في الإسلام وليحملهم

مسئولية الآثام التي يتورطون فيها والمظالم التي يقعونها برعاياهم . وبلغت أصداء انتصار الإسلام وانتشاره في ربوع البلاد العربية إلى الشعوب الخاضعة لدولتي الفرس والروم كما بلغتهم أصداء الرسالة الإسلامية والمبادئ الإنسانية التي تدعو إليها ، فعرفت هذه الشعوب أنها رسالة تصدق رسالتى عيسى وموسى والنبيين من قبلهما ، وأنها تقول إن الناس سواء في حقوقهم وأن الشعوب جميعا سواء في حقوقها ، لا فرق بين سيد ومسود ولا بين حاكم ومحكوم وأن واجب الحاكم هو العدل في الرعية وأن العبيد أنفسهم يستطيعون أن يصبحوا أحراراً وأن الضعفاء يستمدون القوة من الحق في نظام شامل يكفل للجميع العدالة .

وأخذ الناس يتساءلون عما ينبغي لحكامهم نحوه ودب القلق في قلوبهم ، ولاح لهم بريق من الأمل في هذه النهضة الجديدة التي بدأت دعوتها تصل إليهم . ولما جاءت رسائل (محمد) عليه الصلاة والسلام إلى الملوك والأمراء تدعوهم إلى اتباع الرسالة الجديدة استقبلها بعضهم بقبول حسن مثل ملك الحبشة والمقوقس زعيم القبط بمصر . ورفضها البعض الآخر ، لأنهم أحسوا بما تنطوي عليه هذه الرسالة من خطر على طغيانهم وتوجسوا منها خوفاً على سلطانهم ، فأخلوا يحدون أنفسهم وما لديهم من قوة ويلتمسون ما يستطيعون التماسه من الوسائل لمواجهة ذلك الخطر الذي يهددهم .

٢- بعد انطلاق الأمة العربية

لم يكن عجباً أن يشعر حكام دولتي فارس والروم بالهزة الشديدة التي أحدثتها أصدااء الوحدة العربية في الشعوب الخاضعة لسيطرتهم ، فقد كانت جزيرة العرب منذ القدم لا تهدد الدولتين إلا بإغارات صغيرة تقوم بها القبائل على الحلود وكان من اليسير لهما أن تتحاشيا الاصطدام بها بعد أن تبين لهما أن الاصطدام بالعرب يحملهم على جمع كلمتهم والوقوف معاً في وجه المهاجم الأجنبي . وكانت سياسة الفرس والروم نحو قبائل العرب تقوم دائماً على تشجيع المنافسات بينها حتى ينصرف بعضها إلى حرب بعض ، ومن أجل هذا اتخذت كل منهما حلفاء من القبائل واعترفت بزعمائها ملوكاً أصدقاء لها ليكونوا عوناً لها في استمالة القبائل العربية الأخرى إلى صفها . فكان العرب يتصادمون ويتحاربون وكلا الدولتين آمن على حدوده منهم جميعاً . فلما توحدت القبائل تحت علم واحد في دولة تجمع شملهم كان ذلك حدثاً عجبياً يحدث في جزيرة العرب لأول مرة في التاريخ المعروف . وكان اجتماع شمل العرب على رسالة دينية ذات مثل إنسانية عليا يجعل خطر وحدتهم أشد . فوحدة العرب في ذاتها تمثل قوة جديدة في ميدان السياسة الدولية في الشرق الأوسط ، ولكن رسالتهم

لجديدة كانت تمثل انقلاباً خطيراً في مبادئ السياسة والحكم وتهدد النظام الاستغلالى الذى تقوم عليه الدولتان الكبريان من أساسه .
 ولم يكن عجباً كذلك أن يشعر الحكام بآثار هذه الدعوة الجديدة في صفوف الشعوب الخاضعة لها وأن يتوجسوا خوفاً من انتشارها بينها .
 وبدأ الروم يحشدون جيوشهم على حدود الجزيرة العربية ، كما بدأوا يحرضون الملوك العرب الخاضعين لهم على مبادأة النهضة العربية بهجومهم قبل أن يستفحل أمرها . وهناك أدلة كثيرة على ذلك نذكر منها مثلاً ورد ذكره في صحيح البخارى وذلك أن سيدنا عمر بن الخطاب وأصحابه كانوا يتحدثون فيما بينهم في السنوات الأخيرة من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، عن غزوة منتظرة تقوم بها غسان ضدهم ، وكانوا يسمعون أن غسان « تنعل الخيل لغزو المسلمين » . وقد بلغ توجس المسلمين من أن يفاجأوا بحرب الروم أن سيدنا عمر كان يوماً في بيته في مدة حياة الرسول فجاءه صاحب من الأنصار في ساعة العشاء فضرب بابَه ضرباً شديداً ، ففزع عمر وحسب (خطأ) أن الزائر ما جاءه في تلك الساعة إلا لينذره بغارة غسان على المسلمين .

ولما زاد توجس العرب من ناحية الروم رأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يستطلع الحقيقة ، فبعث لهذا الغرض سرية إلى الحدود الشمالية بقيادة زيد بن حارثة فما كادت تصل إلى (مؤتة) حتى وجدت حشود الروم متربصة هناك ، وجدت جيشاً جراراً من الروم يحيط بها من

كل جانب . ودارت بين السرية الصغيرة وهذه الجموع الكبيرة معركة باسلة قتل فيها القائد زيد بن حارثة وتبعه جعفر بن أبي طالب وهو القائد الذى عين ليخلفه إذا استشهد ثم قتل القائد الثالث وهو عبد الله ابن رواحة ، وكاد جيش الروم يفتى السرية كلها لولا شجاعة جنودها وحكمة خالد بن الوليد الذى تمكن بقيادته البارة أن يخرج ببقايا السرية من المأزق الحرج . فكانت هذه البعثة الاستطلاعية مؤكدة لتربص الروم بالعرب خشية أن تمتد دعوتهم إلى الشعوب المغلوبة التى تتحضر للثورة عليهم إذا حانت لها فرصة .

وأراد الرسول بعد ذلك أن يتحقق من الأمر بنفسه ليعرف مدى الخطورة فى تلك الحشود الرومانية فذهب على رأس سرية متجهاً إلى الشمال حتى وصل إلى تبوك ، متكلفاً عناء عظيماً فى هذه الرحلة مع أنه كان قد نيف على الستين وكان الحر شديداً لا يكاد يطيقه الأشداء من الرجال ، كما كانت العدة ضئيلة والمثونة قليلة . وتحقق الرسول عليه الصلاة والسلام من خطورة الموقف حتى إنه بدأ منذ عودته من تبوك فى إعداد جيش ليرابط عند الحدود الشمالية كى يكون طليعة ينذر العرب إذا ما تحرك الروم لغزوهم ، واختار لقيادة ذلك الجيش شاباً صغيراً وهو أسامة بن القائد الذى استشهد فىوقعة مؤتة وهو زيد بن حارثة .

غير أن الرسول لحق بالرفيق الأعلى قبل أن يبعث بذلك الجيش إلى الشمال ، فبدأ الخليفة أبو بكر الصديق عهده بتسيير هذا الجيش نحو

الحدود الشمالية تنفيذاً لإرادة الرسول .

فمن الواضح إذن أن الأمة العربية قد انتفضت في ظرف عشرين عاماً ونهضت نهضة عجيبة لم يتوقعها أحد من جيرانها وأتمت وحدتها على أساس رسالة عالمية طلعت على الدول والشعوب بمبادئ جديدة كانت بمثابة ثورة دينية خلقية اجتماعية لتدعو الناس إلى طريق أفضل في الحياة ولتدعو الدول إلى أسلوب أعدل في الحكم ، وأن هذه الانتفاضة العظيمة كانت أملاً للشعوب المقهورة وخطراً شديداً شعرت به دول الاستغلال المسيطرة عليها وأخذت تستعد للقضاء عليه . وقد كانت دولة الفرس عند ذلك مشغولة بالثورات الداخلية وبالاضطرابات التي مزقتها فلم تستطع أن تحشد جيوشها لغزو العرب كما فعلت دولة الروم ولكنها أعدت خطة أخرى لتمزيق وحدتهم كما سيأتى ذكره .

ولا شك في أن دولتي الفرس والروم كانتا تنتظران وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام على أمل أن تنداعى وحدة العرب إذا خلا مكانه وحرم العرب من تأثير شخصيته العظيمة التي كانت تمثل الرسالة الكبرى التي وحدتهم ، بل إنهما لم ينتظرا حدوث وفاته بل سارعنا في السنتين الأخيرتين من حياته في تدبير الخطط لتمزيق الوحدة العربية ، وكان اعتمادهما في هذه الخطط على مساعدة طائفة من زعماء القبائل الذين كانوا يشبهون سادة الفرس والروم في كبريائهم وكراهيتهم لمبادئ المساواة والعدالة والتحرير التي جاء بها الإسلام .

وقد بدأ تنفيذ هذه الخطط في أواخر حياة الرسول في وقت واحد وبأساليب واحدة أو متشابهة فهي جميعاً تبدأ بظهور جماعة من المغمورين في القبائل يدعون أنهم أنبياء ، وكان من وراء كل منهم طائفة من الزعماء العرب المنافقين يساعدونهم في الخفاء . ففي اليمن التي كانت خاضعة لحكم الفرس ظهر الأسود العنسي وزعم أنه نبي ، وعلى الحدود الشرقية المتاخمة للفرس ظهر مسبلمة وزعم كذلك أنه نبي ، وعلى الحدود الشمالية المتاخمة للروم ظهر طليحة الأسدي وادعى النبوة . وما يسترعى النظر في هذه الحركات جميعاً أنها على الحدود المتاخمة للدول الروم والفرس في الشمال والشمال الشرقي من جزيرة العرب أو في اليمن التي كان الفرس أنفسهم يحكمونها منذ جلاء الحبشة عنها . وما يدل أكبر الدلالة على اشتراك حكومتى الفرس والروم في تدبير هذه الثورات أن جيشاً كبيراً من العرب حشد في الوقت عينه في العراق الخاضع للفرس وتولت قيادته امرأة ادعت النبوة هي الأخرى واسمها سجاح . وسارت سجاح بجيشها الكبير إلى أرض العرب وأخلت تأثير قبائل الحدود الشرقية وما زالت حتى اتصلت بمسيلمة فجمعت صفوفها بصفوفه كي تهبط كلها على المدينة . فلما لحق الرسول بالرفيق الأعلى كانت الفتنة تضطرم في جبهات ثلاث والأمداد والمساعدات تبعث إليها من الفرس والروم .

واتفقت سجاح مع مسيلمة في معاهدة لم تعرف تفاصيل شروطها

ثم عادت إلى موطنها في العراق تاركة بعض جموعها تحت قيادة حليفها . فكان من أول ما اهتم به الخليفة أبو بكر أن يقضى على هذه المكيدة لشعوره وشعور العرب المسلمين بأنها تستند إلى مدد أجنبي خطير . ولم يمض إلا أشهر قلائل بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى أطفشت هذه الثورة كما يطفأ لهيب الحشيم ، وقضى العرب على هذه المحاولة الفارسية الرومانية الأولى .

أما ثورة الأسود العنسي في اليمن فلإنها بدأت وانتهت في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد اجتمع له عدد من الفرسان يبلغ عددهم سبعمائة ولسنا ندرى على وجه التحقيق من أين جاءوا ، فكان يحارب بهم ويفاجئ القبائل المتفرقة التي أسلمت ، وقتل شهر بن باذان عامل الرسول على اليمن وتزوج بامرأته وتحكم في مدينة صنعاء تحكماً يدل على أنه لم يكن رجلاً سويّاً بل تدل أعماله على شذوذ عقلي خطير وقد فتك به ثلاثة من المسلمين . وما كاد أهل صنعاء يعلمون بمقتله حتى ثاروا بأتباعه فهربوا من صنعاء بعد أن اختطفوا عدداً من أبنائها ، ولكن أهل المدينة تعلقوا بعدد منهم وجبسهم عندهم حتى رد أبنائهم إليهم فأطلقوا سراحهم . وقد بقيت هذه الجماعة من الفرسان تنتقل من مكان إلى مكان وتنب فجأة على الآمنين حتى أسدل عليها ستار من النسيان بعد أن تمكن الخليفة الأول من القضاء على بقيتهم الغامضة ، وأما طليحة الأسدي فإنه لم يثبت أمام جيش المسلمين بل سارع بالفرار إلى سورية لاجئاً إلى دولة الروم .

فهذه الحوادث جميعاً تشير بوضوح إلى أن الخطر الأكبر الذى كان يهدد الدولة العربية فى أول نشأتها كان آتياً من ناحية دولتى الفرس والروم ولم تكن الثورات التى أهاجها أدعياء النبوة إلا من تدبيرهما بمساعدة طائفة من الزعماء الذين أرادوا التحلل من القيود التى وضعها الإسلام على سيطرتهم وتحكمهم فى الضعفاء والتخلص من الحدود الخلقية والاجتماعية التى تحول بينهم وبين الانطلاق مع سجايا الجاهلية الموهجة .

ومهما يكن من الأمر فإن هذه الفتن لم يكن لها فى الحقيقة ما كان يلوح على ظاهرها من الخطر ، فالذى نستطيع أن نستخلصه من الحوادث أنها فاجأت المسلمين فى أول الأمر فأفزعتهم خوفاً على رسالتهم وعلى وحدتهم الجديدة ، حتى إن الخليفة أبا بكر بعث إلى أسامة بن زيد يأمره بالعودة إلى المدينة بعد أن سار بجيشه نحو حدود الشام كى يستعين بجيشه على إخماد تلك الفتن . ولكن الخليفة وجماهير المسلمين الذين حافظوا على عهودهم كانوا هم الكثرة الكبرى ولم يلبثوا أن عادوا إلى ثباتهم واجهوا الأزمة التى اعترضتهم واستطاعوا فى أقل من ستة أشهر أن يقضوا عليها القضاء الأخير . وكان للخليفة أبى بكر الصديق أكبر الفضل فى هذا الانتصار بما أظهره من الثبات والإيمان والثقة فى نفسه وقومه وقد امتاز فوق ذلك بشجاعة لا يتصف بها إلا العاقرة من قادة الأمم .

وكان ساعده الأيمن فى جهاده خالد بن الوليد الذى برهنت موقعة مؤتة من قبل على براعته الفذة فى قيادة الجيوش ، كما برهنت مواقع السنوات

التالية على أنه كان من أفذاذ قواد الجيوش في العالم إذ ذاك كما كان من أعظمهم حكمة وكياسة في معاملة جنوده وأعدائه على السواء .

وقد أظهرت هذه الفتن للعرب أن وحلتهم ورسالتهم لن تكون آمنة من مكاييد الفرس والروم إلا إذا أثبتوا لهما أنهم أهل لمقاومتهم والوقوف في وجه جيوشهم إذا دعا الأمر إلى ذلك ، ولم يكن لهم بد من تتبع الذين دبروا هذه المكاييد وأثاروا تلك الفتن عليهم ، فهم حين يوجهون الجيوش إلى العراق والشام لا يزيدون على أن يكونوا بسبيل الاحتياط لأنفسهم حتى لا يعيد أعداؤهم الكرة عليهم مرة بعد مرة .

٣- تكوين أمة عربية جديدة

ما كاد خالد يفرغ من القضاء على ثورة شرق الجزيرة حتى دعاه أبو بكر لمواصلة الزحف على محرضى تلك الثورة في العراق ، فاتجه خالد بجنوده إلى العراق ، ثم أعاد أبو بكر تكوين الجيش الذي كان تحت إمرة أسامة وبعث به إلى حدود سورية . وهكذا بدأ زحف العرب على الجبهتين معا .

والظاهر أن زعماء القبائل العربية المقيمة في العراق تحت سلطان الفرس أدركوا من فشل محاولتهم في إثارة القبائل في شرق الجزيرة العربية أن قوة النهضة العربية الجديدة أكبر من أن تحطمها محاولاتهم ومحاوله سادتهم الفرس ، فسارعوا إلى مصالحة خالد بن الوليد والخضوع له وقبلوا أن يدفعوا الجزية وأن يكونوا تبعاً لسيادة العرب . وبعث خالد من فوره بعد ذلك النصر إلى المدائن عاصمة فارس خطاباً شديد اللهجة يتوعد حكامها ويقول في خطابه :

« فالحمد لله الذي فض خدمتكم . . وسلب ملككم ووهن كيدكم » .
فهو يذكرهم « بخدمتهم » الذين أطاعوهم في إثارة الفتنة ويذكرهم بكيدهم الذي كانوا يكيّدونه للنهضة الجديدة العربية .

وما كاد خطاب خالد يصل إلى حكام الفرس حتى بادروا بجيوشهم إلى

لقاته وتقدم أكبر أبطالهم إلى الحرب عند ما وجئوا أن الأمر قد صار جدياً مرأً، وأن محاولاتهم في الكيد لهزيمة العرب قد عرضتهم لمواجهة داخل بلادهم . وكان من أشد الفرس عداوة للعرب قائد اسمه (هرمز) وقد عرف بتحريره لزعماء القبائل العربية على الثورة كما عرف بالتعصب الشديد ضد هزيمة العرب الجديدة . وكان هرمز عنيفاً في كبريائه مثل عنفه في تعصبه حتى لقد قيل إنه حشد الجنود بالقهر والقسر للقتال بل قيل إنه قرنهم بالسلاسل في صفوف متراسة حتى لا يفروا من المعركة . ولكنه هزم هزيمة منكورة عند أول لقاء مع العرب في تلك المعركة التي يسميها العرب ذات السلاسل . ولم يمض إلا أشهر قليلة على بدء الحرب حتى كان الجانب الغربي من العراق قد صار في أيدي الجيش العربي . وليس يعني هنا أن نتنبع ميادين الحرب ووقائعها بل يعنينا شيء واحد وهو ما نستخلصه من سهولة الفتح العربي وسرعته وما نستخلصه من أن العرب كانوا يحاربون جنود الدولة وحدهم ، على حين كان أهل البلاد معتزلين جانباً لا يملكون يداً لمساعدة هؤلاء الجنود . بل هناك من الأدلة ما يظهر لنا أن أهل البلاد كانوا يؤثرون أن تنجلي المعارك سريعاً عن هزيمة جيوش الفرس حتى يتخلصوا من مظالم الدولة الطاغية .

روى الطبري في تاريخه أن خالد بن الوليد اجتمع بقيادة حصون الحيرة يفاضهم في التسليم فقال لهم : « ويحكم أما أنتم عرب ؟ فما تنقمون من

العرب ؟ أو أنتم عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ » فلم يسع هؤلاء القادة إلا أن قالوا : « بل نحن عرب عاربة وأخرى متعربة وليس لنا لسان إلا بالعربية » ثم سارعوا إلى التسليم وقبلوا أن يدفعوا الجزية لقاء احتفاظهم بدينهم المسيحى .

وقد حدث مثل ذلك فى مواقف كثيرة أخرى حتى سلمت للعرب كل البلاد بين الفرات ودجلة فى أقل من عام واحد .

أما الجيش الذى وجهه أبو بكر إلى حدود الروم فقد وجد جيوش الروم متحفزة للهجوم . وتبين للعرب أن خطر الهجوم الرومى يتطلب حشد قوى أكبر لمواجهة فبادر أبو بكر بإعداد ثلاث فرق اختار لها ثلاثة من أكبر شجعان العرب وأمهرهم فى القيادة وهم : عمرو بن العاص وشرجيل ابن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وأمر عليهم جميعاً أبا عبيدة بن الجراح وبعث فى الوقت عينه إلى خالد بن الوليد يأمره بالسير إليهم لمساعدتهم إذا فرغ من جبهة العراق . وبلغ مجموع كل هذه القوى التى حشدتها أبو بكر لقتال الروم ستة وأربعين ألفاً على حين كانت جيوش الروم المحشودة على الحدود تزيد على مائتين وأربعين ألفاً .

وكانت الحرب فى ميدان الروم بالشام تجرى على نسق الحرب فى ميدان فارس ، فلم يحدث التصادم فيها إلا بين العرب وبين جنود الدولة على حين كان أهل البلاد ينتظرون أن تنجلي المعارك سريعاً وهم يتمنون أن يزاح عنهم نير الحكم الرومانى الفاسد . فلم يمض عام على بدء القتال

حتى كان العرب سادة الميدان وتم لهم الانتصار الحاسم في وقعة اليرموك الكبرى فكانت خاتمة مجيدة لحكم الخليفة العربي الأول أبي بكر الصديق، ومدته لا تزيد إلا قليلا على سنتين .

وقد استمرت الحرب بعد وفاة أبي بكر في ميداني فارس والروم لإتمام فتح البلاد وتجلي في أثناءها مبلغ انصراف قلوب رعايا الدولتين عن حكامهم الطغاة ، بل إن هؤلاء الرعايا زادوا ثقة في العرب لما لمسوه من اعتدالهم ونزاهة مسالكهم معهم في أثناء الحرب فلم يؤخذ على جنودهم ما يؤخذ على الجنود المنتصرة من الزهو أو الإفساد في الأرض أو الاعتداء على الأنفس الآمنة أو الأعراض المصونة ، وكانت أوامر الخليفتين أبي بكر وعمر صريحة وصارمة تحض على التمسك بقواعد الإسلام في مروءة الحرب ، ولنضرب لذلك مثلاً من الأوامر التي كان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يبعث بها إلى قادته وجنوده ، إذ قال مخاطبهم : « إذا لقيتم العدو وهزتموه فاطرحوا الشك وآثروا البقية عليه فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرّفه بإشارة أو بلسان كان لا يلزى الأعجمي ما كلمه به — وكان عندهم أماناً — فأجروا ذلك له مجرى الأمان ، وإياكم والضحك ، والوفاء الوفاء ، فإن الخطأ بالوفاء بقية ، وإن الخطأ بالغدر هلكة ، وفيها ومنكم وقوة عدوكم وذهاب ربحكم وإقبال ربحهم ، واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شيئاً على المسلمين سبباً لتوهينهم » .

وفي الوقت الذي كانت جنود العرب تسير على هذا النهج الإنساني

كانت جيوش فارس والروم تنتهج وهي منهزمة منهجاً آخر جديراً بأن يكون مسلك الجيوش الأجنبية إذا كانت متوحشة وتعمل على التثكيل برعايا دولة معادية ، مع أنه كان ينبغي لها أن تكون حامية لهؤلاء الرعايا . قال ابن جرير الطبرى يصف مسلك جنود القائد الفارسي الكبير رستم : « وخرج رستم من ” كوئي “ حتى يتزل في (بُرس) فمَـصَّب أصحابه الناس أموالهم ووقعوا على النساء وشرَبوا الخمر فضج الأهليون إلى رستم وشكوا إليه ما يلقون في أموالهم وأبنائهم فقام رستم في جنوده قائلاً : يا أهل فارس والله ما أسلمنا للعرب إلا أعمالنا في هؤلاء الرعايا ، وهم ” أى العرب “ لهم ولنا حرب ، فهم أحسن منكم سيرة » .

ويروى الطبرى قصصاً كثيرة أخرى عن أحداث كانت تجري بين العرب وبين خصومهم وفيها يظهر بوضوح أن رعايا الدولتين كانوا يصرحون في غير تردد أنهم يرحبون بالمبادئ التي يسير عليها العرب ويحقدون أشد الحقد على الطغاة الذين يتعسفون في حكمهم . وكانت الطبقات الدنيا من شعب فارس تجاهر بترحيبها بمبادئ العرب وتظهر حنقها من سوء معاملة حكامها . بل إن الجنود الذين جندوا من أهل البلاد لتعويض الجيوش عما فقدته من صفوفها كانوا يستسلمون ولا يقدمون على القتال .

حدثت أمثلة كثيرة مثل هذه في ميدان الروم بالشام فلما ذهب خالد بن الوليد إلى شمال الشام لإتمام الفتح أرسل إليه أهل حمص ثم

أهل قنسرين يطلبون الصلح بغير قتال وأضاف أهل قنسرين قائلين
لأنهم عرب : « وإنما حُشروا ولم يكن من رأيهم حربه » فقبل خالد منهم
ولم يشترط في شروط الصلح معهم .

ومما يسترعى النظر في حوادث الشام أن الخليفة عمر عندما ذهب
ليتسلم بيت المقدس بنفسه جاءه رجل من أهل المدينة يناديه قائلاً
« يا فاروق أنت صاحب إيلياء » ولفظ « فاروق » في لغة السريان معناه
« المنقذ » فنداء الخليفة به يدل على أن أهل بيت المقدس كانوا يعدون
فتح العرب إنقاذاً لهم .

وتدل صيغة الكتاب الذى كتبه الخليفة لأهل بيت المقدس على
أسمى مراتب العدل والاعتدال من أمة منتصرة لم يحولها الانتصار عن
جادة العدالة والرحمة والتزاهة . وهناك أمثلة كثيرة تدل على ما بلغه العرب
من الشهامة والمروءة في معاملتهم للمهزومين أنفسهم ، ومن ذلك أنهم أسروا
قائداً من أكبر قواد الفرس وأعنفهم وأشدهم عداوة للعرب وأكثرهم غدرًا
في أساليب حربه واسمه الهرمزان . فلما مثل بين يدى الخليفة عمر في
المدينة كان الجزاء المنتظر له أن يقتل لقاء من قتلهم من العرب بالغدر في
حروبه ، ولكنه احتال على الخليفة فسأله أن يريث في عقابه حتى يشرب
لشدة عطشه ، فأجابه الخليفة إلى مطلبه ، وألح الهرمزان على الخليفة
ألا يقتله حتى يشرب ، مدعياً أن الخوف يحول بينه وبين تذوق الماء ،
فوعده عمر بذلك . فرمى الهرمزان الكأس التى قدم له الماء فيها ، وقال

لعمر : « إنك وعدتني ألا تقتلني حتى أشرب هذا الماء وها أنا لم أشربه » وغضب الخليفة لخديعته ولكنه رأى ألا مفر له من الوفاء بوعدده وإن كان خدع فيه . فهو قد أخذ نفسه بما أمر به قواده وجنوده « إن الخطأ بالوفاء بقيّة » ولذا ذكر أن هذا الهرمزان المخادع لم ينس عداوته وغدره وكان من بين الذين قامت حولهم الشبهة القوية بالمشاركة في اغتيال الخليفة عمر . وقد توالى هجوم الروم والفرس على العرب بعد انتصارهم الأول وتحرير عرب العراق والشام من سيطرتهم إذ كانوا ما يزالون يؤمنون أن يستعيدوا حكمهم الجائر على الشعوب المسكينة التي بدأت تنفس الصعداء ، فلم يجد الخليفة عمر بدءاً من الماضي في الحرب حتى النهاية وزحفت الجيوش المنتصرة شرقاً إلى ما بقي من دولة فارس وغرباً نحو مصر وشمال أفريقيا واستطاع العرب برغم قلة عددهم وبدأوة عدتهم أن ينتصروا على جيوش منظمة تفوق أعدادهم أضعافاً وتفوق عدتهم كثيراً . وكان السر الأكبر في ذلك النصر المتوالى أن العرب كانوا يحاربون جيوش الفرس والروم وهي مستندة إلى فراغ .

لم يكن وراء تلك الجيوش شعوب تدعم قوتها وتشد أزرها بل كانت الشعوب تخلصها وتعين بكل وسيلة ممكنة على هزيمتها ، فإيكاد العرب يهزمون الجيوش حتى يتم لهم الفتح وتتصل علاقاتهم بأهل البلاد اتصالاً سهلاً . ويسجل الطبرى حادثة وقعت أثناء حروب الفتح في مصر وهي حادثة لها دلالتها الكبرى على شعور أهل مصر نحو العرب ومسلك العرب

نحوهم ونحن نثبتها هنا لطرافتها : أخذ العرب في بعض مواقع القتال في مصر بعض السبايا من أهل البلاد ، فبعث صاحب الإسكندرية إلى قائد العرب عمرو بن العاص يطلب إليه أن يردهم . فأرسل القائد إلى الخليفة عمر يستطلع رأيه في ذلك فبعث إليه عمر أن يخير هؤلاء السبايا بين الإسلام والبقاء مع العرب وبين العودة إلى قومهم ، فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين له ما لم وعليه ما عليهم ، ومن اختار العودة إلى قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على مثله . فجمع العرب السبايا ليخبروهم كما أشار عمر ، ووقف العرب والمصريون ينتظرون نتيجة التخيير ، فكانوا إذا اختار أحد السبايا الإسلام والبقاء مع العرب كبر العرب تكبيرة عالية ثم حازوا الرجل إليهم ، وإذا اختار الرجل العودة إلى قومه صاح المصريون صبيحة فرح وحازوا صاحبهم إليهم . ويذكر المؤرخ العربي اسم شاب من المصريين الذين كانوا في ذلك الوقت بين السبايا وهو (أبو مريم) ، فلما خير في الفريق الذي ينضم إليه اختار الفريق العربي فحازه العرب إليهم ، وكان أبوه وأمه وإخوته واقفين في صف المصريين فوثبوا إليه وجعلوا يماذبون العرب إياه حتى شققوا ثيابه . وقد صار هذا الرجل فيما بعد عريفاً في جيش العرب . فهذا الموقف لا يدل على عداوة مرة بين أهل مصر وبين العرب ، كما أن المثل الذي ضربه المؤرخ في حالة (أبي مريم) يدل على أن وجود ذلك الشاب مع العرب مدة أسره لم يجعله يكرههم أو يحقد عليهم بل جعله يختارهم ويرضى بالانضمام إليهم .

وهذا الأسلوب الذى وصفه الطبرى فى تغيير هؤلاء السبايا يدل فى مجمله على أن اختيار أهل مصر للإسلام لم يكن فيه شئ من الإكراه أو الإرهاب ، فلأن تكبير العرب اغتباطاً كلما انضم أحد المصريين إلى صفوفهم كان يدل على ترحيبهم بانضمامهم إلى صفوفهم كما أن هتاف المصريين عندما يختار أحد السبايا الرجوع إليهم يدل على تعادل الكفتين وحرية الاختيار . ولم يكن فى الموقف كله ما يدل على حقد من جانب أو على كبرياء وعنف من الجانب الآخر . وقد وصف الطبرى كذلك ما حدث من أهل أفريقيا عندما هزم العرب جيوش الروم هناك فقال إنهم سارعوا إلى الدخول فى الإسلام وحسن إسلامهم » . وقد احتفظ أهل الشام ومصر وأهل شمال أفريقيا بمودتهم للعرب ولولاهم لحكم الدولة العربية حتى فى أحلك الأوقات التى ثارت فيها الحروب بين الأحزاب العربية المتنافسة على الحكم بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، واستمر هذا الولاء إلى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك فى أواخر الدولة الأموية .

وهناك من المؤرخين المغرضين من يحاول التشكيك فى ولاء الشعوب التى ضمتها الدولة العربية إليها بحجة أن بعضها هب ثائراً ضد حكامه فى أواخر القرن السابع الهجرى وفى القرن الثامن . والحقيقة التى ينبغى للمؤرخ أن يعتد بها هى أن هذه الشعوب أصبحت تنظر إلى نفسها بعد مضى نحو قرن من تاريخ الفتح العربى على أنها

شعوب عربية ولها الحق في أن تسودها العدالة التي عرفتها منذ ابتداء الفتح العربي . غير أن عمال الدولة بدأوا يتعسفون في حكمهم في أواخر عهد الدولة الأموية أو بقول أدق عند ما زال جيل الخلفاء الأمويين العظام وبدأت أمور الدولة تختل على أيدي الأمويين المتأخرين الذين انصرفوا إلى الترف واللهو واختاروا عمالهم من بين المقربين إليهم فلم يحسنوا الاختيار في بعض الأحوال . وكان تعسف هؤلاء العمال في حكم البلاد التي عهد إليهم بحكمها تعسفاً شاملاً أغضب الناس جميعاً سواء كانوا من العرب الأصليين أو من أبناء الشعوب التي امتزجت بالعرب . فلم يكن عجباً أن يتذمر سكان البلاد من حكم هؤلاء العمال ويهبوا لمقاومة عسفهم .

فتذمر الشعوب لم يكن مبعثه كراهة العرب بل كان مبعثه حرص هذه الشعوب على تحقيق العدالة ورفض العسف الذي ظهر من العمال الذين أساء الخلفاء المتأخرون اختيارهم . ومن الأدلة الواضحة على ذلك ما حدث في شمال أفريقيا في مدة الخليفة هشام بن عبد الملك ، كما جاء في تاريخ ابن جرير الطبري . يقول هذا المؤرخ الكبير إن أهل شمال أفريقيا بعثوا وفدأً منهم إلى الخليفة ليقدموا إليه شكواهم من بعض المظالم التي أوقعها بهم عاملهم . وكان أهل شمال أفريقيا قد أسلموا منذ أول الفتح وحسن إسلامهم فكانت شكواهم لا تزيد على تظلم قوم من عسف وقع عليهم فلجأوا إلى الحاكم الأعلى الذي يقرون له بالولاء كي يزيل ذلك العسف عنهم . غير أن وفدهم وجد باب الخليفة مغلقاً دونهم ، فانظروا

طويلاً ليأذن لهم الخليفة بالمقابلة ، ولكن الحاشية المحيطة بهشام حالت بينه وبين الوفد فأنصرفوا إلى بلادهم غاضبين . وعلم هشام بأنصرفهم بعد حين وأظهر ما يدل على الأسف لعودتهم إلى بلادهم خائبين . وكانت نتيجة غضب الوفد أن هبت في شمال أفريقيا ثورة احتجاج شديدة نهبت الخليفة إلى ما ينبغي له من العمل على رفع الظلم عن رعيته الغاضبة ولم يلبث الثائرون أن عادوا إلى ولائهم بعد رفع الظلم عنهم ، ولم يحدث في وقت من الأوقات أن تنكر أهل شمال أفريقيا لقوميتهم ولا لولائهم للإسلام الذي اختاروه ديناً منذ البداية . بل لأنهم كانوا يحرصون على إرجاع أنسابهم إلى أصول عربية قديمة حرصاً منهم على تدعيم قوميتهم العربية واعتزازهم بها .

وقد حدثت حركات تدمر أخرى في الوقت عينه في بلاد أخرى ، ففي مصر مثلاً هبت ثورات موضعية في مدة حكم هشام بن عبد الملك أيضاً وكان الباعث عليها سوء حكم بعض العمال المحليين إذ أن تلك الثورات كانت تحدث في أقاليم محدودة من بلاد الريف . وقد استمرت هذه الهبات تحدث بين حين وآخر حتى بلغت حداً خطيراً عند ما هبت ثورة عامة في أيام الخليفة العباسي المأمون . وبما يسترعى النظر في هذه الثورة أن أكثر شعب مصر اشترك فيها سواء كانوا من العرب الأصليين أو من المصريين الذين أسلموا أو من المصريين الذين احتفظوا بدينهم المسيحي . واضطر الخليفة أن يذهب بنفسه إلى مصر لينظر في أمر الثورة بنفسه ،

ويتعرف أسبابها : ولما تبينت له الحقائق وعرف أن أهل مصر لم يثوروا إلا أنفة من الظلم الذى أوقعه بهم عمال الدولة ، وجه أعنف اللوم إلى هؤلاء العمال وبين لهم أنهم المسئولون عن تدمير أهل البلاد وأوعدهم بالعقاب إذا لم يعدلوا فى حكمهم .

فالذى يظهر جلياً من خلال الحوادث التى أعقبت الفتح العربى أن الشعوب التى دخلت فى الدولة العربية الجديدة أصبحت لا تنظر إلى نفسها على أنها شعوب متميزة تريد المحافظة على شخصيتها الأولى وتعمل على الانعزال بنفسها عن حكامها ، بل صارت تنظر إلى نفسها كشعوب عربية تكون فى مجموعها أمة عربية واحدة تمتد من العراق إلى المحيط الأطلنطى . والمؤرخ الإنجليزى جيبون يقول فى ذلك عبارة ذات دلالة إذ يقول :

« إن الشعوب التى كانت من قبل خاضعة لدولتى الروم والفرس أخذت تمزج دماءها بدماء العرب الوافدين عليها حتى أصبح ما بين نهر الفرات والمحيط الأطلنطى أمة واحدة منتشرة على سباسب الرمال فى آسيا وأفريقيا . » وما له دلالة كبرى على هذا الامتزاج الصريح أن الجيوش العربية التى عبرت المضيق من شمال أفريقيا لفتح الأندلس كانت مزيجاً من العرب ومن البربر أهل شمال أفريقيا ، وكان قائدها طارق بن زياد بربرياً ، وكانت الجيوش التى قادها موسى بن نصير لتعزيز جيش طارق بن زياد مكونة كذلك من مزيج من عرب الجزيرة العربية وأهل الشام وأهل مصر والبربر أهل شمال أفريقيا . والطبرى حين يذكر ذلك

يقول عن أهل مصر الذين اشتركوا في فتح الأندلس إنهم (قبط مصر) .
 إذن فقد شهد القرن السابع الميلادي (القرن الأول الهجري) ميلاد
 أمة جديدة على أنقاض دولتي الفرس والروم وهو ميلاد لم يسبق له مثيل
 للشعوب التي تقطن هذا الإقليم الفسيح الذي يعرف اليوم بالشرق
 الأوسط . لقد سبق على حكم هذا الإقليم دولتان كبيرتان لم تستطع إحداهما
 أن تحول الشعوب التي تحكمها إلى أمة مندمجة فيها ، فبقى كل
 شعب منها منعزلاً في طي نفسه ويجاهد أن يبقى متميزاً عن جنس الدولة
 التي تحكمه ، وتتحكم فيه وتذله وتنظر إليه نظرة السيد إلى جنس مهوور .
 ولكن العرب استطاعوا في أقل من مائة عام أن يكتسبوا ثقة أهل البلاد
 وأن يجتمعوا معهم على أساس المساواة والعدالة ليكونوا معاً أمة واحدة ؛ يشهد
 المؤرخ جيبون بأنها أصبحت تمتد من العراق إلى المحيط الأطلسي ، وهي
 أمة ذات لغة واحدة وثقافة واحدة ومشاعر واحدة ، حتى لقد كان أبناء
 الشعوب المتعربة يؤمنون على ما يؤمن عليه العرب في حربهم وسلمهم ،
 فقد شاركوا في فتح البلاد الأخرى كلما دعا الحال إلى زحف جديد
 وشاركوا فوق هذا في إقامة الحضارة الجليلة التي بدأت تمد جذورها
 وترسل أغصانها الغضة وتوشك أن تزدهر وتؤتي ثمارها .

وقد حاول المؤرخ جيبون كما حاول غيره من المؤرخين أن يعللوا هذه
 الظاهرة الفذة ، فذهبوا في ذلك لمذاهب شتى فيقول جيبون مثلاً في صدد
 حديثه عن اندماج العرب بالبربر : « إن البربر يشبهون العرب البدو في

جو بلادهم ومساكنهم ونوع طعامهم ، فأدى ذلك إلى أن البربر أسلموا سريعاً وحسن إسلامهم وتعلموا العربية واعتزوا بها وتسموا بأسماء عربية بل انتسبوا إلى أصول عربية . غير أن هؤلاء المؤرخين لم يستطيعوا أن يتغلغلوا إلى الأسرار العميقة في طبيعة العرب وطبائع الشعوب التي اندمجت معهم في الأمة العربية الجديدة ، ونرى أن نجمل هنا ذكر الأسباب التي نعتقد أنها هي التي أدت إلى سرعة اندماج العرب بالشعوب التي فتحوا بلادها . وأول هذه الأسباب أن العرب لم يذهبوا إلى تلك البلاد كسادة مستعمرين ينظرون إلى شعوبها نظرة استعلاء ، بل ذهبوا إلى هناك يحملون رسالة إنسانية عالية يدعون فيها إلى المساواة والعدل والحرية .

فلما تم لهم النصر وحلوا بين ظهرائي أهل البلاد كان اندماجهم بهم أمراً طبيعياً لم تحل دونة الحوائل من ناحية استعداد العرب النفس ومن ناحية أسلوبهم في التعامل والتعايش مع أهل البلاد .

والسبب الثاني في سرعة اندماج العرب بالشعوب الأخرى هو ما امتاز به العرب أبناء الصحراء من الشيم الأصيلة في طباعهم كالوفاء بالعهد وحفظ حق الجوار والأتفة من الظلم والتعفف عن الحرمات وتقديس الحرية والكرامة ، فإن الشعوب التي فتح العرب بلادها كانت ترى الفرق واضحاً بين هؤلاء الفاتحين وبين السادة المتكبرين السابقين الذين كانت مسالكهم معهم تناقض هذه الصفات . كانت هذه الشعوب متعطشة إلى أن يكون دستور حياتها قائماً على هذه المبادئ فاطمأنت إلى الفاتحين

الوافدين إليها منذ البداية ، وانعكس مقتها لسادتها السابقين إلى ترحيب واضح بالعرب ولم تجد على نفسها غضاضة أن تضم نفسها إلى صفوفهم وأن تعتق مبادئهم.

والسبب الثالث هو ما كان يمتاز به العرب من المرونة الطبيعية ؛ فمن خصائص العربي في باديته أن يواجه ظروف الحياة كما يجدها إذ لا مفر له من مواجهتها والملازمة بين نفسه وبينها . فهو يتحمل الجوع إذا لم يجد طعاماً حتى يجد الطعام فيقبل عليه ويصيب منه ما يشاء ، وهو يكتفى بأخشن الملابس وأقلها إذا لم يجد سواها ولكنه يعرف كيف يتأنق في ملبسه إذا سمحت له الظروف بالتأنق . كان العربي يظهر في بلاط كسرى وقيصر وهو قادم من باديته القاحلة فكأنه وهو بين السادة المترفين في ذلك البلاط أحد أبناء الأعيان ممن تعودوا آداب المحافل الاجتماعية . وهو يستطيع أن يتحكم في سلوكه تحكماً دقيقاً ولا يتهاون في الوقت عينه في أمر يمس كرامته أو يشعره بالزراية . وقد يعود بعد ذلك إلى خيمته أو مراعى إبله أو إلى ساحة القتال مع قبيلته فإذا هو البدوي المنطلق الخالص البداوة . فالطبائع المنطوية في أعماقه والمثل العليا التي يقدها ، والقيم التي يحرص على الأخذ بها لا تتغير ولا تتبدل ، ولكنه يقدر أن يواجه مواقف الحياة بمرونة عظيمة .

وقد كانت هاتان الحصلتان المختلفتان المجتمعتان معاً في عرب البادية القدامى من أكبر العوامل على سرعة الانسجام بين العرب وبين الشعوب

التي امتزجوا بها - طباع إنسانية فيها كل عناصر القوة ولا مفر من تغلبها على كل ما يواجهها من الطباع وقد اقترنت بها مرونة عجيبة تسمح للعرب بأن يواجهوا ظروف الحياة المختلفة ويلأثموا بين أنفسهم وبينها وهم دائماً محتفظون بخصائصهم الأصلية المنطوية في أعماق طبيعتهم البدوية .

وبما يجدر بنا ذكره هنا أن العربي الذي يعيش في البادية لا يجد مفرًا من التمسك بقانون عرفي عادل في معاملته مع غيره ، لأنه لا يجد في صحرائه حكومة مسيطرة تستطيع أن تنظم علاقاته بغيره من الناس . ومن أجل هذا نشأت بين عرب البادية منذ القدم مجموعة من قواعد السلوك الاجتماعي لها في نفوسهم جميعاً ما يشبه القداسة ، وهذه القواعد يمكن أن نجعلها تحت معنى واحد وهو معنى المروءة . فعندما حل العرب بين الشعوب الأخرى في البلاد التي فتحوها . كانت قواعد المروءة من أكبر العوامل على تنظيم علاقاتهم الاجتماعية بمن حولهم من الأهليين ، وكان لها الفضل في تقوية المودة فيما بينهم بغير نظر إلى وجود حكومة مسيطرة تنظم لهم هذه العلاقات .

وكان الدليل الواضح على سرعة اندماج العرب بالشعوب الأخرى هو سرعة انتشار لغتهم بين هذه الشعوب . فن الثابت أن اللغة العربية انتشرت انتشاراً واسعاً في البلاد التي انضمت إلى الدولة العربية منذ القرن السابع الميلادي ، حتى إن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك لم يجد

صعوبة في جعلها لغة الدولة الرسمية ، فصارت سجلات الدولة ومكاتبها جميعاً تكتب بالعربية في جميع الأقطار وكان القائمون على ذلك بغير شك طائفة من أبناء الشعوب المتعربة ، إذ أن العرب لم يكونوا في ذلك الحين قد حددوا القيام بمثل هذه الأعمال .

وكان انتشار اللغة العربية بين الشعوب الداخلة في الدولة العربية من أكبر العوامل على الإسراع بتعريب هذه الشعوب نفسياً وتيسير التمازج بينها وبين العرب الأصليين . وبما يسترعى النظر أن هذه الشعوب المتعربة حافظت على اللغة التي تلقوها مثل محافظة العرب الأصليين عليها ، وأكبر دليل على ذلك أن هذه اللغة بقيت سليمة حتى وصلت إلى وقتنا هذا وهي في صورتها الأولى . فالشعوب التي تلقوها جعلتها ميراثاً لها واعتزت بها وتشاركت جميعاً في خيلتها والتأليف بها وفيها وأبقوها على مر الزمن صافية كما ورثتها ، بعد أن أضافت إليها الكثير من آثار عبقريتها . لقد مر الآن على بدء انتشار اللغة العربية في البلاد التي فتحها العرب أكثر من ثلاثة عشر قرناً ومع ذلك بقيت محتفظة بصورتها وكيانها وأسلوبها . وإذا كانت هناك لهجات محلية عربية نشأت في الأقطار المختلفة فلمها جميعاً ترجع عن قرب إلى أصلها العربي مع شيء من التحريف في الكلمات أو العبارات أو طرق النطق .

فالشعوب المتعربة كانت صاحبة فضل كبير على اللغة العربية إذ أغنتها وأخلصت لها وجعلتها لأنفسها ميراثاً شرعياً تحافظ

عليه وتنمى ما تنطوى عليه من ثروة ثقافية كما أن العرب كان لهم كذلك فضل كبير على هذه الشعوب إذا أتاحوا لها حياة جديدة تختلف كل الاختلاف عن حياتها خلال القرون العشرة السابقة حين كانت تعتبر رعايا خاضعة لدول أجنبية مسيطرة متعالية فوقها .

وكان اندماج العرب بالشعوب المتعربة فوق هذا كله تطوراً عفوياً لا تشوبه مواقف أو مصادمات عنيفة بين العناصر المكونة للأمة الجديدة ، ويظهر لنا الفرق واضحاً بين تكوين الأمة العربية وبين تكوين غيرها من الأمم الحديثة إذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الحوادث الدامية التي تخللت تطور إحدى الأمم الحديثة الأوربية ولتكن الأمة الإنجليزية .

فالأمة الإنجليزية الحديثة تكونت من مجموعة كبيرة من العناصر . كان أولها البريطانيون الأوائل الذين أخضعوا لحكم الرومان منذ القرن الأول للميلاد . ولما ضعفت الدولة الرومانية حلت في بريطانيا جموع كبيرة من القبائل الجرمانية في القرن الخامس للميلاد وكان أهمها قبائل (الإنجليز والسكسون) الذين كونوا الطبقة الحاكمة وأذلوا البريطانيين الأوائل وطردوهم إلى أطراف الجزيرة الشمالية والغربية . واستمر الحكم في أيدي الإنجليز والسكسون نحو ستة قرون أخرى حتى أغار (النورمان) على بريطانيا في القرن الحادى عشر للميلاد . وكان الفتح (النورمانى) بدء المرحلة الثالثة في التطور الطويل للأمة الإنجليزية الحديثة . وكان عهد الحكم (النورمانى) عهد ذل وبؤس وفقر سواء للمعمر

(الأنجلوسكسوني) أو للعنصر الأول البريطاني .

وقد سجل التاريخ وصفاً مفصلاً لقسوة ذلك الحكم نقطف منه بعض عبارات عامة لتبين إلى أى حد بلغ تعسف بالأهلين جميعاً .
يقول المؤرخ الإنجليزي (هـ.كـ.م) : « وعلاوة على مظاهر القسوة التي وقعت على الإنجليز بعد كل ثورة كانوا يقومون بها ضد النورمان أضرب مثلين من وقائع التدمير الشامل التي ذاع ذكرها فقد دمرت ولاية يوركشير تدميراً كاملاً كما دمر إقليم الغابة الجديدة " نيوفورست " ... فبقيت هاتان الولايتان تسع سنوات وليس فيهما قرية مأهولة ، بل لم يبق فيهما كائن حي » .

وجاء في يوميات وليام أحد مؤرخي الإنجليز القدامى :
« لم تبقى قرية مأهولة بين يورك ودرهام إذ أن الحرائق والتفتيل والتدمير حولت ذلك الإقليم إلى خراب وحولته إلى برية ما تزال مواتاً إلى اليوم (أى بعد ستين سنة من الفتح النورمانى) .

وقد استولى ولیم الفاتح النورمانى على أملاك أكثر أعيان الإنجليز السكسون واستولى النورمان على كل وظائف الحكم ووظائف الكنيسة واضطر كثير من الأعيان الإنجليز إلى الهجرة حتى وصلوا إلى القسطنطينية ودخلوا في خدمة حرس الإمبراطور الرومانى . وكان نير النورمان على عامة الأهلين أشد وطأة ، فقد حرم عليهم إيقاد الأنوار في بيوتهم في الليل وجعلت عقوبة الإعدام جزاء على المخالفة حتى لا تتاح لهم فرصة للاجتماع

فى الليل والتأمر على الثورة ضد مظالم الفاتحين .

وقد اعتبر الفاتحون أهل البلاد جميعاً أشباه عبيد وأقاموا قلاعاً عدة فى طول البلاد وعرضها لإرهابهم ولإخضاعهم ، وكان يحرم عليهم أن يمارسوا الصيد من البرارى والغابات كى يحفظوا الحيوان البرى كله لإمتاع ساداتهم الفرسان النورمان بالصيد . وكان من قواعد الحكم عند النورمان أنه إذا وجد قتيل فى ناحية من النواحي ولم يتحقق الحاكم أنه من أهل البلاد الأصليين (الإنجليز السكسون) فرضت غرامة كبيرة على أهل تلك الناحية لاحتمال أن يكون ذلك القتيل (نورمانياً) .

وقد استمر هذا العنف عدة قرون تخللها مصادمات دموية كثيرة حتى أمكن بعد نحو خمسة قرون أخرى أن تبدأ عناصر الأمة الإنجليزية فى الاندماج لتكوين أمة جديدة تسعى إلى إظهار إرادتها واسترجاع حقوقها الإنسانية .

فيمكننا أن نقول ونحن مطمئنون كل الاطمئنان إن تطور الأمة العربية واندماج العناصر المكونة لها كان مثالا فذاً فى تاريخ الأمم الحديثة التى سجل التاريخ تفاصيل حوادثها .

وقد كان من آثار الامتزاج العفوى السمع الذى امتازت به الأمة العربية أن الشعوب المتعربة قبلت اللغة العربية وثقافتها ثقيلآ سريعآ بغير تحفظ ، فتكلموا بالعربية وكتبوا بها وتشربوا بثقافتها حتى إننا لا نجد فرقاً بين ما كتبه العرب الخالص وما كتبه أبناء الشعوب المتعربة

من ناحية المبادئ الخلقية والأصول الاجتماعية ومقاييس القيم والمثل العليا . فقصاص المدح التي كان ينشدها الشعراء من أبناء الشعوب المتعربة تتغنى بالفضائل التي يتغنى بها الشعراء الذين ترجع أنسابهم إلى أرومات عربية أصيلة . كلهم يشيد بالفضائل التي أشاد بها شعراء العرب القدامى في حياتهم بالبادية ، وكلهم ينكر الرذائل التي أنكرها العرب في حياتهم السالفة ، كما أن مبادئ الرسالة العربية الإسلامية كانت المبادئ المعترف بها عند الجميع .

هكذا كان هذا الاندماج وما ترتب عليه من قبول الشعوب جميعاً للغة العربية وثقافتها هو السر في سلامة اللغة العربية والاحتفاظ بها فصحي نقية طوال ثلاثة عشر قرناً منذ أيام الفتح العربي إلى أيامنا الحاضرة ، ولسنا نكاد نجد أمة أخرى احتفظت بلغة الفاتحين كما احتفظت الأمة العربية بلغة العرب الذين لم يكونوا إلا عنصراً من عناصرها ، بل إن العرب لم يحتفظوا طويلاً بعنصرهم المحض لسرعة امتزاج دماءهم بدماء الشعوب الأصليين في البلاد عن طريق المصاهرة التي لم يمنع منها اختلاف الدين بين زوج مسلم وزوجة غير مسلمة تصبح أمّاً لحليل جديد من شباب عربي اللغة والثقافة .

فاللغة الإنجليزية الحاضرة مثلاً ليست هي لغة النورمان ولا لغة الإنجليز أو السكسون القدامى وليست لغة البريطانيين الأصليين الذين سبقوا هؤلاء في أرض إنجلترا . بل إنها لا تكاد تشبه اللغة الإنجليزية التي كان الناس يتفاهمون

بها في تلك البلاد منذ خمسة قرون . ومثل هذا يمكن أن يقال عن اللغات الحية الأخرى كالفرنسية والألمانية .

وقد كان بقاء اللغة العربية حية محتفظة بكيانها سليماً وبصورتها كاملة عاملاً قوياً على غزارة الإضافات النفيسة للثروة الثقافية للأمة العربية بالحديدة، فهذه اللغة كانت بمثابة رباط متين بين ماضى الأمة وحاضرها وكانت بمثابة وعاء ضخمة لثقافات قرون متوالية وعقريات متعددة . فالأمة العربية في وقتنا هذا مدينة بدين حضارى ثقافى عظيم للأجيال التى تعاقبت بعد الفتح وكان لها الفضل فى إحداث ذلك الاندماج العضوى الذى تحدثنا عنه بين العرب وبين الشعوب المتعربة بسرعة منقطعة النظير وبصورة كاملة ليس لها شبيه فى تاريخ الأمم . ولا نجد بدءاً هنا من أن نخرج على سؤال له علاقة وثيقة بهذا الحديث عن اندماج العرب بالشعوب الأخرى فى مثل هذه السرعة وفى مثل ذلك الكمال .

فهل حدوث الاندماج بين العناصر المختلفة التى تكون أمة من الأمم يستلزم مضى مدة معينة على اجتماع تلك العناصر معا ؟ هل هناك مقياس زمنى نعرف به متى أتمت إحدى الأمم صهر عناصرها المختلفة وتكوين أمة مماسكة مندمجة ذات كيان واحد متميز ؟ والجواب على هذا واضح فى ثنايا ما قدمناه من حديثنا هذا . فالزمن ما هو إلا رمز اتخذته الإنسان ليعبر به عن حركة معينة ، والزمن الذى تعارف الإنسان عليه كى يعد به الساعات والأيام والأشهر والسنوات لا مغزى له بالنسبة لتكوين الأمم .

ونحن حين نقول إن تطور أمة معينة قد حدث في مدى قرن أو عدة قرون، فعنى هذا أن العوامل التى أدت إلى هذا التطور كانت من القوة بحيث أحدثت أثرها فى تلك المدة .

فالعبرة فى تكوين الأمم إنما تكون بقوة العوامل التى تؤثر فى تطورها .
قد تستغرق إحدى الأمم ألفاً من السنين فى حالة ركود فلا يحدث فيها تطور ملحوظ ، وقد تستغرق أمة أخرى قرناً واحداً أو بضع عشرات من السنين للوثوب من حالة إلى حالة أخرى ، والمعول فى سرعة التطور أو بطئه إنما يكون على قوة العوامل التى تحدث التغيير فى الأمة .

فيلاد الأمة العربية الجديدة فى مدى قرن واحد بعد الفتح واختلاط العرب بالشعوب الأخرى، ثم نمو هذه الأمة ونضجها كأمة واحدة مندمجة العناصر فى مدى قرنين وزوال الفروق بين هذه العناصر التى تكونها وأخذها فى بناء حضارة ذات طابع متميز - كل ذلك كان ناشئاً من قوة العوامل التى أثرت فى تطورها .

٤ - الدولة العربية

مرت الأمة العربية في مدة القرنين الأولين من حياتها بتجارب متنوعة لا نستطيع هنا إلا أن نجمل اتجاهاتها العامة لأن تفاصيلها جديرة بأن نخفي عنا سلسلة اتصالها وتطورها ، وكان من أهم هذه التجارب محاولات المتعددة في تكوين صورة واضحة لدولتها ونظام الحكم فيها .

وكان من الطبيعي أن يواجه العرب في أول الأمر واقف لم يسبق لهم عهد بمثله ، إذ كانت حياتهم السابقة في الجزيرة العربية قائمة على نظام القبيلة والولاء لها كما مر ذكره ، وكان أسلوب حياتهم اليومية في الصحراء يختلف كثيراً عن أساليب الحياة اليومية في البلاد التي وجدوا أنفسهم فيها . وكانت أول مشكلة واجهتهم هي كيف يقيمون نظاماً مركزياً للحكم يكفل لهم الإبقاء على وحدة القبائل في جزيرتهم كما يكفل لهم الإشراف على حكم البلاد الواسعة التي آل إليهم حكمها . وكان عليهم مع مواجهة هذه المشكلة أن يحدثوا كثيراً من التغيير في أساليب إدارة الأقاليم التي تكونت منها دولتهم كي تكون هذه الأساليب متسقة مع مبادئ رسالتهم الإنسانية التي حرروا شعوب تلك الأقاليم على أسامها .

فكانت هاتان الضرورتان تحتم عليهما أن يقوموا في وقت واحد بتدبير على لتنظيم أداة الحكم المركزي، وتنظيم آخر للإشراف على الأمن والعدالة

بين القبائل في جزيرة العرب الترامية الأطراف، وتنظيم ثالث لإدارة الأقاليم التي فتحوها وإدخال ما ينبغي لهم لإدخاله على نظمها من التغيير كي تتسق مع المبادئ الإسلامية .

ولم يكن من الممكن لهم في بادئ الأمر أن يجدوا مثلاً صالحاً يحتذونه في إقامة الحكم المركزي ، إذ لم يكن من الممكن أن يتخذوا الحكم المركزي في فارس أو في بلاد الروم مثلاً لهم وهم الذين يعرفون ما كان ينطوي عليه كل من هذين النظامين من الفساد والطغيان . فالصعوبة التي واجهها العرب كانت صعوبة كبرى في إقامة دولتهم المركزية ووضع نظام للحكم في بلادهم وفي الأقاليم التي فتحوها ، ولم يكن أمامهم إلا الاجتهاد في التفكير والابتكار وبذل الجهد في إقامة ذلك النظام على أساس العدل والحرية والمساواة التي تأمر بها رسالتهم الإسلامية . ولم يكن من المتيسر لهم في أول الأمر أن يتخصص بعض قادة الرأي من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام في إقامة التنظيم العملي وأن يتخصص آخرون في رسم خطط الفتح ، وغيرهم في بحث الأصول والمبادئ التي جاء بها الإسلام في أسس الحكم ، فكان كبار الصحابة يقومون بهذه الأعمال جميعاً ويشتركون بالرأي في كل ميدان من ميادينها . فكانوا هم الذين يقرءون الجيوش وهم الذين يرسمون نظام الحكم وهم الذين يبحثون في المبادئ والأصول ويرجع إليهم الناس للفتوى في أمور دينهم ودنياهم وللحكم فيما يقوم بينهم من المنازعات والقضايا . وكانت الظروف المحيطة

بالعرب عند وفاة الرسول تدعو إلى البت السريع في إقامة نظام عملي للحكم كيما يواجهوا ما كان يحيط بهم من المؤامرات والثورات المدبرة التي أسلفنا وصف خطوطها العامة .

وكان اجتماع كبار الصحابة في سقيفة بني ساعدة بالمدينة في يوم وفاة الرسول حدثاً تاريخياً عظيم الأهمية . فقد أدرك المجتمعون بذكائهم الفطري أن الموقف لا يحتمل توسيع شقة الخلاف في الآراء . فحس أنهم تناقشوا مناقشة حرة صريحة وأبدى كل منهم رأيه كما تعود العرب أن يبدوا آراءهم في قوة وثقة بالنفس فإن شعورهم بدقة الموقف وخطورته جعلهم يسارعون إلى قبول الرأي الذي وافق عليه أكثرهم واختاروا أبا بكر وهو أول من آمن برسالة الإسلام ليكون خليفة النبي محمد عليه الصلاة والسلام . واكتفوا جميعاً بأن يسموه خليفة الرسول ولم يحددوا حقوقه عليهم ولا واجباته نحوهم لأنهم قنعوا بأن يسير فيهم وفق سيرة الرسول وأن يلزم بقدر اجتهاده ما يراه متسقاً مع القواعد التي جاء بها الإسلام ، فيرجع إلى المبادئ التي نص عليها القرآن وإلى سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإذا أشكل عليه الأمر ولم يجد سنداً من الكتاب أو السنة اجتهد برأيه على هدى الكتاب والسنة .

وقد أجمل الخليفة الأول الخطة التي عزم أن يسير عليها في حكم الأمة في خطبته الموجزة التي وجهها إلى الناس عقب مبايعته إذ قال ما معناه : « إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتموني على حق فأعينوني

وإن رأيتهم على باطل فقوموني . ألا إن الضعيف فيكم قوى عندي حتى
أخذ الحق له ، والقوى منكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه . أطيعوني
ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » .

ففي هذه الكلمة الموجزة وضع أبو بكر مبدئين عظيمين في الحكم
أولهما ، أن المرجع الأخير في الحكم هو الأمة التي لها أن تساعد الحاكم
وتسير معه إذا رأته على حق والتي لها أن تقومه إذا حاد عن الحق ،
والمبدأ الثاني أن الحاكم إذا أطاع ما أمر به الله في رسالته إلى الإنسانية ،
كان من واجب الناس أن يطيعوه ، وأما إذا عصى ما جاءت به هذه
الرسالة فإن الأمة تكون في حل من طاعته .

وقد أشار أبو بكر في هذه الخطبة إلى واجب هام من الواجبات التي
تحتّمها عليه رسالة الإسلام وتعهد أن يؤكد هذه الإشارة بتكرار معناها
مرتين عند ما أعلن أن أضعف الناس قوى عنده حتى يأخذ الحق له وأن
أقوى الناس ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه . فهو في هذه الإشارة
الخاصة يعلن على الناس أن أساس الحكم هو المساواة بين الناس في
الحقوق فليس في دستور الإسلام مجال لمحاباة الأقوياء ولا تجاهل
لحقوق الضعفاء .

فن الحق أن نقول إن الأمة العربية أخذت على عاتقها في يوم
السقيفة أن تطبق دستورها بنفسها على نفسها . لقد كانت تتطلع إلى
الرسول عليه الصلاة والسلام في مدة حياته لتتلقى منه الهداية في كل أمر

من أمور دينها ودنياها . فلما رأت أن مكانه فيها قد خلا كان لا بد لها من أن تفكر وأن تجدد وأن تبتكر الوسائل التي تمكنها من مواجهة أمور دينها ودنياها وفق رسالة الإسلام التي آمنت بها . فيوم السقيفة هو أول عهد الأمة العربية بتحمل مسئولية أمورها بنفسها . وقد بدأت في تحمل هذه المسئولية ببراعة وذكاء فكان أول ما اهتمت إليه بفطنتها أن تتفق على اختيار خليفة الرسول بالانتخاب ، وأن تتفق على اتباع الرأي الذي يراه أكثرها . فلما اتفقت الآراء أو أكثرها على اختيار أبي بكر ليكون حاكمها الأعلى أبي ذلك الخليفة العظيم إلا أن يبين للناس رأيه في الخطوة التي ينبغي للحاكم أن يسير عليها وأن يؤكد أن للأمة مرجع الأمور كلها وأن عليها أن تراقب أعمال الحاكم فتساعده إذا سار على وفق منهج الرسالة الإسلامية وتقومه إذا حاد عنها وتخلع طاعته إذا عصاها بل إنه من الحق أن نقول إن يوم السقيفة يمثل حدثاً هاماً في تاريخ الإنسانية جميعاً ، لأن العالم كله كان في ذلك الوقت في أشد الحاجة إلى تأكيد حق الأمة في اختيار حاكمها وإلى بيان أن مرجع الأمور كلها يكون إليها وأن طاعة الأمة لحاكمها تتوقف على طاعته لأحكام دستور شامل تؤمن به الأمة ولا تتسامح في الخروج عليه أو عصيانه .

وقد بقيت هذه المبادئ حية في أعماق ضمير الأمة العربية على مر الدهر على رغم تقلب الظروف واختلاف الدول وعلى رغم ما اتخذته الحكم من صور قريية أو بعيدة عن المثال الأعلى الذي رسمت صورته في يوم

السقيفة . فإن أحكام الدستور الإسلامى بقيت أساساً لعقيدة الأمة العربية فى حياتها العامة ، وكان لها الفضل فى حماية حرياتها وعصمتها من الهبوط إلى مثل ما هبطت إليه الشعوب الأخرى . فلم يجرؤ حاكم فى وقت من الأوقات حتى فى أشد العصور ظلاماً على أن يسوم الأمة العبودية أو أن يعسف بالأفراد ويلطم ويسلب كرامتهم كما تجرأ الحكام مثلاً فى بلاد أوروبا فى العصور الوسطى أو كما تجرأ الملوك والأمراء فى فرنسا على رعاياهم قبل الثورة الفرنسية .

وقد استمرت محاولات الأمة العربية طوال حكم الخلفاء الأربعة الأول للملازمة بين نظام حكمها وبين ظروفها مع الاحتفاظ بالسير على منهج رسالتها . وكانت طريقة اختيار عمر للخلافة غير طريقة انتخاب أبى بكر ، إذ كانت الحروب بين العرب وبين الروم والفرس دائرة على أشدها عند وفاة أبى بكر .

وقد أدرك هذا الخليفة الأول العظيم خطورة الموقف فاحتاط للأمر قبل وفاته وأوصى الأمة بمبايعة عمر بن الخطاب وقال فى كتاب وصيته ما معناه : إنه وهو موشك أن يفارق الدنيا وأن يقبل على الدار الآخرة يوصى الأمة بمبايعة عمر بن الخطاب ، فإن هو بر وعدل فذلك علمه به وظنه فيه وإن جار وبدل فلا علم له بالغيب وإنما أراد الخير . وأردف هذه الوصية بالآية الكريمة « وسيعلم الذين ظلموا أى متقلب ينقلبون » . فهو قد اجتهد فى رأيه ليحافظ على مصلحة الأمة فى ذلك الوقت

الخطير ، وأوصى الأمة بمبايعة رجل عرفه كما عرفته الأمة وقدرت فضله . غير أنه لم يجعل وصيته مطلقة من كل قيد بل نبه الأمة إلى أن مرجع الأمر كله إليها ، فإذا جار عمر وبدل ما عهد له أبو بكر فيه وما عهدته فيه الأمة ولم يلزم منهج الرسالة المقدسة التي لا ينبغي لأحد أن يفرط في شيء منها فلمنه لا يتحمل وزره ويتبرأ منه . ولا شك أن الآية الكريمة التي استشهد أبو بكر بها في كتابه تحمل عمر مسؤولية عظمى أمام ضميره وأمام ربه كما أنها تشير من طرف خفي إلى أن الأمة في هذه الحالة تكون في حل من بيعته حتى تحقق تهديد الآية الكريمة التي توعد الظالمين بسوء المصير في الدنيا وفي الآخرة . وقد رحب الناس بولاية عمر للخلافة كما كان منتظراً ، ولم يقصر عمر بن الخطاب في تحقيق ما توقعه أبو بكر منه ، وكان طوال مدة حكمه يؤكد حق الأمة في مراقبته كما يؤكد واجبه في التزام أحكام رسالة الإسلام في كل كبيرة وصغيرة من شئونه الخاصة وفي كل ما يصدر عنه من الأحكام والآراء في الشؤون العامة . وما تزال أجيال الأمة العربية تذكر موقفه يوم قام في المسجد خطيباً وكان مما قاله للناس « من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه » فرد عليه أحدهم قائلًا « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحمد سيوفنا » فلم يعقب على هذا الرد إلا بقوله « الحمد لله الذي جعل في الأمة العربية من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » فهو يقر في صراحة نبيلة بسيطة أن الأمة هي صاحبة الحق في تقويم اعوجاجه ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة في ذلك .

وكان عمر بن الخطاب من أقوى رجال التاريخ شخصية ومن أقدرهم على التنظيم وأحرصهم على النظر في كل أمور رعيته .

كان يصدر في كل أمر من أموره عن ذكاء ممتاز وبصيرة نافذة وكانت صفة العدل سجية فيه وصفة الاعتدال طبعاً واسعاً في نفسه . أما تواضعه فقد كان تواضع العظيم الذي يزداد عظمة في تواضعه . وكان من المنتظر منه أن ينظم طريقة اختيار الخليفة كما نظم أموراً أخرى كثيرة من أساليب الحكم والإدارة ولكنه قتل غيلة على غير انتظار وما تزال الأمة العربية في أشد الحاجة إليه وإلى عبقريته . وكان اغتياله مدبراً على ما يظهر من الأخبار الواردة عنه ، تنفيذاً لمؤامرة أجنبية قصد بها حرمان العرب من شخصيته العظيمة قبل أن يتمكن من ترسيخ أصولها وإرساء قواعدها ، ففقدت الأمة العربية بفقده زعيماً عظيماً وأمثلاً كبيراً .

فلما اغتيل فجأة شعر بأن واجبه الأخير نحو أمته يقضى عليه أن يبادر بابتكار طريقة سريعة لاختيار الخليفة بعده حتى لا تقع الفرقة بين زعماء الصحابة وتعرض مصلحة الأمة للخلل في ذلك الوقت الذي كان فيه العرب يغزلون في أرض الروم والفرس ويشتبكون في القتال مع جيوش ضخمة حشدتها هاتان الدولتان في محاولتهما اليائسة للمحافظة على سيطرتهما وسطوتهما بشعوب آسيا وأفريقيا .

وكانت الطريقة التي ابتكرها عمر اختياره لأهل « الشورى » وهم ستة من كبار الصحابة وأعلامهم في الناس قدراً ، لما عرفوا به منذ بدء الدعوة الإسلامية

من قوة الإيمان والفضل والزهد في الدنيا والحكمة في الرأي، وكان يرى أن كل واحد منهم أهل لتولى الخلافة ولكنه لم يشأ أن يتحمل المسؤولية في اختيار أحدهم فوكل ذلك إليهم ليختاروا من بينهم رجلاً يرضونه للخلافة ويقدموه إلى الأمة لتبايعه اعتماداً على رأيهم فيه .

ووقع اختيار أهل الشورى آخر الأمر على عثمان بن عفان وهو أحدهم وتمت له البيعة الخاصة من أهل الشورى وأعقبها البيعة العامة من أهل المدينة ومن كان حاضراً هناك من العرب .

وكانت مدة حكم عثمان امتحاناً عسيراً للأمة العربية في حياتها السياسية ، فقد كان شيخاً كبير السن عندما ولى الخلافة وقيل إنه كان قوى الشعور بالعبء الثقيل الذي ألقى على عاتقه . فيقول الطبرى إنه عندما خرج ليصلى بالناس لأول مرة بعد انتخابه كان « أشد الناس كآبة » وكانت خطبته تفيض بما يدل على هذه الكآبة .

وكان من أول ما أمر به أن بعث إلى عمال الأقاليم بكتب تدل على أنه كان شديد الحرص على اتباع نهج عمر وأبي بكر في توجيه الحكم ، فلمنه بعث إليهم يقول : « إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة » ويقول : « إن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تشنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم ، ثم العدو فاستفتحوا عليهم بالوفاء » .

وبعث إلى قواده الجند يقول فيما قال : إنكم حماة المسلمين وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان عن ملأ منا ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون، فلاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه .

واستقامت الأمور لعثمان كما استقامت لعمر بن الخطاب من قبله مدة الأعوام الأولى من حكمه إلا أن بعض أعماله أغضبت بعض كبار الزعماء من فضلاء الصحابة مثل سعد بن أبي وقاص وهو أحد الستة أهل الشورى فإن عثمان عزله عن ولاية الكوفة ومثل عمرو بن العاص فإنه عزل كذلك عن ولاية مصر .

وتوالى انتصار الجيوش العربية في مدة هذه السنوات وزادت آفاق الفتح اتساعاً حين جهز معاوية بن أبي سفيان حاكم الشام أسطولاً لغزو الروم في البحر ليرد غزوات أساطيل الروم التي كانت لا تنقطع عن سواحل الشام، فما زالت غزوات البحر تتوالى حتى بلغ العرب قسطنطينية وحاصروها، وكان أول أمراء البحر البطل عبد الله بن قيس الحارثي الذي جمع بين البسالة والشهامة وكرم النفس ، وظهر بعده نبوغ عبد الله ابن سعد بن أبي سرح في قيادة الأساطيل فوق ما كان له من البراعة في قيادة جيوش البر .

غير أن الأمور بدأت تختل بعد مضي سبع سنوات من حكم عثمان ، ولسنا نستطيع أن نبين الحقائق من خلال الأخبار المتضاربة عن الحوادث

التي تدل على ذلك الاختلال . وكل ما يمكن أن يقال عن يقين أو ما يشبه اليقين : إن بعض الألسنة بدأت تنطلق بدم عثمان وانتقاد سياسته ، وإن أكثر هؤلاء الذين كانوا يطلقون فيه ألسنتهم كانوا يحقدون على عماله لسبب أو لآخر من دوافع الكراهة .

وليس هذا موضع تفصيل الحوادث وبيان البواعث عليها فلننا نقصد إلا أن نقول إن كل ما وجه إلى عثمان من الذم والنقد لا يعتمد على حقائق ثابتة بل كانت تحيط به شبهات تجعله أقرب إلى أن يكون افتراء محضاً . طعن محمد بن أبي حذيفة على عثمان لأنه ولي عبد الله بن سعد ابن أبي سرح على مصر وكان ذلك على أثر مشاحنة بين الشاب محمد بن أبي حذيفة وبين عبد الله بن سعد قائد الأسطول الذي انتصر على الروم في موقعة الصواري ، وقد بدأت بينهما المشاحنة على أثر مخالفة محمد للقائد وتفريع قائده له . وأخذ بعض الشبان من أهل الكوفة يطعنون على عثمان بأنه ولي على الكوفة الوليد بن عقبة وأتهموا الوليد بشرب الخمر ومخالفة بعض أوامر الدين وشنعوا عليه بذلك واتخذوا التشهير به ذريعة على الطعن الشديد في عثمان ، وكل الأدلة الظاهرة تدل على براءة الوليد بن عقبة مما شنع به هؤلاء عليه لأنهم كانوا يحقدون عليه لعداوة خاصة بينهم وبينه .

وكان من أسباب الطعن على عثمان تصديه للصحابي الكبير أبي ذر واستدعائه من الشام حيث كان يقيم ونفيه إلى الرملة ، في موضع منزله في شمال المدينة . وكان أبو ذر يكره ما طرأ على العرب من الغنى

بعد أن اتسعت لهم الفتوح ويرى أن المال الذي يعود إلى الدولة من وراء فتوحها لا ينبغي أن يؤول إلى بعض الناس دون بعض بل يجب أن يرد على الناس جميعاً حتى لا يكون بينهم فروق كبيرة من غنى وفقر . وكان يدعو الأغنياء في حماسة كى يواسوا الفقراء من أموالهم ، فتلقف الفقراء تلك الدعوة وولعوا بها وأوجبوها على الأغنياء حتى شكوا هؤلاء ما يلقون من الجماهير الفقيرة فشكا معاوية إلى عثمان ما يثيره أبو ذر من بواعث الثورة بين الفقراء ، فأمر عثمان باستدعاء أبي ذر إلى المدينة وأوصى معاوية بالترفق به . ولما لقيه عثمان حدثت بينهما مناقشة عن الدعوة التي يدعو إليها أبو ذر وانتهت المناقشة بأن قال له عثمان : « يا أبا ذر على أن أقضى ما على وأخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد، وعلى أن أدعوم إلى الاجتهاد والاقتصاد » فلم يرض أبو ذر بذلك واستأذن في الخروج من المدينة غاضباً فأقام بالريدة .

وقد اتخذ الحاقدون على عثمان ذلك الخلاف بينه وبين أبي ذر وسيلة للطنن فيه وإثارة الناس عليه .

وكثر الطعن على عثمان لأسباب أخرى ترجع جميعاً إلى بواعث خاصة من الحقد الشخصي أو حسائس الأعداء حتى ذاعت المطاعن على عثمان بين الناس وهم بين مصدق ومكذب ، إلا أنها فتحت أبواب الفتنة على الحكم وفتحت آذان الناس لقالة السوء بعد أن كانت تتعفف عنها . وكانت النهاية المحتومة لتلك المطاعن مجتمعة أن أثرت الفتنة في المدينة

نفسها ، وتطورت الحوادث سريعاً من سوء إلى سوء أعظم منه حتى تعقد الموقف وأدى إلى ثورة هوجاء انتهت بقتل الخليفة الصحابي الشيخ . وكانت مدة حكم عثمان نحواً من اثني عشر عاماً يمكن اعتبارها فترة تحول عظيم في تاريخ الأمة العربية لأن آثار حوادثها الخطيرة امتدت إلى ما بعدها ، وكانت لها آثار كبرى في حوادث السنوات التالية ، بل كانت لها آثار هامة في توجيه الحكم في الأمة العربية .

وكان من آثار الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان انقطاع سلسلة التطور الذي تتبعناه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام في نظام الحكم .

وقد انتخبت الجماهير الثائرة بالمدينة الإمام علي بن أبي طالب للخلافة وهو أحد أهل الشورى الستة الذين اختارهم عمر قبل موته لاختيار الخليفة بعده ، كما أنه من أكبر الصحابة ومن أعظمهم جهاداً وأكثرهم زهداً وورعاً وقد عاصر الدعوة الإسلامية من مبدئها وكان أول من آمن بالرسالة ومن أشد الناس حرصاً على خير الأمة العربية ومصلحتها . ولكن الثورة التي انتخبته في وقت اشتداد عصفها حالت دون استقرار الأمر له ، ورفض بنو أمية قوم عثمان أن يبايعوه واستعدوا للخروج عليه كما أن بعض كبار الصحابة لم يرتاحوا إلى عنف الجماهير الثائرة ورأوا في طريقة انتخابهم لعل نوعاً من الإرهاب الذي يمنع حرية الانتخاب ويبطله .

ومهما يكن الأمر فإن الخليفة الرابع تعرض منذ بداية حكمه لمعارضة شديدة من نواح عدة ، ولم يكن الجمهور الثائر الذي انتخبه سلس

الانقياد له ، وكان هو نفسه يشعر بذلك من أول الأمر ، فلم يظهر ارتياحاً إلى تولي الخلافة في ذلك الجو العاصف ، ولم يرض بمبايعة الناس له إلا بعد أن ألحوا عليه وناشدوه أن يقبل البيعة حتى تهدأ الفتنة ولا تتعرض مصلحة العرب للأذى ، وكان قبوله لها بعد أن تردد ستة أيام من يوم مقتل عثمان . وليس أسوأ ما حدث هو سيطرة الثوار على انتخاب علي ، فقد كان من الممكن أن يكون ذلك الانتخاب التأثير حلقة من سلسلة تطور أسلوب اختيار الخليفة ، بل كان من الممكن أن يصير الانتخاب بعد ذلك على أساس أكثر قرباً من أسلوب الانتخاب الديمقراطي الحديث ، الذي تشرك فيه الجماهير كلها فيكون اختيارهم للخليفة مباشراً من درجة واحدة بعد أن كان في أول الأمر يحدث بطريقة غير مباشرة على درجتين إحداها البيعة الخاصة والأخرى البيعة العامة . غير أن هذا التطور لم تتح له الفرصة كي ينضج ويؤتي ثماره لأن الأمة شغلت طوال مدة علي بتزاع حربي مستمر انتهى بانتزاع الخلافة بالقوة والغلبة بدلاً من توليها بالاختيار الحر والرضى .

وكان أول من تصدى لحرب علي اثنان من كبار الصحابة وهما طلحة ابن عبيد الله ، والزبير بن العوام وقد أنكرا إرهاب الجماهير عند انتخاب علي للخلافة . وخرجت معهما أم المؤمنين عائشة فحضرت القتال معهما وكانت تركب على جمل فسميت تلك الوقعة بوقعة الجمل . وقد فقدت الأمة العربية في هذه الوقعة طائفة من زهرة شبابها وكهولها

وكان من بين من قتل في أعقابها الزعيان طلحة والزبير . وكان انتصار على في هذه الواقعة حاسماً فلم يبق من الحزب المعارض الذى حارب مع طلحة والزبير بقية تذكر . وما كاد على يفرغ من موقعة الجمل حتى بدأ الصراع بينه وبين بنى أمية الذين اتخذوا مقتل عثمان ذريعة إلى إثارة غضب أنصارهم وأتباعهم ، وكان زعيمهم معاوية يسيطر على الشام منذ تولى حكمها في أيام الخليفة عمر . فكان جنوده بالشام مخلصين له متعودين طاعته ، وكان يسودهم نظام دقيق وعليهم قادة من رؤساء القبائل الموالية لبنى أمية . واتخذ معاوية المطالبة بدم عثمان ذريته إلى حرب على إذ كان ابن عم عثمان وولى دمه على عادة العرب في الجاهلية وهى عادة أقرها الإسلام . ومهما يكن الأمر فإن موقف معاوية من المطالبة بدم عثمان لقي قبولاً من طائفة كبيرة من العرب كما أن موقف على لقي قبولاً من طائفة كبيرة أخرى إذ أصر على أن توقيع العقاب على الذين قتلوا عثمان من حق الخليفة الشرعى ، فهو الذى يوقعه بعد تحقيق يبين من هم القتلة ويظهر استحقاقهم للعقوبة . وحدث الاصطدام بين جيشى على ومعاوية عند (صفين) وكان قتالاً شديداً استمر عدة أيام سالت فيه دماء كثيرة وقتل في أثنائه عدد ضخم من أبطال العرب في الجانبين . ولكن النصر ترجح بين الجانبين حتى لحق معاوية إلى خدعته المعروفة ، فأمر برفع المصاحف على الرماح وأعلن الالتجاء إلى أحكام القرآن لتكون هى الفيصل في الخلاف بين الفريقين . فأحدثت هذه الخدعة أثرها في صفوف جيش على ، فتنفرت آراؤهم فرأى

منهم فريق أنه لا مفر لهم من الاستجابة إلى من يطلب تحكيم القرآن إذ هو دستور العرب المقدس وأنهم لم يخرجوا إلى حرب معاوية ليطلبوا الانتصار على غيرهم من المسلمين رغبة في المجد أو السيطرة أو الاستيلاء على الحكم ، بل انتصاراً للحق الذى يقرره هذا الدستور . فإذا كان معاوية وأصحابه قد رضوا بحكم القرآن فلا بد لهم من الرضى بهذا التحكيم . ولكن فريقاً آخر من أصحاب على كره أن يلجأ إلى التحكيم لأنه رأى في ذلك نوعاً من التردد الذى يدل على أنهم لم يكونوا على ثقة من أنهم على الحق عندما ساروا إلى قتال معاوية . وإذا كان على يقبل ذلك التحكيم فإن ذلك يكون اعترافاً منه بتردده فيكون الذين ناصروه وقتلوا في أثناء معركة الجمل ثم في معركة صفين قد ضحوا بحياتهم في سبيل غير واضحة ولم يكونوا على ثقة من أنهم كانوا ينصرون الحق . ولا نرى ضرورة للذكر تفاصيل ما حدث في ذلك التحكيم وحسبنا أن نقول إنه انطوى على خدعة نجحت في توهين قوة على ولكنها كانت خيبة خلقية شنيعة لبنى أمية . وكان اتباع على لرأى الكثرة الذين رضوا بالتحكيم سبباً في تضعضع أمره شيئاً بعد شيء إذ اتخذ ذريعة لخروج بعض أتباعه عليه وتصديهم لعداوته وهم الذين كرهوا قبوله للتحكيم وهؤلاء هم الفرقة التى سميت منذ ذلك الوقت بالخوارج . وقضى الخليفة الرابع سائر مدة خلافته في صراع مستمر مع الخوارج ومع معاوية حتى قتل غيلة على يد أحد غلاة الخوارج فتمهد الأمر لاستيلاء معاوية على الخلافة بالقوة والغلبة .

ومنذ انفراد معاوية بالحكم استطاع أن يعيد الهدوء إلى الدولة فترة طويلة من الزمن وانتقل في أيامه موضوع تطوير نظام الحكم من مجال المحاولات العملية إلى مجال البحث والاجتهاد النظرى . فالأمة العربية التى نزع منها معاوية فرصة الاستمرار فى المحاولات العملية لتنظيم طريقة اختيار الخليفة ، لم تتحول عن الاهتمام بمصير الحكم فيها وإن كانت قد نقلت نشاطها من ميدان التطبيق العملى إلى ميدان التفكير والبحث . ولم يلبث تفكير قادة الرأى فى الأمة أن أدى إلى نشأة مذاهب مختلفة يضع كل منها شروط الخلافة والمبادئ التى يقوم الحكم عليها . غير أن نشأة هذه المذاهب أدت سريعاً إلى وجود أحزاب عدة كل منها يتبع مذهباً من هذه المذاهب الفكرية ، فبادر كل حزب منها بالقيام بمحاولات عملية لتطبيق المبادئ النظرية التى يضعها أئمة مذهبها فكانت نتيجة ذلك كله حركة قوية تشبه حركة الغليان ، وهى تدل دلالة واضحة على حيوية الأمة العربية وشدة اهتمامها بالوصول إلى خير الوسائل العملية لتحقيق المبادئ الأساسية للحكم الإسلامى . غير أنها أدت فى الوقت عينه إلى حركات ثورية واضطرابات شديدة بعد زمن معاوية . ولسنا نقصد هنا أن نفصل فى بيان حدود هذه المذاهب ولا فى بيان وجهات نظر كل مذهب وكل حزب من الأحزاب المتناظرة ، فإن الذى نقصده هنا هو أن نتتبع محاولات الأمة العربية لتطوير نظام حكمها .

وقد استمرت هذه المحاولات طوال مدة هذا الدور الثانى من حياة

الأمة العربية أى طوال القرنين الأول والثانى للهجرة (القرنين السابع والثامن للميلاد) . ويمكن أن نجمل ذكر الاتجاهات العامة للمذاهب السياسية والأحزاب التى تكونت على أساسها فى أسطر قليلة .

كان المذهب الأول الذى بدأ منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لتحديد نظام الحكم يحصر الخلافة فى قريش ويجعل وسيلة اختيار الخليفة قائمة على مبايعة مبدئية يتفق عليها قادة الرأى فى الأمة وتتلوها مبايعة عامة من جمهور الأمة لإظهار رضاء العامة بتلك المبايعة المبدئية .

ويقابل هذا الاتجاه مذهب آخر وهو الذى ذهب إليه من يطلق عليهم لقب (الخوارج) ، وكانوا لا يرون حصر الخلافة فى قريش بل كان رأيهم أن الخلافة يجب أن تكون متاحة لكل من تتوفر فيه شروط الصلاح للحكم من المسلمين سواء كان من قريش أو من غيرها .

وبإلى جانب هذين الاتجاهين وجد مذهب ثالث أنشأه فى أول الأمر الفريق الموالى لعلى بن أبى طالب وهو المذهب الذى أطلق عليه لقب (الشيعة) ، وهو يحصر الخلافة فى دائرة أضيق من دائرة المذهب الأول فيجعلها فى نسل الرسول خاصة . ولما كان الرسول لم يعقب ذرية من الذكور فقد قصر هذا المذهب الخلافة على آل بيت الرسول وهم سلالة على بن أبى طالب . وقد تفرعت عن هذه الاتجاهات الثلاثة شعب صغرى لاهل للإفاضة فى ذكرها لأن اتجاهات هذه المذاهب الرئيسية الثلاثة هى التى رسمت أهم الخطوط فى التاريخ السياسى للأمة العربية فى القرنين الأول والثانى للهجرة .

وكان لظهور المذاهب والأحزاب السياسية أثر على في الحوادث التي وقعت طوال أيام حكم الدولة الأموية واستمرت إلى أوائل حكم الدولة العباسية . وقد استطاع معاوية بعد استيلائه على الحكم بالقوة أن يوطد ملكه على رغم الاتجاهات الفكرية القوية المعارضة له . ولكن تصرفاته تدل على أنه كان يعترف بكل ما ينص عليه الدستور الإسلامي من الحقوق والواجبات الخاصة والعامة . وكانت فيه صفتان من أكبر مميزات السياسى البارع وهما الدهاء والحلم . وبما يؤثر عنه أنه كان يقول لو أن بنى وبين الناس شعرة ما انقطعت فلأنهم إذا أرخواها مددتها وإذا مدوها أرختها . وتاريخ حياته مليء بالمواقف التي تدل على مقدار حلمه وسعة صدره وتمكنه من ضبط نفسه .

ولسنا نستطيع أن نعرف على وجه اليقين ماذا كان يمكن أن يتطور إليه نظام الحكم في الدولة العربية لو لم تمتد يد الاغتيال إلى الخليفة الرابع على بن أبى طالب على حين فجأة قبل أن يستقر له الحكم . على أننا نستطيع أن نقول إنه كان جديراً أن يستمر في تطوير الحكم في الاتجاه الذى سبق إليه الخليفتان السابقان أبو بكر وعمر . فقد كان على زاهداً في مادة الدنيا وكان ينظر إلى الحكم على أنه واجب عام يتطوع لأدائه من يقع عليه اختيار الأمة ، ولم يكن ليتخذ وسيلة للمجد ولا للسيطرة . على أن معاوية وإن لم يكن مثل على في نظره إلى الحكم كان عربياً صميمياً عرف كيف يسوس العرب بغير أن يشعرهم بالخروج على دستورهم ، فهو في

تاريخ الأمة العربية شبيه بالإمبراطور أغسطس في تاريخ الدولة الرومانية
لإذ استطاع أن ينفرد بالحكم بغير أن يشعر الرومانيون بأنه غير نظامهم
الجمهورى القديم .

ولإذا نحن نظرنا إلى الحوادث من بعيد أمكننا أن نتبين أن الأمة
العربية اطمأنت إلى حكم معاوية لأنه أوقف ولو مؤقتاً حركة الانقسام التى
مزقتها منذ مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وكانت الحوادث الدامية
التي بدأت عند ذلك كافية لإزعاج طائفة كبيرة من قادة الرأى فى الأمة
وزعمائها ، إذ شعروا أن المصادمات الدموية الكثيرة بين الأحزاب
السياسية واتباع المذاهب المتصارعة توشك أن تودى إلى تبيد قوى الأمة
وتتيح للطامعين فى السيطرة أن ينتفعوا بالمعارك الحربية لتحقيق مصالحهم الخاصة .
وهذا هو السر فى أن قادة الأمة رضوا آخر الأمر بخلافة معاوية
لأنها قضت على المصادمات بين الأحزاب وأعادت إلى الأمة العربية
وحدتها واطمئنان حكمها .

غير أن هذا الهدوء الذى أعاده معاوية إلى الأمة لم يلبث أن زال بعد
موته ، فند اختفت شخصيته القوية عاد النزاع شديداً بين الأحزاب
المختلفة ، فتحرك أبناء الزبير لاستئناف الثورة التى قام بها أبوهم ضد
على وانتهت بموقعة الجمل ، وكانت حججهم هى الحجة التى استند
إليها الزبير فى ثورته على على وهى أن الخلافة لا ينبغي أن تؤخذ بالقوة
والغلبة فاعتبروا استيلاء معاوية على الخلافة بالقوة مخالفاً لروح الإسلام .

ولا بد لهم من إرجاع الأمر إلى الأمة لتختار خليفتها بانتخاب حرّ لا قهر فيه . وتحرك الحزب الآخر وهو الشيعة ودعوا الحسين بن علي إلى الثورة على حكم بني أمية وكانت حجّتهم هي أن الخلافة لا يصح أن تكون إلا لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتحرك الحزب الثالث للثورة أيضاً وهو حزب الخوارج وكانت حجّتهم في ذلك أن الانتخاب للخلافة يجب أن يكون حرّاً من كل ضغط وقسر وأنها لا تقتصر على قريش بل يمكن أن يرشح لها من تتوافر له صفات الحاكم العادل القوى ولو كان من غير قريش .

ولم تطل مدة الخليفة الأموي الذي جاء بعد معاوية وهو ابنه يزيد ، ولم يكن في بيت معاوية من يستطيع مواجهة الموقف الحرج الذي عمت فيه القلاقل فوثب أحد شيوخ بني أمية للاستيلاء على الحكم وهو مروان ابن الحكم الذي كان في شبابه من أكثر بني أمية اتصالاً بالخليفة الثالث عثمان بن عفان . وقد استطاع مروان أن يبدأ عهداً جديداً من حكم بني أمية لأن الملك استمر في آل بيته نحو سبعين عاماً إلى أن زالت دولة بني أمية .

وشهد حكم بني مروان تطوراً جديداً في الحكم العربي إذ بلغت الدولة في أيامهم ذروة مجدها ووصلت الجيوش العربية إلى أقصى الحدود الغربية في شمال أفريقيا وعبرت إلى أسبانيا فرفعت أعلامها على شبه الجزيرة كلها ، ثم عبرت جبال البرانس واستولت على جنوب فرنسا . وكانت فتوحها في

الشرق أعظم من فتوحها في الغرب فامتدت إلى ما وراء نهر سيحون وضممت بلاد الترك إلى الدولة العربية وعبرت الجبال العالية المؤدية إلى الهند وفتحت أرض السند .

واستطاع بنو مروان إلى جانب حشد الجيوش العربية لهذه الفتوح الضخمة أن يقضوا على الثورات العدة التي زاد اضطرابها في مدة حكمهم فلم يكذب يخلو منها حكم ملك من ملوكهم ، وكان أشدها في مدة عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد الأول بن عبد الملك .

غير أن قضاء الأمويين على الحركات الثورية الظاهرة لم يمنع الأحزاب المعارضة لهم من بث دعاياتهم في الخفاء ، وكان حزب الشيعة أكثرها نشاطاً وأقدرها على استمالة الناس وإثارة عطفهم ، وساعدهم على ذلك ما كان يعتمد إليه الحكم الأموي أحياناً من القسوة في عقاب الثائرين عليه من العلويين . فكان زعماء الدعاية الشيعية يثيرون العطف على آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام كلما أوقع الأمويون بأحدهم ، كما كانوا يوقدون الغضب والحقد في القلوب بأن يصوروا للناس أن الأمل في تحقيق العدل وإقامة الحكم على أساس مبادئ الإسلام يتوقف على استيلاء آل بيت الرسول على الخلافة . وذهب دعاة الشيعة لبث دعايتهم في أطراف الدولة من الشرق والغرب فكانت طائفة تقوم بالدعاية في خراسان وهو الإقليم الشرق الأقصى من الدولة ، وكانت طائفة أخرى تقوم بدعايتها في بلاد المغرب . ولاقت الدعاية في خراسان نجاحاً عظيماً

لأن ذلك الإقليم كان أكثر أطراف الدولة استعداداً لقبولها ، ولعل سياسة بنى مروان هى التى مهدت لانتشار الدعاية العلوية هناك . كانت سياسة الدولة الأموية عامة منذ أيام معاوية محدودة الأفق فلم تسمح بتطور الحكم تطوراً طبيعياً للملازمة بينه وبين اتساع رقعة الدولة العربية . وقد اتسعت حدود هذه الدولة حتى بلغت بلاد الهند والترك شرقاً وحتى بلغت حدود بلاد الفرنج فيما يلى بلاد الأندلس غرباً ، ومبادئ الإسلام تقضى بالمساواة التامة بين المسلمين فى الحقوق والواجبات كما تقضى برعاية حقوق أهل الذمة الذين يحتفظون بأديانهم من أبناء الشعوب التى ضمت إلى الدولة العربية . وقد حقق الأمويون الجانب الثانى من هذه المبادئ فكانت معاملة دولتهم لأهل الذمة قائمة على السهاحة والرعاية التامة على حين كانت معاملتهم للمسلمين من أبناء الشعوب غير العربية لا توفر لهم المساواة التامة التى يفرضها الإسلام فى صراحة . ولم تكن معاملة الأمويين واحدة لرعاياهم المسلمين من أبناء الشعوب غير العربية جميعاً ، فكان المسلمون البربر فى شمال أفريقيا والمسلمون من أبناء قبط مصر أحسن حظاً من مسلمى الفرس ، فكانوا يشاركون العرب فى حملات الفتوح وكانت الجيوش التى فتحت الأندلس تشتمل على العرب والقبط المصريين المسلمين والبربر جنباً إلى جنب ، كما كانت الجيوش التى فتحت قبرص تشتمل على المسلمين العرب والمسلمين القبط من أهل مصر . وكان المسلمون البربر والمسلمون القبط يقاومون كل محاولة للتفريق بينهم وبين

العرب في المعاملة بل كانوا يهبون ثائرين إذا أحسوا بشيء من ذلك التفريق كما حدث في أيام هشام بن عبد الملك. غير أن معاملة الأمويين للمسلمين من أبناء الشعوب الشرقية كانت تخالف هذه السماحة والرعاية ، فكانت سياستهم هناك قائمة على تفريق ظاهر بين معاملة المسلمين العرب والمسلمين غير العرب ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي عنيفاً في هذه التفرقة طوال مدة حكمه أى طوال مدة حكم الخليفة عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك .

وقد استطاع الحجاج أن يخمّد الثورات التي هبت في بلاد المشرق بالقسوة التي عرف بها فتسربت الثورة إلى الخفاء وبدأت الدعوة إليها تنتشر سرّاً وتجد قبولاً سريعاً في جماهير المسلمين من أبناء الشعوب غير العربية ، حتى بلغت مبلغاً أزعج ولاية الدولة في أيام الخليفة هشام ابن عبد الملك .

ولم تكن سياسة الأمويين مخالفة لمبادئ الإسلام في معاملة المسلمين غير العرب وحدهم فإنهم كانوا كذلك يعتمدون على إثارة العصبية بين قبائل العرب وهي العصبية التي بنى الإسلام عنها ، وكان قصدهم من ذلك أن يضرّوا فريقاً من القبائل بالفريق الآخر حتى يسلس قياد الجميع لحكمهم ، فاجتمع كثير من هؤلاء وهؤلاء على بغض حكمهم ، وكثرت عداوتهم بين زعماء القبائل في خراسان سواء من قبائل مضر أو من قبائل اليمن .

فمن أجل هذه الأسباب وغيرها زاد الحقد على الأمويين وكره الكثيرون حكمهم فنجحت الدعوة لآل بيت الرسول ممن ينتسبون إلى علي بن أبي طالب أو إلى العباس بن عبد المطلب ، وقد استطاع دعاة بني العباس في أواسط القرن الثامن للميلاد أن يضرعوا نيران ثورة عامة شعبية انتهت إلى استيلاء العباسيين على الحكم ، وكانت جماهير جيوش الثائرين من المسلمين غير العرب من أهل خراسان . فانهت دولة بني أمية في أواسط القرن الثامن الميلادي (٧٥٠ للميلاد) بعد أن بقيت تحكم الدولة العربية المترامية الأطراف نحو تسعين عاماً منها سبعون عاماً انفردت فيها الأسرة المروانية بالحكم .

ونحن إذ نتأمل ثورة العباسيين وانتزاعهم الخلافة من بني مروان بنظرة واسعة شاملة لا نملك إلا أن نعدّها خطوة في سبيل تطور الحكم في الدولة العربية وهي خطوة جعلت أساس الحكم أقرب إلى مبادئ المساواة بين المسلمين بغير نظر إلى أجناسهم الأصلية ، وكانت بغير شك من أقوى العوامل على زيادة وحدة الأمة وتضافرها جميعاً بأصوبها المختلفة في بناء الحضارة العربية بقوة مضاعفة . فاستيلاء العباسيين على الحكم كان انقلاباً سياسياً خطيراً في الدولة وأدى إلى نتائج بعيدة المدى ، فحقق مبدأ المساواة بين الناس في أنحاء الوطن العربي كله وقوى حركة الاندماج بين العرب والشعوب الأخرى بعد أن اعترتها نكسة شديدة في بلاد الشرق منذ أيام الحجاج بن يوسف الثقفي . غير أن هذا الانقلاب العباسي كان له

نتائج أخرى خطيرة ، فإن الخلافة أخذت تستند إلى دعامة دينية بعد أن كانت عربية محضة ، واتخذ الخلفاء لأنفسهم صفة من القداسة على أنهم من آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام وكان لهذا أثر كبير في تجميد صورة الحكم فوقفت حركة تطويله إلى نظام شورى ديمقراطى وضعفت الحركات الثورية التى كان الدعاة إلى الحكم الجمهورى يقومون بها طوال مدة الحكم الأموى - وهم الذين يسميهم التاريخ بالخوارج - وذلك لأن ثوراتهم صارت توصم بالخروج على الإسلام وعلى الخليفة الذى أصبح يمثل بيت الرسول .

وبدأ الخليفة يجمع بين صفى الحاكم الأعلى للدولة والزعيم الدينى لا كما كانت عليه الحال فى مدة الأمويين الذين لم يكن لهم من أنسابهم ما يجعلهم أهلاً للزعامة الدينية بين المسلمين . وقد بقيت للبيت العباسى صفة الزعامة الدينية أكثر من خمسة قرون مع ما أصاب نفوذه من الضعف فى شئون الحكم فى الدولة بعد نحو قرن واحد من بدء حكم الأسرة .

ومنذ ضعف شأن ثورات الخوارج الجمهوريين انحصرت معارضة الحكم فى أبناء عمومة العباسيين وهم العلويون الذين كانوا يرون أنهم أولى بالخلافة من العباسيين لأنهم أحق بأن يكونوا آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام لاتصال نسبهم بجدهم الرسول .

وتعددت ثوراتهم على العباسيين ولكنها أخذت وقتل عدد كبير من زعمائهم فعادوا إلى خططهم الأولى فى بث دعايتهم فى الخفاء ، وبعثوا دعائهم إلى (١٠)

الأطراف البعيدة من الدولة العربية لمجهودوا لاستيلائهم على الحكم .
 وكان العباسيون في ثورتهم شديدي الخنق على الأمويين وأظهروا
 أشد العنف في معاملتهم وكانوا يسوغون ذلك العنف بأنهم يثأرون لمن
 قتلهم الأمويون من آل بيت الرسول ، فقتلوا كل من ظفروا به من بني أمية
 ولم ينج منهم إلا من اختفى أو استطاع الهروب ، وكان من بين من
 تمكن من النجاة شاب جرىء وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام حفيد
 الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك . وقد استطاع ذلك الشاب أن يفلت من
 رقابة العباسيين ومن ترصد عمالهم له في كل مكان حتى وصل آخر الأمر إلى
 المغرب وعبر إلى الأندلس وتمكن من الدخول إليها وحيداً شريداً ،
 ثم استطاع أن يجمع حوله الأنصار وأن يؤسس دولة أموية جديدة في
 الأندلس لتنافس الدولة العباسية في قوتها ومجدها وحضارتها . وكان الخليفة
 العباسي الثاني أبو جعفر المنصور لا يخفى إعجابه بذلك المغامر الجريء
 ويسميه صقر قریش وكأنه كان يدرك مقدماً أنه سيقم في الأندلس ملكاً
 سيصير له فيما بعد شأن عظيم ، وأن الدولة التي بدأها هذا الصقر ستصبح
 منافسة للدولة العباسيين بعد حين .

الدور الثالث من حياة الأمة العربية

١ - انقسام الدولة

منذ ابتداء الدولة العباسية في أواسط القرن الثامن للميلاد تقسم حكم الدولة العربية إلى قسمين أحدهما عباسي والآخر أندلسي . ولوم يكن هذان القسمان متعاضدين لما أدى ذلك الانقسام إلى النتائج الخطيرة التي حدثت فيما بعد ، ولكن هذا الانقسام كان طليعة لتمزيق الدولة الإسلامية كما كان ابتداء مرحلة جديدة في تاريخ الأمة العربية ، فن هنا يبدأ الدور الثالث من حياتها .

سارت دولة الأندلس في مبدأ الأمر على خطة سياسية معتدلة فلم تظهر عداوتها للدولة العباسية في صورة واضحة ولم يتخذ عبد الرحمن الداخل لنفسه لقباً أكبر من لقب (الأمير) ، وإن كان قد قطع اسم الخليفة العباسي من الخطب بالمساجد .

غير أن الدولة العباسية كانت تشعر بالقلق الشديد من قيام تلك الدولة المنافسة ، ولولا انشغالها بتثبيت دعائم ملكها لما تركت الأمويين يفرغون إلى إنشاء دولتهم بالأندلس وإرساء قواعدهما فيها . فلما اطمأن العباسيون في ملكهم بالشرق وتم لهم توطيد عرشهم وبسط سلطانهم على الأقاليم التابعة لهم بدأوا يظهرن العداوة لنافسهم فأخذ هرون الرشيد يقوى

علاقته بالإمبراطور شلمان وهو عاهل أوروبا الأكبر الذى كان يطمع فى الاستيلاء على الأندلس والقضاء على حكم العرب فيها، وكان فى الوقت عينه يخطب ود الخليفة العباسى ليكون مساعداً له على إمبراطور دولة الروم الشرقية. فنذ أوائل القرن التاسع للميلاد بدأت المنافسة بين الدولتين العربيتين تظهر بمظهر العداوة السافرة بعد أن كانت بذورها كامنة فيهما منذ البداية، وأخذت تتزايد على مر الزمن خلال القرن التاسع حتى انتهت إلى غايتها فى أوائل القرن العاشر للميلاد عندما اتخذ عبد الرحمن الثالث لنفسه لقب (الخليفة)، فوقفت الدولتان وجهاً لوجه وقوف ندين متساويين متعاضدين. وقد تتابع استقلال أفريقيا الشمالية عن الدولة العباسية منذ أواخر القرن الثامن للميلاد، إذ استقل الأغالبة بالإقليم الأوسط من شمال أفريقيا وهو المعروف الآن بتونس وكونوا دولة صارت ذات قوة بحرية مكنها من عبور البحر الأبيض والاستيلاء على صقلية وجنوب إيطاليا، وتبعهم الأدارسة فاستقلوا بالمغرب الأقصى فى أواخر القرن نفسه وأنشأ الأمير إدريس الثانى مدينة فاس التى صارت فيما بعد مركزاً من أكبر مراكز الحضارة الإسلامية العربية، واستقل ابن طولون بمصر فى أواسط القرن التاسع ومنذ ذلك الوقت تتابعت عليها الدول المستقلة فجاءت بعدها الدولة الإخشيدية ثم الدولة الفاطمية، وهى تخالف فى اتجاهها كلا من الدولتين العباسية والأموية بالأندلس وتنافسهما إذ كانت دولة شيعية علوية. وقد اتخذ الفاطميون القاهرة عاصمة لدولتهم وأعلنوا أنفسهم

خلفاء مستقلين : فأصبح في الوطن العربي ثلاثة خلفاء في وقت واحد :
العباسي في بغداد والأموي بالأندلس والفاطمي في القاهرة .

غير أن هذا الانقسام على رغم ما كان يؤدي إليه من المنافسات بين
الدول الثلاث لم يكن له أثر في مواجهة أعداء الأمة العربية إلى أواسط
القرن العاشر إذ كانت كل من الدول الثلاث قادرة على صد أعدائها
بنفسها ، بل كانت كل منها قادرة على تدعيم سلطانها فيما يليها من
البلاد . وكان أشد مظاهر المنافسة بينها ما وقع بين الفاطميين والعباسيين
لقرب حدود إحداها من حدود الأخرى .

أما الأمة العربية نفسها فلإنها لم تتأثر بذلك الانقسام الذي أدى إليه
تنافس هذه الدول وخلفائها ، بل استمر أبناؤها يعيشون في أوطانهم
الصغرى جنباً إلى جنب كما كانوا يعيشون في وطنهم الشامل تجمعهم
ثقافة واحدة ومثل عليا واحدة ، ويشتركون جميعاً في نشاط واحد لبناء
حضارتهم المشتركة . فكان الفرد ينتقل من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق
وهو يشعر بأنه ينتقل في وطنه مهما كان التباعد بين وطنه الأصلي وبين
البلد الذي نزع إليه ، ومهما كان الخلاف بين حكام إقليمه وحكام
الأقاليم الأخرى التي يمر بها أو يحل فيها .

كان العلماء والأدباء والتجار والحجاج يجوبون البلاد جميعاً لا يعرفون
عصبية لوطن معين داخل وطنهم العربي العام الشامل .
وكان من آثار هذا الشعور العميق بوحدة الأمة أن أبناءها جميعاً

تعاونوا في تطوير حضارتهم كما تعاونوا في خدمة لغتهم وثقافتهم وفي بحث أصول دينهم التي تشمل أمور الدنيا كما تشمل شئون العبادات والعلاقات بين الناس . فكان لجهودهم المجتمعة أعظم الفضل في بيان أحكام الشريعة وتحديد المعالم الجوهرية للصورة التي ينبغي أن يكون عليها الحكم الإسلامي ، وخلفوا من هذه الجهود المجتمعة ميراثاً ضخماً من البحوث العميقة والنظريات البديعة في أصول الحكم وهي في مجموعها تكون دستوراً من أرق الدساتير التي تكفل العدالة والسعادة للمجتمع والأفراد. إذا تمكنوا من وجود الطرق العملية لتطبيقها عملياً . وقد ادخرت الأجيال المتعاقبة هذا الميراث الضخم ليكون ذخيرة نفيسة للأمة العربية متى تهيأت لها الظروف التي تمكنها من الانتفاع بها .

على أن هذا التراث النظري الضخم وإن لم يتح له في الماضي أن يطبق عملياً في نظام حكم واقعي فإنه بقي للأمة العربية على توالي العصور بمثابة وثيقة ضخمة مقدسة لا يجرؤ أحد على تجاهلها أو إنكارها، ولهذا كان له فضل كبير في حماية كرامة أفراد الأمة العربية والحفاظ على حرياتهم الشخصية من اعتداء الطغاة حتى في أشد العصور ظلاماً .

وكان تكوين هذا التراث العظيم أحد مظاهر البناء الحضاري الشامل الذي انصرفت إليه الأمة العربية منذ تكوينها واندماج عناصرها ، كما سيأتي ذكره فيما بعد .

فعلى رغم الانقسام السياسي الذي مزق الدولة العربية إلى دول ثلاث

كبرى بقيت وحدة الأمة كاملة تجاهد معاً في إنشاء حضارة واحدة لا نستطيع أن نفرق فيها بين قطر وآخر إذ كان الفضل في تنمية هذه الحضارة يرجع إلى نوايغ العلماء والمفكرين أفراداً بغير نظر إلى البلاد التي كانوا يعيشون فيها ، فقد كان مؤلف الكتاب يكتبه في مدينة من المدن فيقبل عليه طلاب العلم في المدن الأخرى ، وكان التابعة في فن من الفنون في أحد الأقاليم يتلقى الدعوة لإفادة مواطنيه في أقاليم أخرى ، وهو يشعر بأنه يهب فنه للجميع . وكان الأساتذة يتنقلون بين البلاد العربية ويلقون دروسهم حيث يذهبون في حلقات الدرس بالمساجد أو بالمدارس ، فنشأت عن ذلك حركة قوية في تبادل الأساتذة بين الأقطار العربية تنبعث عفواً من العلماء والدارسين من أهل البلاد بغير تدخل من الدول أو حكامها .

وكان إنشاء الجامعات عاملاً قوياً على تخليص العلوم والفنون والثقافة العامة من تأثير الخلاف السياسى بين الدول .

فكانت قرطبة أسبق المدن إلى إنشاء جامعتها في زمن الأمير عبد الرحمن الثانى (في أواسط القرن التاسع) وبعدها أنشئت جامعتا الأزهر وفاس في أواسط القرن العاشر ثم أنشئت المدرسة النظامية في بغداد فيما بعد في أوائل القرن الحادى عشر .

٢ - انعزال الأمة العربية عن الحكم والدفاع

في أواخر القرن العاشر الميلادي وأوائل القرن الحادي عشر طرأ على نظام الحكم في أنحاء الوطن العربي تغير أشد خطورة من الانقسام الذي مزقها منذ أواسط القرن الثامن إلى أواسط القرن العاشر ، فإن الدول الثلاث الكبرى التي انقسمت إليها الدولة العربية الكبرى بدأت تقاسى عواقب أنانية الأسرات الحاكمة التي سيطرت عليها . كانت هذه الأسرات الحاكمة تشعر شعوراً قوياً بأن الشعب العربي الذي تحكمه ينكر عليها منافساتها وضيق آفاق تفكيرها وكانت ترى في اتجاه تفكير الفقهاء والعلماء ما يعارض اتجاه سياساتها ونظم الحكم التي سارت عليها . وابتدأت للشقة تتسع بين جماهير الشعوب العربية وبين حكامها واتجه هؤلاء في المحافظة على سلطانهم إلى استخدام الجنود الأجانب المرتزقة ليكونوا لهم حراساً يحمونهم في قصورهم ويقاتلون في معاركهم . وزاد نفوذ هؤلاء الأجانب حتى صار الخلفاء الثلاثة يعتمدون عليهم في حماية أنفسهم وفي تكوين جيوشهم وفي حكم الأقاليم الداخلة في دولهم . وفي عصر واحد في بداية القرن الحادي عشر أصبح الجنود المرتزقة وقادتهم يسيطرون على الحكم في الدول الثلاث الكبرى وصارت جماهير الشعب العربي فيها رعايا لا تملك من أمور الحكم شيئاً ، فعكفت على شئونها الخاصة وأقبلت على أعمالها

فى مبادىء الحىاة المأختلفة لا تكاد تبدى اهتماً بشئون السىاسة إلا بمقدار ما يمسها من تصرف حكامها الذى أصبحوا منعزلين عنها .

ولسنا نقصد بهذا أن نظام الحكم فى الدول العربية الثلاث قد اختل وفسد وشاعت فيه المظالم منذ استخدم الخلفاء الجنود المرتزقة ووكّلوا إلى قادتهم سلطان الحكم فى البلاد ، فإن الحق يقتضى أن نقول إن هؤلاء الجنود وقوادهم أدوا فى أول أمرهم خدمات جليلة للأسرات الحاكمة وللدول التى سيطروا عليها ، فقد كانوا يمتازون بالشجاعة ويختارون من أقوى الشبان من أبناء الشعوب المجاورة التى كانت فى دور البداوة ، فيضمون إلى الأسرة الحاكمة ويعاملون كأنهم من أبنائها فكانت تتوافر فيهم قوة الأبدان ومشاعر الولاء لسادتهم الخلفاء . وكانوا يدخلون فى الإسلام ويتعلمون اللسان العربى ويظهرون حماسة عظيمة للدين الذى آمنوا به وللأمة التى تكلموا بلسانها ، ويندمجون فى الجوامع الاجتماعى العربى بعاداته وتقاليده .

وكان لكثير من أمراءهم فضل عظيم فى المحافظة على الحضارة العربية وتشجيع نشاط العلماء والأدباء والمفكرين من أبناء الأمة كما كان لهم فضل كبير فى تشجيع الفنون ودفع حركة التعمير والإنشاء .

وكان فى الرعيل الأول ممن استولوا على الحكم من أمراء الجند فى الدول العربية طائفة من عظماء الرجال الذين رفعوا ألوية تلك الدول وعززوها فى مصاصماتها مع أعدائها ، مثل طغرل بك السلجوقى الذى سيطر على الخلافة فى بغداد وابنه ألب أرسلان وحفيده ملك شه ، ومثل جوهر الصقلى

قائد المعز لدين الله الفاطمي. غير أن استيلاء الجنود المرتزقة وأمرائهم على الحكم أدى على مر الزمن إلى نتيجة وبيلة على الأمة العربية وإن كان له ذلك الأثر الذي وصفناه في تعزيز قوة الدول نفسها . فلم تلبث كتلة جيوش هذه الدول أن صارت من الجنود المرتزقة التي تجلب من الخارج ، وصار الأمراء يكثر من شراء الشبان من أبناء الشعوب المجاورة ويعلمونهم ويدربونهم على فنون القتال فإذا ما كبروا وحذقوا تلك الفنون رقاهم سادتهم إلى مراتب القادة فيأخذون بدورهم في شراء المماليك حتى أصبح الاستكثار من شرائهم سنة متبعة من الجميع . ووجد أبناء الأمة العربية أنفسهم يعزلون عن الدفاع عن بلادهم شيئاً بعد شيء كما وجدوا أنفسهم من قبل يتباعدون عن شئون الحكم في بلادهم .

فكان هذا الاتجاه مظهراً عاماً للدور الثالث من حياة الأمة العربية وهو الدور الذي يتوقف فيه التجديد والترقي ويكون فيه نشاط الأمة استمراراً أفقياً لنشاط الدور الثاني من حياتها . وكل ما استطاع الحكام أن يهبوه للأمة في هذا الدور لا يزيد على أنهم وفروا لها الأمن في داخلها بسيطرتهم على الحكم في البلاد كما وفروا لها الأمن من خارجها بالدفاع عن حدودها وصد الأعداء عنها .

ولكن انعزال الأمة عن شئون الحكم وتباعدتها عن صفوف الجيش الذي يدافع عن حدودها ينتهي بها دائماً إلى الشعور بأن شئون الحكم والدفاع ليست من شأنها .

والذى يظهر لنا من ثنايا حوادث تاريخ الأمة العربية منذ أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر أن هذه الأمة شعرت مثل هذا الشعور فتباعدت الشقة بينها وبين حكامها وصارت الجماهير تنظر إلى هؤلاء الحكام على أنهم سادة مسيطرون لا كما كانت نظرتها إلى حكامها الأولين الذين كانوا زعماء لها يسرون فى طليعتها وهم من بين صفوفها .

وأما الحكام أنفسهم فقد كانوا أشد شعوراً بالانفصال عن الأمة التى يسيطرون عليها ، فكانوا مع استعراهم واندماجهم فى الجوى الاجتماعى ينظرون إلى جماهير الأمة نظرة استعلاء تزايدت على مر السنين ترفعاً ، حتى صاروا بعد حين يعتزون بعرقهم الأجنبى ويعملون على التميز بأنفسهم فوق مستوى العامة كى يحتفظوا بهيتهم فى الحكم . بهذا ضعفت رابطة الثقة التى كانت بين الأمة والحكام الذين أصبحوا فيها سادة لا مواطنين قادة . ولم يكن من الطبيعى فى مثل هذه الحال أن تبقى صبغة الدولة كما كانت فى أول الأمر دولة عربية لأمة عربية ، ولم يكن كذلك من الطبيعى أن تتخذ الدولة الجديدة صبغة أجنبية محضة فتكون دولة تركية أو صقلبية مسيطرة على أمة عربية ، لأن الخلفاء الشرعيين فى الدول الثلاث الأندلسية والعباسية والفاطمية كانوا عرباً يتمنون إلى أشرف الأصول العربية ، فالعباسيون من نبي عبد المطلب بن هاشم جد النبي ، والفاطميون من نسل على حفدة النبي ، والأمويون من نسل عبد شمس القرشى . فكان الحل الذى وصل إليه الحكام المسلمون الأجانب للمحافظة .

على مظاهر اتصالهم بالأمّة أن يصبغوا الدولة بالصبغة الدينية الإسلامية وهي الصلة المحققة بينهم وبين الرعية . فمن ذلك الوقت غلب على الدولة اسم الدولة الإسلامية وتضاعل اسم الأمّة العربية والدولة العربية إلى جانب هذه التسمية . وعهد الحكام المسلمون الأجانب إلى سياسة تقريب علماء الدين . إليهم . كى يتوصلوا عن طريقهم إلى إحراز ثقة الأمّة فيهم ، فهم حملة الشريعة وهم العارفون بأصول الدستور الإسلامى فإن كانوا يرضون عن أولئك الحكام كان رضائهم وسيلة إلى رضا الأمّة .

ولسنا نستطيع إلا أن نعتز بما كان لعلماء الدين من فضل كبير على أمّتهم فى هذا الدور من حياتها فلأنهم قاموا بالوساطة بين الحكام والرعية قياماً محموداً ولم يحملهم تقريب الحكام لهم على التنكر لأبناء أمّتهم بل كانوا فى مواقف كثيرة يتصلون لكبار القواد والأمراء بأعنف المقاومة إذا بدر منهم انحراف عن جادة العدالة أو إذا بدا منهم ميل إلى العسف والظفیان أو مخالفة أحكام الشريعة التى هم حفظتها . ونحن إذ نقول الشريعة إنما نقصد المعنى الأوسع لها وهو الذى يشمل الحقوق العامة وواجبات الحاكم نحو الرعية والحرمات التى لا بد من توافرها فى كل حكم إسلامى .

ولما انقضى القرن الحادى عشر كان الرعيل الأول من قواد الجنود المسيطرين على الحكم قد انقرض وجاء بعدهم جيل آخر ورثوا سلطان الحكم من بعدهم ولكنهم لم يرثوا شهادتهم وحكمتهم وولاءهم للدولة التى

رفعت شأنهم وجعلتهم أصحاب السلطان في بلادها . فتنازعوا فيما بينهم على اقتسام الأقاليم ليحكم كل منهم قطعة منها فأصبحت كل من الدول العربية الثلاث معرضة للاضطراب الشديد من تنازعهم فيما بينهم .

فمنذ القرن الحادى عشر تقسمت الأندلس إلى إمارات صغيرة متنافسة تحكم كلامها أسرة تسرى في عروقها في أكثر الأحوال دماء غير عربية ، وفي مصر آل الحكم إلى طائفة من الوزراء الأتانيين الذين أفسدوا البلاد بمنافساتهم ومصادماتهم القصيرة النظر طوال القرن الأخير من حكم الدولة الفاطمية ، وأما في الدولة العباسية فقد فسد نظام الحكم بعد انقراض جيل الأمراء السلاجقة الكبار أمثال طغرل بك وألب أرسلان وملك شاه وآل الأمر بعدهم إلى أيدي طائفة من الأمراء المتنافسين الذين قسموا الدولة الكبرى إلى دويلات صغرى كل منها تكيد للأخرى وكل منها تستنزف عرق أبناء الأمة حتى صار حكمهم عبثاً ثقيلاً بغير أن يؤديوا ما كان يجب عليهم أداؤه من توفير الأمن في الداخل وحماية البلاد من أعدائها في الخارج .

وبدأ الأعداء يزحفون على البلاد العربية من كل جانب ولم تجد الأمة في حكامها من يرجى منه إصلاح أحوالها أو القدرة على الدفاع عنها .

٣- الأمة العربية أمام العواصف الحمالات الصليبية وهجوم التتار

في ذلك الوقت المضطرب المليء بالمنازعات والمصادمات الضيقة الأفق بين الأمراء المتنافسين على تحقيق غاياتهم الضئيلة ، هبت في أوروبا عاصفة هوجاء لإعادة الكرة على الأمة العربية ومحاولة انتزاع أوطانها منها . وقد امتدت دائرة هذه العاصفة المدمرة من أقصى شرق أوروبا فيما يلي بلاد الدولة الرومانية الشرقية إلى أقصى غرب أوروبا مما يلي بلاد الفرنج والأسبان . فبدأت إمارات الأندلس في أواخر القرن الحادى عشر تشعر بضغط شديد مما يليها من شعوب أسبانيا الذين كانوا يتحصنون في الأقاليم الجبلية في شمال شبه جزيرة إيبيريا وغربها . وفي الوقت عينه بدأت دعوة صارخة من قبيل دولة الروم الشرقية تحرض على غزو بلاد الدولة العباسية التى كانت مقسمة بين صفار الأمراء السلاجقة .

وكان إمبراطور الدولة الرومانية قد شعر بما أصاب الدولة العباسية من اختلال واضطراب في حكمها وأحس بما تتعرض له الأمة العربية من الشدائد على أيدي حكامها ، فأراد أن يتنزه تلك الفرصة لمحاولة استرجاع سيطرة دولته على تلك البلاد ، وخيل إليه أن الرعايا الذين يعسف بهم

حكامهم ويثقلون كواهلهم بالأعباء الثقيلة سيكونون منافذ سهلة يصل منها إلى استعادة سلطان دولة الروم واسترجاع سيطرتها الاستعمارية عليهم . وزاده جرأة على محاولته تلك أنه كان يعلم بمقدار ما هبط إليه مستوى حكام الأمة العربية في شخصيتهم وشجاعتهم وآفاق تفكيرهم . وأخذ يبت الدعاة في شعوب أوروبا ليحرضهم على حرب العرب ويوهم أمراء هذه الشعوب أن المسلمين ليسوا سوى طائفة حاكمة مهيمنة على الشعوب الأصلية في البلاد وأن الواجب يحتم على أتباع الدين المسيحي أن يستنقلوا منهم لإخوانهم في الدين الذين يقاسون الذل والعذاب تحت وطأة حكمهم الشديد . وقد توسل لإمبراطور الروم إلى استثارة الحماسة في شعوب أوروبا بتوكيد الصفة الدينية لدعوته واتخذ لها شعاراً خلافاً وهو استنقاذ بيت المقدس مولد السيد المسيح وموطنه من أيدي المسلمين .

وعاون الإمبراطور على نشر هذه الدعاية طائفة من رجال الدين المتحمسين ، بعضهم يندفع بدافع عصبية للدين وبعضهم يعمل لخدمة سيده الإمبراطور . ولقيت الدعوة بعد حين نجاحاً كبيراً بعد تردد طويل من قبل الأمراء ، فإذا شعوب أوروبا تفور وتغل بالحماسة وتردد فيها أصداء دعوة صارخة تهب بالعامّة أن يزحفوا جميعاً إلى حرب المسلمين . وكان الإمبراطور وأتباعه ورجال الدين المتحمسون في صدر الصفوف يذيعون في دعاياتهم أكاذيب كثيرة يقصدها بها ليقاد العداوة في صدور الناس كي ينفروا جميعاً إلى الحرب المقدسة . كانوا يصورون لهم

المسلمين صوراً لا نتعرض نحن لتكذيبها بل نترك ذلك للمؤرخ الإنجليزى
جييون لاذ يقول :

« لم تكن هذه التهم -التي وجهها دعاة الحرب- سوى نتيجة الجهل
والتعصب ، وهى صور ينفيها القرآن ويكذبها تاريخ الفاتحين العرب
وتسامحهم مع المسيحيين فى الحياة العامة وفى الشرائع والقوانين » .
ولم تخل هذه الدعاية الكاذبة من إحداث أثرها فى كل مكان حتى
وصلت إلى العرب المسيحيين أنفسهم فطراً على علاقة الأفراد فى داخل
الأمة العربية نوع من التوتر وسوء الظن ، كان له أثر يؤسف له فى علاقة
المواطنين ، وإن كان لم يلبث أن اضمحل بعد أن انقضت فورة الدعاية
الخبثية . ومهما يكن من أمر فقد انتهت هذه الدعاية الخبيثة إلى تحقيق
ما قصد إليه إمبراطور دولة الروم الشرقية ، وحشدت دول أوربا جيوشها
من كل صوب لغزو المسلمين وبدأت الحروب التي نعرفها باسم الحروب
الصليبية وما هى من الدين فى شيء سوى أنها خدعة خدع بها الجهلة
من الشعوب والأمراء لخدمة أغراض السياسة التي رسمها إمبراطور الروم .
ولسنا نقصد هنا أن نصف هذه الحروب ولا أن نتبع سيرتها على
مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وحسبنا أن نقول هنا لأنها استمرت
تتوالى على الوطن العربى فى موجات تنحدر كل منها عنيفة مدمرة ، تحطم
ولا تكاد تنحسر حتى تعقبها موجة أخرى أشد منها عنفاً وتدميراً .
وجمعت هذه الأمواج خلاصة ما فى الشعوب المسيحية من الفرسان

والشجعان يتقدمهم رجال الدين المتحمسون ليوقدوا فيهم كراهة المسلمين .
 وإنه لما يؤسف له أن هذه العاصفة الهوجاء وإن خبت بعد مضي القرنين
 الثاني عشر والثالث عشر لم تخل من ترك أثرها في نفوس عامة الشعوب في
 أوروبا ولعل آثارها ما تزال باقية إلى اليوم في بعض الشعوب ، وكانت على
 مر السنين تظهر في مظاهر الاعتداء الذي تقوم به دول أوروبا بين حين
 وآخر على أنحاء الوطن العربي .

بدأت أمواج الحروب الصليبية بحملة كبرى كانت أشد الحملات
 حماسة وأكثرها فوضى . كان الفرسان والشجعان ورجال الدين يسرون في
 الطليعة وتسير من ورأهم أعداد هائلة من الجماهير المتحمسة الهوجاء . فقليل
 إن عدد الفرسان في الحملة الصليبية الأولى بلغ مائة ألف من ورأهم جموع
 من المحاربين نحو خمسمائة ألف . ويصفهم المؤرخ الإنجليزى جيبون بقوله :
 « إنهم كانوا يجمعون بين الحماسة الدينية وبين تحال همجى يخلو
 من كل قيد وينطوى على النهب والفجور وإدمان شرب الخمر » وكان
 يسير على رأس الجميع أكثر من ثلاثة آلاف من كبار الأشراف ومن
 الملوك وعلية القوم في شتى شعوب أوروبا .

وكانت الفرصة مواتية لهذه الجيوش الجحرة لأن الدولة العربية كانت
 في ذلك الوقت في حضيض التفرق والضعف ، بعد أن انساق أرواها مع
 سحق مطامعهم وبعد أن ساء ظن الأمة بهم وبعدت المسافة الفاصلة بينها
 وبينهم . غير أن هذه الحملة الأولى فشلت فشلا ذريعا ولاقت مصاعب

لا حصر لها في شق طريقها في وسط أوروبا حتى بلغت قسطنطينية ، ثم عبرت إلى آسيا الصغرى فلقبت هناك القضاء المقدور لها فتحطمت في أول لقاء . وكان لهذه الكارثة أثرها في مضاعفة حماسة أكابر الأمراء والفرسان للذهاب إلى حرب المسلمين ، فكانت الحملة الثانية أكبر عدداً وأمهر قيادة وأوفر عدة ، ولو أن هذه الحملة تقدمت فوقعت في القرن العاشر لما كان لها أثر يذكر في حياة الأمة العربية ، إذ كان يسيطر على الحكم فيها كبار السلاجقة الذين أسلفنا ذكرهم ، ولكنها إذ وقعت في أواخر القرن الحادي عشر ، كان لها أثرها العظيم - لا في تحطيم هذه الأمة بل في هزيمة حكامها . وكانت الحملة الصليبية الثانية امتحاناً شديداً لحيوية الأمة العربية ، لأنها كانت تجمع زهرة فرسان أوروبا من كل إقليم ومن كل شعب ، واشترك فيها أكابر الأمراء المعروفين بالبسالة والمهارة في خوض الحروب ، فلنمر الآن مرّاً سريعاً بما وقع في تلك الحملة من وقعات دامية وما حدث فيها من مأس قاسية وحسبنا أن نقول إن الأمة العربية وجدت نفسها في موقف مفاجئ أشعرها بحقيقة ما آل إليه أمرها ، وحملها على التفكير في حاضرها وفي مستقبلها . عادت الأمة العربية عند ذلك تسأل نفسها « من نحن ؟ ومن هؤلاء الحكام الذين انتهى حكمهم بنا إلى هذه الكوارث التي تهدد حياتنا ؟ »

كانت الجموع الهائلة المتحلة من كل قيد إنساني تنصب على بلادهم وتفتك بهم وتوقع بهم أشنع صنوف الإذلال وإهدار الكرامة والاعتداء على

الأنفس والأعراض والأموال . ووجد الناس أن حكاهم لا يغنون عنهم شيئاً في مواقع الحرب مع أنهم كانوا يجمعون الأموال من عرق جباههم ويعيشون عيشة بلذخ وترف في مجد أجوف ويشن بعضهم على بعض حروباً شنيعة سخيفة في سبيل منافساتهم الضئيلة . وأصببت الأمة في بدء الأمر بما يشبه الدهول من هول المفاجأة ، وخيل إليها أن حياتها معلقة على خيط دقيق من خيوط القضاء . كانت قد اعتزلت الحروب وباعدت الحكم والحكام وما هي ذى ترى أن حكاهم ينهارون ويلتمسون النجاة لأنفسهم بما استطاعوا جمعه من الكنوز المكتنزة . وترددت جماهير الأمة بين الفرع مما حل بها وبين الحق على حكاهم وعلى مصيرها . ولكنها لم تتردد طويلاً . فلم تلبث غضبتها لحريتها وأنفثها من أجل أعراضها ومن أجل شرفها ومن أجل عقيدتها وحضارتها أن هبت بها لتدافع عن نفسها . وقفت كل قرية تدافع عن حرمة أمام جموع من الفرسان يقودون جموعاً من المحاربين الممّج ووقف كل فرد يدافع عن بيته وأهله كى يخبر صريعاً أمام أعداد صاخبة حانقة ، وسفكت دماء كثيرة واركتبت جموع الصليبيين آثاماً فظيمة لا نرى محلاً لوصفها ولا ضرورة لإعادة صورتها . غير أن الأمة العربية استيقظت على آلام الجراح التي أصابها ، وبدأت تسترجع جاشها وتسترد وعيها الذى أذهلته الصدمة المفاجئة . فلما بلغت جموع المهاجمين بيت المقدس كانت الصدمة المفاجئة قد فقدت شدتها وزال عن الأمة عارض الدهول الذى اعتراها فوقف أهل المدينة يدافعون عن أنفسهم دفاع

المستमित الذى لم يسبق له عهد بالحروب منذ حين . ولكن الجموع الضخمة تغلبت على المقاومة الباسلة وانطلقت موجة الفتك فى المدينة لمدة ثلاثة أيام ، فلنغمض أعيننا عما حدث إذ كانت فظاعته مما تبشع به الأبصار وتقطع له الأسماع . ولكن هذه الصدمة كانت أول الانتفاض فهبت الأمة العربية للدفاع عن نفسها لأنها أيقنت أن المنتهى لا يكون إلا إليها ، وأن الدفاع عن حياتها وأعراضها وحرياتها منوط آخر الأمر بها نفسها . فانبثرت الجماهير ثائرة إلى الحرب مثل أمواج زاحرة لتصد الأمواج الزاحرة التى هاجمتها . وانقضى القرن الثانى عشر فى محاولات الأمة العربية لطرد أعدائها عن بلادها ، وكان يتزعم حركتها ساسلة من كبار القادة الذين بدأت الحوادث تكشف للأمة عن بطولتهم وتظهر لها جدارتهم بثقتها والاطمئنان إلى قيادتهم لها .

فى الربع الأول من القرن الثانى عشر ظهر البطل عماد الدين زنكى الشهير وفى منتصف القرن نفسه تصدى للقيادة ابنه الكبير نور الدين محمود وفى أواخر القرن نفسه ظهر البطل العظيم صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى أعاد الوحدة بين أقاليم سوريا واليمن ومصر والجزيرة العراقية ووجه قوته الموحدة إلى الجهاد ضد الأعداء — وكان نصره حاسما فى وقعة حطين . وعلى توالى المصادمة بين الأمة العربية والأمواج الصاخبة التى توالى لتعزيز الصليبيين من كل أقطار أوروبا بدأت قوة العدو تتضاءل وأخذت العاصفة التى أثارها تخبو ويضمحل عنفها شيئا بعد شيء وانجلت

الحوادث الدامية آخر الأمر عن اقتلاع الدول التي بناها الصليبيون على الرمال ، وعاد الهدوء يخيم مرة أخرى على الوطن العربي الذي خرج من المحنة منتصراً في الحرب محافظاً على كرامته وإنسانيته ومبادئه السامية ، ولم تحمل قسوة القتال أمة العرب على تغيير منهجها المأثور في تقاليدھا من التزام الحادود الإنسانية حتى عند احتدام العداء واشتداد المصادمات الدموية .

ولسنا في حاجة إلى إعادة تسجيل ما كان للعرب وقادتهم العظام من مواقف نبيلة عند انتصارهم في حرب الأعداء ، وهي المواقف التي تناقض ما أظهره الصليبيون من القسوة والوحشية والإسفاف في الأخلاق ، وحسبنا أن نقتبس كلمة قصيرة مما قاله المؤرخ جيون في عظمة صلاح الدين .

فبعد أن وصف ذلك المؤرخ ما أظهره صلاح الدين من الكرم والنبل والسماحة في معاملة الصليبيين عقب انتصاره عليهم واستعادة بيت المقدس منهم قال :

« ففي هذه الأعمال الصادرة عن الرحمة والسماحة تتبين فضائل صلاح الدين الذي يستحق إعجابنا وحبنا . ولقد كان أقوى من أن تضطره الظروف إلى التظاهر بغير حقيقته ، بل إن حماسه الدينية الشديدة كانت جديدة بأن تدفعه إلى التظاهر بغير تلك الرحمة التي بدت منه حيال أعدائه وأعداء دينه .

وقد استمرت محاولات الصليبيين لإعادة الكرة على الأمة العربية مدة قرن آخر أو تزيد ، غير أن الهزائم التي أصابت الأعداء في أثناء القرن الثاني عشر كانت حاسمة في مصيرهم ، وكان طردهم الأخير من الوطن العربي وبأسهم من معاودة الكره عليه أمراً محتوماً وإن تطاولت به مدة الزمن .

وفي الوقت الذي كانت موجات الحروب الصليبية تتوالى على الشرق

العربي منذ أواخر القرن الحادى عشر كانت موجات أخرى تتوالى على المغرب العربي فى بلاد الأندلس . وكان ملوك الطوائف الذين قسموا البلاد بينهم أضعف من أن يواجهوا هذه الموجات الشديدة بأنفسهم أفراداً ، ولم يستطيعوا أن يوحّدوا صفوفهم تجاه الأعداء ، إذ كانت المنافسة التى بينهم أشد من أن يزيلها الخطر المشترك عليهم جميعاً . غير أن جيرانهم فى شمال أفريقيا هدوا لمساعدتهم وكان لدولة المرابطين المغربية الفضل فى صد هؤلاء الأعداء عن الأندلس نحو ستين عاماً ثم جاءت بعدهم دولة الموحدين المغربية أيضاً لمواجهة هؤلاء الأعداء واستطاعت أن تصدهم عن الأندلس نحو ستين عاماً أخرى .

ولكن الموجات توالى على الأندلس من الشمال ولم يستطع أمراؤها أن يحتفظوا بوحدة كلمتهم طويلاً فعاد الشقاق بينهم وأدى إلى هزيمتهم فى موقعة بعلبونة حتى حصرت دولة العرب فى القرن الثالث عشر فى رقعة صغيرة وهى مملكة غرناطة التى حكمها أسرة بنى نصر لمدة مائتين وخمسين عاماً أخرى . فإذا كانت الأمة العربية قد خرجت من نضالها فى الشرق منتصرة وهى أقوى عدواً ، فإنها فقدت أحد أطرافها فى المغرب عندما تمكن الملكان الأسبانيان فردناند وإليزابلا جمع قوتيهما والقضاء على ملك غرناطة وهو البقية الباقية من دولة العرب فى الأندلس — وكان ذلك فى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد .

ولم تكد الأمة العربية تخرج من محنتها فى الشرق بذلك النصر الباهر حتى فاجأتها صدمة من موجة عنيفة أخرى انحدرت إليها من أواسط آسيا

وهي غارة التتار التي زادت في قسوتها وفتكها وتدميرها على حملات الصليبيين . فخرّب التتار وطن العرب في أقصى الشرق تدميراً يكاد يكون تاماً وخرّبوا المدن الكبرى التي كانت لعدة قرون مراكز مزدهرة للحضارة العربية ، وأقبلوا على بغداد فخرّبوها وجعلوا آثار حضارتها العظمى أثراً بعد عين ، ثم انحدروا إلى قلب الأمة العربية في الشام يريدون القضاء عليها . فكانت محنة هذه الأمة أشد مما أصابها من قبل لأنها كانت تهددها بنكسة أشد عليها من إصابة الجراح السابقة . ولكن الأمة التي خرجت ظافرة من الحروب الصليبية استطاعت أن تصد تلك الموجة المدمرة . وكان انتصارها في (عين جالوت) متمماً لانتصاراتها السابقة في حرب الصليبيين . وارتدت الموجة العنيفة حسيمة نحو الشرق فاضمحلت وهدأ عنفها . على أنها خلفت آثار تدميرها في الأطراف الشرقية القصوى من الوطن العربي ، كى يقيم عليها التتار دولة إسلامية جديدة بعد دخولهم في الإسلام .

فلذا كانت القرون الثلاثة من أول القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر قد شهدت جهاد الأمة العربية ضد الأمواج الضخمة التي انحدرت إليها من أعدائها ، وشهدت خروجها من ذلك الجهاد وهي سليمة البنية ، فقد شهدت كذلك اقتطاع طرفين من أطرافها ، في الغرب فقدت الأندلس فقدت كاملاً ، وأما في الشرق فقد تحول جانب من الوطن العربي إلى عدة أوطان إسلامية تمثلها اليوم شعوب عزيزة على الأمة العربية وهي شعوب الباكستان والأفغانستان وإيران وهي شعوب إسلامية شقيقة تربطها بالأمة العربية روابط التاريخ والثقافة والمشاعر ووحدة الآمال .

بناء الحضارة العربية

شخصيتها ورسالتها

• منذ اتسعت حدود الدولة العربية واشتملت على الشعوب التي حررتها من الحكم الفارسي الروماني ثم امتدت إلى ما وراء ذلك فاشتملت على كثير من شعوب آسيا وأوروبا ، سارعت هذه الشعوب إلى الاندماج بالعرب كما سبق ذكره ، وسارع العرب إلى الاندماج بهم وبدأت بينهم حركة بناء حضارى اشتركت فيها عناصر الأمة العربية الجديدة جميعا . وكانت الدولة العربية تظلمهم برعايتها وتستفيد من نشاطهم بغير نظر إلى أنسابهم أو إلى أصول أجناسهم . فكان العلماء والباحثون على اختلاف ميادين بحثهم النظرى وكان الفنانون والأدباء على اختلاف ميادين فنونهم يشركون معاً فى الخلق والإنشاء والابتكار بغير أن يكون لاختلافهم فى الأصل أو الدين أثر فى معاملة الدولة لهم ولا فى ولائهم للمجتمع العربى الذى صاروا جميعاً يتشاركون فيه . وقد كان هذا النشاط فى أول الأمر محدوداً لتوزيع جهود كثير من المفكرين بين البحث النظرى وبين المشاركة فى الحركات الثورية العملية ، فلما هدأت هذه الحركات الثورية زاد النشاط فى البناء الحضارى زيادة كبرى .

والأهم عندما تبدأ فى التحرك تشبه الإنسان الفرد إذا كان غائبا عن

الوعى لسبب من الأسباب ثم يتنبه إلى ما حوله . فهو يبدأ بالتطلع والتساؤل ثم يزيد نشاطه شيئاً فشيئاً حتى يستم وعيه فينطلق إلى كل وجهة . غير أن كل أمة تطبع حضارتها الخاصة بطابع الروح الذى يحركها أو بقول آخر إن كل أمة من الأمم التى خلفت للإنسانية تراثاً حضارياً كانت تمتاز بشخصية خاصة تميز حضارتها . وهذه الشخصية التى تميز حضارة كل أمة ترجع إلى الدوافع الداخلية التى تحرك مشاعرها وتكون بالنسبة إليها بمثابة سر الحياة الذى يكمن فى النواة . ولإيضاح المعنى الذى نقصده نضرب بعض أمثلة لتلك الدوافع الداخلية التى كانت تحرك بعض الأمم ذات الحضارة الكبرى وتطبع حضارتها بطابعها المميز ، ومنها نتبين أنها ترجع جميعاً إلى عقائد الأمة الأساسية التى يمكن أن نسميها رسالتها إلى الإنسانية .

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما تجلى فى الحضارة المصرية القديمة وحضارة اليونان وحضارات الشرق القديم . كانت كل من هذه الأمم فى مبدأ تحركها تعتمد على التراث القديم الذى خلفته الأمم التى قبلها ثم تأخذ بعد ذلك بالإضافة عليها من عندها ومن وحى عبقريتها الخاصة الماثلة فى عقيدتها ، وهذه الإضافات هى التى طبعت حضارتها بطابعها المميز . فحضارة المصريين القدماء تتميز بطابع عقيدتها فى خلود الروح والإيمان بحياة أخرى بعد الموت ، فيها جزاء النعيم للأخيار وجزاء العذاب والحرى للأشرار . كانت فضائل الفرد عندهم فى الحياة الدنيا تؤهله للسعادة

الأخروية ، وكانت قاعدة السلوك الأولى هي النظر إلى ما يؤدي إلى الخلود في دار النعيم . وكان الملك عندهم هو الإله على الأرض أو هو ممثله في هذه الحياة ، فالقوانين الصادرة عنه مقدسة ومخالفتها تستوجب الحرمان من النعيم . وقد أثرت هذه العقيدة تأثيراً واضحاً في مظاهر الحضارة المصرية جميعاً سواء في مظاهر الحضارة المادية والعمرائية أو في مظاهرها الاجتماعية ، فكانت بمثابة السر الخفي أو الروح الذي يسرى في كل ما أضافوه إلى الحضارة الإنسانية من إضافات في العلم أو الفلسفة أو الإبداع في الإنتاج الفني . وكانت حضارة العراق القديمة تتميز بأنها واقعية جذورها في الأرض وليس للروح فيها نصيب واضح . كانت حضارة قائمة على تبادل المنافع في داخل البلاد ومع الأمم الأخرى ، وكان اقتناص الفائدة أو المتعة هو القصد من الحياة التي لا حياة بعدها في الآخرة . والملك عند هذه الحضارة هم رمز القوة الجبارة التي تمكن الناس من تحقيق المنافع لأنهم هم الذين يحفظون الأمن بقوتهم ويكفلون سلامة سبل المواصلات في الداخل والخارج . وقد أثرت هذه العقائد في حضارتهم فكانت واقعية في تفكيرها واتجاهاتها ، فأبدعت في ميادين التشريع والرياضة والفلك وسائر ما يخدم الناس في حياتهم الواقعية . وكانت حضارة اليونان شبيهة بحضارة العراق من ناحيتها الواقعية ولكنها تمتاز بشخصية أخرى واضحة الملامح . كانت الآلهة عندهم زعماء للبشر ولم خصائص البشر من تقلب الأهواء والغضب والكيد والتنافس . ولم درجات كالبشر بعضها فوق بعض والأرض هي

مجالهم مع الإنسان ، والحياة الفانية هي حظ الناس من الوجود ، وأما الحياة الأخرى فهي الحياة التحتانية الغامضة التي يسودها النسيان. فالحياة الدنيوية عند اليونان هي مجال القوة والجمال وفرصة الحب والسعادة . والآلهة تشاطر الناس مباحج الأعياد وتطلق لنفسها العنان مع الناس ليصيبوا ما يبتها لهم من المتعة ولإظهار القوة . فلم يكن في عقائدهم ما يحجر على الناس أو يقيد حرياتهم . وكان لهذا كله أثر واضح في حضارة اليونان المادية كما كان له أثر في فنونهم ومذاهبهم الفلسفية .

أما حضارات الشرق الأقصى من هندية وصينية فكانت تتميز بعقيدة أن الإنسان ينطوى على عنصرين في حياته وهما : عنصر الجسد وعنصر الروح ولا يمكن أن ترقى الروح إلا إذا تجردت من قيود البدن والحواس والميول . فلذا استطاع الإنسان أن يتحكم في جسده فيخمد حواسه ويكبت ميوله إلى أن يقضى عليها أمكن لروحه أن تصل إلى عالم السعادة الأبدى وهو عالم فناء روح الفرد في الروح العالمى الشامل . وأما لما لم يتمكن الإنسان من ذلك فلأن روحه لن تستطيع الرقى إلى مرتبة الاتصال بروح الوجود الشامل . وقد كان لهذه العقيدة أثر واضح في كل مظاهر الحضارات في الشرق الأقصى سواء منها المظاهر العمرانية والفنية والفكرية . فلننظر إلى الحضارة العربية لنرى ماذا كان منبع القوة الدافعة التي طبعت حضارتها وميزتها ، كما نثبين الملامح العامة التي تميز شخصيتها . لقد خرج العرب من جزيرتهم يحملون رسالة ، ولولا إيمانهم بهذه الرسالة

ورسوخ عقيدتها في نفوسهم لما استطاعوا أن يكونوا أمهم الكبرى ،
 ولا أسسوا تلك الحضارة العظيمة التي كانت من أنفس الإضافات إلى
 الحضارة الإنسانية . هذه الرسالة هي الإسلام الذي اشتمل على كل
 الفضائل التي تميز بها العرب في قديمهم بعد أن صفاها وهذبها كما اشتمل
 على مجموعة فذة من الفضائل الإنسانية والمثل العليا التي لم يسبق للعرب
 ولا للأمم الأخرى أن آمنوا بها . فرسالة الإسلام تشتمل على سجل ضخم
 من مكارم الأخلاق ومن مبادئ الإخاء بين البشر والعدل والإحسان
 والاعتدال ، وهي تدعو إلى فتح الأعين إلى تأمل الكون ، وفتح العقول
 إلى البحث عما ينطوي عليه الكون من أسرار تدل على وحدانية الله وعظمته .
 فالرسالة العربية تنكر العبودية في كل صورها وتؤمن بالمساواة المطلقة بين
 البشر وتنكر الاعتداء والكبرياء والبغي والاستغلال والعبث باليهود . وهي
 تؤمن بأن الحياة الدنيا زائلة وأن قيمتها تتمثل فيما يحقق فيه الأفراد
 والجماعات من الفضائل الإنسانية وفيما يقومون به من المحافظة على حريتهم
 وإنسانيتهم . فإذا تعرضت هذه الفضائل للخطر كانت الحياة فداء لها ،
 وكان جزاء الإنسان على تضحيته بالحياة الدنيا حياة أخرى فيها السعادة
 الصافية والنعيم المرمدي .

من أجل هذا خرج العرب من جزيرتهم برسالة إلى الأمم جميعا
 تتمثل في دستور شامل مقدس يكفل تسامى الأفراد في حياتهم الخاصة ،
 ويكفل لهم حقوقهم ونشر العدالة بينهم . ومع كل ما احتوى عليه هذا

الدستور من الخض على التسامى بالحياة ، لم يحرم على البشر أن يتألوا من طبيبات الحياة ما لا يهبط بحياتهم إلى عبادة الجسد وحصر اهتمامهم في نعيم الحياة الدنيا .

فرسالة الإسلام وسط عادل بين أرضية فلسفة اليونان المحضة وبين احتقار فلسفة الصين والهند للجسد وقتلهم لميوله وغرائزه ، وحرمانه من التمتع بالطيبات . فلروح في هذه الرسالة مكان القيادة وللأبدان نصيبها الذى يحفظ عليها القدرة على مواجهة أعباء الحياة . وهذا الدستور لا يفرق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة كما لا يفرق بين المبادئ الأخلاقية التى يسير عليها الأفراد والمبادئ الأخلاقية التى يسير عليها المجتمع . فالنظام الذى وضعه الإسلام للتسامى بحياة الأفراد هو النظام الذى وضعه للجماعة للتسامى بحياتها وهو النظام الذى حدد للدول سبيلها فى معاملاتها مع الدول الأخرى . لا يسمح الإسلام بالاعتداء ولكنه لا يسمح بالسلبية فى مواجهة الاعتداء . والإطار العام الذى يحدد المجتمع العربى هو هذا الجو المتوقر الفاضل الذى يقوم على الإيمان بالله الواحد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من جهة سلوك الأفراد والجماعة ويقوم على مواجهة الحقائق بالتفكير الفطرى السليم الذى لا تحدده الأوهام ، ولا تزيفه الميول والغرائز البدائية . وقد اتجهت دعوة الإسلام إلى الأفراد فاعتبرت كل فرد مكلفا باتباع قواعد الدين والحفاظة عليها ، وحضته على التمسك بحريته حتى لا يفنى فى غيره من البشر ، كما أمرته

بالحرص على مصلحة المجتمع وجعلت المصلحة العامة جانباً متمماً لمصلحة الفرد . ومن أهم ما يدعو إليه الإسلام أن مكارم الأخلاق لا تتجزأ ولا تتحدد بشرط ولا ينبغي لأحد أن يضحي بها من أجل تحقيق غاية ، فالشر في نظرها لا يمكن أن يكون وسيلة إلى خير ولا يمكن أن تبرر الغاية الوسيلة مهما عظم قدر تلك الغاية . فهذه الرسالة التي حملها العرب معهم عندما خرجوا من جزييرتهم ، بل إن هذه الرسالة التي دفعتهم إلى الخروج من جزييرتهم لدعوة الإنسانية جميعاً إليها هي التي طبعت حضارة العرب في كل مظاهرها وهي التي ميزت تراثها الضخم بين المواريث الحضارية . فلم يكن العرب كما زعم بعض الباحثين السطحيين حملة لحضارة اليونان ولا نقلة لأية حضارة أخرى أوصلوها من عالمها القديم إلى العالم الحديث ، فلأنهم أبدعوا حضارة فذة مبتكرة وأقاموها على قواعد رسالتهم الإنسانية وخلفوها تراثاً للإنسانية كأرقى ما خلفته أمة من الأمم قديماً وحديثاً .

لمحة من آثار الحضارة العربية

١ - الفلسفة

بينما فيما سلف كيف تكونت الأمة العربية بمعناها الشامل الذى ما يزال باقياً إلى اليوم وكيف كان تكوينها من أصول مختلفة اندمجت معاً على مدى قرنين فصارت تتسم بطابع واحد ، فلها لغة واحدة وثقافة واحدة وتجمعها وحدة المشاعر ووحدة أسلوب الحياة ، وتتخذ لنفسها مقاييس واحدة للتمييز بين الخير والشر والمعروف والمنكر والحسن والقبيح. ولأنه من سميات هذه الأمة أنها لا تعترف بحدود تفصل بين الأوطان ولا بفروق تفرق بين المواطنين ، فكان أحدهم ينتقل فى أرجاء الوطن الواحد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فى بقاع متباعدة وهو يشعر بأنه ينتقل بين أهله وقومه . ولم يتغير هذا الشعور العميق عندما استقل بعض حكام الدولة ببعض أقاليمها فى القرن التاسع وما بعده .

وأقبلت هذه الأمة على بناء حضارتها بحماسة متقطعة النظير ، فشارك أبناؤها جميعاً فى البناء بغير نظر إلى أصولهم الأولى وبغير تمييز بين أجناسهم وألوانهم وأديانهم ، فأقاموا صرحه معاً متكافلين جيلاً بعد جيل فى كل ميدان من ميادين العمران والفنون والآداب والعلوم على اختلاف مجالاتها . وما يسترعى النظر فى تاريخ الحضارة العربية أن انقراط عقد الدولة

الذى بدأ فى القرن التاسع للميلاد لم يقلل من نشاط البناء الحضارى فى الأمة بمجموعها ، بل لعله زاد الإبداع تعمقا واتساعا ، فبعد أن كان مركز النشاط فى دمشق فى عهد الأمويين ثم أضيفت بغداد فى عهد العباسيين الأوائل ، نشأت مراكز جديدة فى قرطبة بالأندلس وفى القاهرة بمصر وفى فاس ببلاد المغرب ، وكان كل منها يضيف إلى التراث الحضارى العربى العام ويستمد منه ويتنفع بثمار النشاط فى المراكز الأخرى .

وسنعرض فيما يلى بعض آثار هذا الإبداع العظيم بغير أن نميز المراكز التى كان لها الفضل فيه ، لأنه كان من إبداع أمة لم تعترف بما أقيم فيها من حدود الأقاليم . كان أول ما جال فيه العرب من الماديين ميدان التفكير فى رسالتهم التى كانت أساس نهضتهم . وقد أشرنا من قبل إلى محاولات الأجيال الأولى فى إنشاء المذاهب التى بنوا عليها محاولاتهم فى تنظيم الحكم فكانت الفرق التى أنشأت هذه المذاهب هى النويات الأولى التى نمت منها الحياة العقلية ، ومن أمثلتها فرق المعتزلة والأشعرية وأصحاب مذاهب القدرية والمرجئة والخيرية . وكانت أبحاثها الأولى تدور حول الإنسان وهل هو حر الإرادة أم مقيد بقدر محتوم لا بد من حدوثه وما هو السلوك الذى يحقق الخير ويتسق مع مبادئ الإسلام .

واتجه المفكرون العرب أول ما اتجهوا إلى الإحاطة بما تدعو إليه الرسالة الإسلامية ، فكان لا بد لهم من فهم القرآن وتفسير آياته والحرص على إدراك ما تنطوى عليه هذه الآيات من المعانى . وقد أدى ذلك إلى

تفرع بحوثهم وتشعب تخصصهم فاتجه بعضهم إلى البحث في اللغة العربية لمعرفة أصولها وقواعدها حتى لا يختلف الناس فيما تدل عليه ألفاظها وعباراتها واتجه البعض إلى تفسير آيات القرآن ولإيضاح ما فيها من إشارات موجزة وتفصيل ما جاءت به من أصول عامة واتجه آخرون إلى جمع أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وتلويها وجمع أخباره وسيرة حياته واستنباط المبادئ العامة التي يمكن أن تستخلص من هذه الأحاديث إذ هي المورد الثاني لمبادئ الإسلام بعد آيات القرآن الكريم .

وهذه البحوث جميعا تتصل بالأصول التي يستند عليها التفكير الإسلامي ، فهي تمهيد لكل تفكير عقلى يقصد به الاهتمام إلى حقائق الدعوة الإسلامية نفسها . فكان من الطبيعي أن يصاحب هذه الحركة اتجاه آخر يقصد إلى الاستدلال على وحدانية الله تعالى وهو الأس الأول للإسلام . فدراسة الكون وما فيه ودراسة العلوم الطبيعية على اختلافها والبحث في الفلسفة وما وراء الطبيعة لم تنشأ جميعا إلا لخدمة الرسالة الإسلامية التي آمن بها العرب وأخلوا على أنفسهم أن يلتزموا حدودها في حياتهم الخاصة والعامة ، وأوجبوا على أنفسهم نشرها في العالم والدعاية لها . وإلى جانب هذه البحوث التي كانت تنبعث من رسالة الإسلام نشأت دراسات علمية بحتة دعت إليها الحياة نفسها ودفع إليها النشاط الفكري الذي أخذ يستقل بنفسه ، فمن ذلك ما قام به الأمير خالد بن يزيد بن معاوية من النظر في الفلسفة والاشتغال بالكيمياء والطب وما قام به العرب النصارى (١٤)

بالشام مثل الطبيب ابن أثال الذى كان فى بلاط معاوية بن أبى سفيان ، وهناك بعض أسماء نعرفها من الباحثين فى العلم الطبيعى البحث فى أول عهد العرب بالحضارة وإن كانت آثارهم قد اندثرت فلم تبق منها بقية . ومن هؤلاء يحيى النحوى الذى وفد على عمرو بن العاص فوجد منه لإكراماً عظيماً ، ومنهم عبد الملك بن أبجر المصرى الذى أسلم على يد عمر بن عبد العزيز وهو أمير قبل أن يتولى الخلافة . وقد جمع ابن أبجر بين الاشتغال بالطب وبين التأليف فى العلوم الطبيعية .

ولكن الحركة الفكرية والعلمية لم تزدهر إلا فى عهد الدولة العباسية وكان من الطبيعى أن يلجأ العرب إلى ما خلفه المفكرون والعلماء من قبلهم وأقربهم إلى العرب هم اليونان . فقد كانت فلسفة اليونان وعلومهم باقية فى حياة الشعوب التى اندمجت فى الأمة العربية . وكان تفكير اليونان قريباً إلى تفكير العرب الذين لم يكن لهم ولع بالفلسفة المجردة بل كان أحب تفكير إليهم ما اتصل بالحياة ومسائلها فكانت آثار الفكر والعلم اليونانية أقرب إلى العرب داراً وأقرب إلى عقولهم اتصالاً . وكان كثير من كتب اليونان فى الفلسفة والعلوم قد ترجمت إلى اللغة السريانية عقب غزو الإسكندر للشرق . وكان أهم مراكز الثقافة اليونانية فى مدينتى جنديسابور وحران ، ثم هاجر جماعة من أتباع المذهب النسطورى فى القرن السادس للميلاد حين طردوا من القسطنطينية لاتهمهم بالكفر والخروج على المسيحية الرسمية فحلوا فى العراق وأرمينية ، فأصبحت مدينة حران

(بغرب أذاسا) موطناً للدراسات العلمية اليونانية . وكان بعض العلماء هناك يونانياً وبعضهم سورياً ، فترجموا علوم اليونان إلى اللغة السريانية التي كانت وسيلة التعليم في تلك البلاد . وقد اتصل العرب قبل الإسلام بالدراسة في جنديسابور . ولكن (أذاسا) كانت أعظم مراكز الدراسة في العصر الإسلامي ، فلما قويت الحركة العلمية في زمن المهدي والرشد وبلغت ذروة حماسها في زمن الخليفة المأمون وجد العرب حياتهم في تلك المدينة ذخيرة كبيرة يمكنهم أن يستمدوا منها ما يعينهم على البحث ويشبع رغبتهم في العلم . وقد أنشأ المأمون للعلماء في بغداد داراً يعكفون فيها على دراساتهم وترجمتهم لآثار العلوم والفلسفة وهي (دار الحكمة) في بغداد واشترك في حلقة دار الحكمة جمع عظيم من العرب سواء منهم من انحدروا من أصول عربية خالصة ومن اندمجوا فيهم من الأجناس الأخرى ، فكان فيهم اليهودى والمسيحي والمسلم يعملون جنباً إلى جنب ، وحسبنا أن نذكر هنا أسماء بعضهم مثل ابن ماسوية وقسطا بن لوقا البعلبكي وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي وحنين بن إسحاق وابنه إسحاق بن حنين وصالح بن بهلة وعبدوس بن زيد وموسى بن إسرائيل الكوفي وأبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي وكثير غيرهم . ولم تلبث الكتب التي قام هؤلاء العلماء بترجمتها أن نسخت وأرسلت نسخ منها إلى الأندلس ثم إلى صقلية حيث نزل العرب منذ القرن التاسع للميلاد . وقد أظهر العرب في ترجمتهم وفي دراساتهم اهتماماً عظيماً ببعض

الاتجاهات الفكرية والعلمية اليونانية خاصة ، فنال منهم أرسطو أكبر العناية وعدّوه المعلم الأول ولكنهم كانوا كثيرا ما يجمعون في تقديرهم ودراسهم بين أرسطو وأفلاطون ، كما عنا عناية كبرى بفلاسفة الأفلاطونية الحديثة مثل أفلاطون .

وكان من أول من نبغ من فلاسفة العرب أبو يعقوب بن إسحق الكندي (في القرن التاسع للميلاد) وهو من أصل عربي محض . وقد كتب الكندي في علم الطب والفلك والرياضة وكان يترجم من اللغة اليونانية التي كان يحلقها . وكان مما يسترعى الاهتمام ابتكاره وإبداعه في علمي المنطق وما يمكن أن نسميه اليوم بعلم النفس .

وقد نبغ في النصف الأول من القرن العاشر أحد من تفاخر بهم الأمة العربية من الفلاسفة وهو أبو نصر الفارابي ، الذي كان بمثابة الأستاذ الأكبر لتوماس الأكويني أعظم الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى ، إذ كان يستمد من فلسفته وينقل عنه في كتبه بل كان يقتبس من عباراته بنصوصها .

والعرب يطلقون على الفارابي لقب المعلم الثاني بعد المعلم الأول وهو أرسطو . وكان فارسي الأصل أو بقول أدق كان فارسياً تركي الأصل ولكنه كتب بالعربية وعلم بها وجال بها في ميادين شتى فألف في الطب والطبيعة وعلم النفس والفلسفة الإسلامية والمنطق وذلك فوق مؤلفاته في الفلسفة عامة . وكان من مبتكرات الفارابي في المنطق أنه توصل إلى شرح طريقة الوصول

إلى استنباط القوانين العامة باستقراء الحقائق المفردة بعد الوثوق بصحتها ، وكان من مبتكراته في علم النفس أن الإنسان يكون صورته العامة عن طريق مدركاته الحسية للأشياء المفردة .

وكان أبو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا أكبر علم بعد الفارابي . وقد نبغ في النصف الأول من القرن الحادى عشر للميلاد ، وهو بغیر شك من أكبر عباقرة العالم على مر الدهر . وهو فارسى المولد والأصل ولكنه كان من أكبر بناء الحضارة الفكرية في الأمة العربية وكان في ذكائه وسعة علمه وتنوع مجالات فكره ينبوعاً غزيراً لم يقف فيه عند حدود أمته ولا عند حدود عصره بل امتد أثره إلى الأمم الأخرى . وكان لعلمه ذلك أكبر الفضل على حضارات أوربا جميعاً ، وبقي نبعه فياضاً إلى عدة قرون بعد موته ، وما يزال إلى اليوم مثار الإعجاب في العالم تقترن صورته بصور الخالدين من عظماء المفكرين والعلماء أمثال أفلاطون وأرسطو . ويقال عنه إنه كان من نوادر الأفلذاذ منذ صغره ؛ ففي سن الصبا ألم بفلسفة أرسطو وبهندسة أفقليدس وكتب بطليموس وبمؤلفات كثير من فلاسفة الأفلاطونية الحديثة ثم عكف على دراسة الطب حتى استطاع أن يمارس العلاج وصار الأمراء يدعونه للاستفادة بطيه وعلمه ، وكان حيث حل في الوطن العربي يعتبر أستاذاً ينشر العلم على حلقات واسعة من طلابه وألف عدداً كبيراً من الكتب في العلوم المختلفة من طب وفلسفة ورياضة وطبيعة واشتملت دراسته لكل علم على فروع شتى ، ففي الطبيعة مثلاً عرض

للضوء والصوت وفي الطب عرض لدراسة الأقرباذين والصيدلة . وإذا كان ابن سينا قد تتلمذ على من قبله من الفلاسفة والعلماء سواء منهم اليونان والعرب فإنه خلف من ورائه ثروة علمية وفكرية تتلمذ عليها عالم بأسره لعدة قرون . وابن سينا مثال واضح لاتجاه الفلاسفة العرب ، فإنه مع اشتغاله بالعلوم البحتة ومع بحوثه الأصيلة في الفلسفة كان لا ينسى غايته الأولى وهي تأدية الواجب الذي حض عليه الإسلام وهو النظر في أسرار الوجود للاستدلال على وحدانية الله وعظمته . وكانت لإضافاته إلى علم المنطق وعلم النفس مما يجعله الرائد الأصلى للعلم الحديث ، فلا نكاد نجد بحثا حديثا فيهما إلا كان هو الرائد الأول فيه ، سواء اعترف العلماء المحدثون بدينهم له أو لم يعترفوا به . ولا مراة في أن كثيرا من فلاسفة اليهود ومن بينهم موسى بن ميمون كانوا لا يزيدون على التلمذة عليه ونقل فلسفته ومؤلفاته إلى شعوب أوروبا ، لتستمد منها المعرفة في فجر نهضتها .

وكان القرن الحادى عشر من أخصب العصور بالعلم والفلسفة فقد نبغ فيه فيلسوف إسلامى عظيم آخر وهو أبو حامد بن محمد الطوسى الغزالى الذى يقرن اسمه باسم معهد من أجل المعاهد العلمية الإسلامية وهو المعروف بالمدرسة النظامية التى أنشأها الوزير العظيم نظام الملك وزير الأمير التركى السلجوقى ألب أرسلان الذى كان يتصرف في شئون الخلافة العباسية بعد انحطاط شأن خلفائها واعتمادهم على الجنود الأتراك المرتزقة . وكان ألب أرسلان من أعظم الحكام الترك المستعربين وأخلصهم

للإسلام ومن أكثرهم رعاية للعلوم والآداب ، وإليه يرجع الفضل في تعضيد وزيره نظام الملك الذى كان من أكبر أنصار نشر العلوم والمعارف . وقد تقلب أبو حامد الغزالي بين البحث الفلسفى الذى يعتمد على تأمل العقل وحده وبين أسلوب التصوف الذى يعتمد على استلهاهم الفطرة أو القلب . واستطاع الغزالي أن يظهر التصوف ويسمو به إلى مرتبة سامية بأن اتخذه وسيلة إلى لمح المعرفة وإدراك الحقيقة من خلال ومضات الإلهام كما أنه استطاع أن يلين من جمود العقل وأن يوسع آفاقه باستلهاهم الفطرة . فكان ينكر على الفلاسفة اعتمادهم على العقل وحده حين يريدون التفكير فى الحقائق الأزلية ويرى أن سبيل الاهتداء إليها لا بد فيه من اقتران نور العقل وصفاء النفس .

وقد ترجمت كتب الغزالي إلى اللغة اللاتينية منذ القرن الثانى عشر الذى توفى فى أوائله . فكانت كتبه من المنايع الكبرى التى استمد منها الدارسون فى أوروبا فى عصر النهضة ولا سيما فى البحوث الأخلاقية . وقد أنجبت القرون التالية بعد القرن الحادى عشر طائفة من كبار الفلاسفة العرب ولكن أكثرهم نبغ فى الأندلس التى كانت تعاون بكل ما فيها من عبقرية فى بناء الحضارة العربية . وقد سبق نبوغ بعض المفكرين بالأندلس قبل القرن الثانى عشر مثل ابن حزم الذى كان له الفضل فى تأليف أول كتاب فى تاريخ اللغات جميعا فى الدين المقارن . ولكن القرن الثانى عشر حفل بعدد من كبار المفكرين كان أولهم ابن باجة أبو بكر محمد

ابن يحيى وكان لكتبه أثر كبير في نهضة أوربا وله مؤلفات غير الفلسفة في الرياضة والكيمياء .

وابن طفيل أبو بكر ما يزال حياً في كتابه (حى بن يقظان) الذى تناول موضوع تطور التفكير الفلسفى فى أسلوب قصصى بارع يمكن أن يعد مثالا للمؤلفات الأوربية التى تصف التفاعل بين تفكير الإنسان والطبيعة المحيطة به ككتاب روينسون كروزو للكاتب الإنجليزى (دانيال ديفو) . وكان أكبر فلاسفة الأندلس وأوسعهم أثراً فى نهضة أوربا وأشهرهم بين شعوبها هو ابن رشد القرطبي المولد وامتاز بدراساته الواسعة لكتب أرسطو وبجماسته العظيمة لها حتى إنه ألف كتاب (تهافت التهافت) ردّاً على كتاب أبى حامد الغزالي (تهافت الفلاسفة) الذى هاجم فيه فلسفة أرسطو وأتباعها . وكان لابن رشد الفضل فى فصل طريقة البحث العلمى عن طريقة بحث الإلهيات وما وراء الطبيعة فهو رائد للتجرد من كل قيد فى البحث العلمى والاعتماد على الحقائق والملاحظة لاستخلاص قوانين الطبيعة . ولكن ابن رشد مع تفريقه بين طريقة بحث العلوم وطريقة بحث العقائد الدينية كان مسلماً مخلصاً فى عقيدته الدينية .

هذه لمحة موجزة من جهاد فلاسفة العرب فى البحث العلمى والفلسفى ومنها نستطيع أن ندرك فضلهم الكبير على الحضارة الإنسانية ، فهو فضل مزدوج ، لأنهم أحياوا فلسفة اليونان وعلومهم وأخرجوها من الظلام الذى ظلت تعيش فيه قروناً طويلة ، ثم لم يقفوا عند حد إعادتها إلى النور بل

انخذوها مادة يفكرون فيها بالإضافة إلى تفكيرهم الخاص كما هو طبعى لكل من يتصدى لدراسة علم من العلوم ، ولكن دراستهم الخاصة كانت إبداعا جديدا وابتكارا وإنشاء . فلما تلقف العلماء الأوروبيون مؤلفات هؤلاء الفلاسفة العرب في عصر النهضة بدأوا يخرجون لشعوبهم نظريات جديدة بالنسبة إليهم وظهروا أمام هذه الشعوب كأنهم مبدعون لها مبتكرون في الكشف عنها ولم يكونوا في حقيقة الأمر إلا ناشرين لما انطوت عليه مؤلفات علماء العرب من النظريات . وإذا كان العلماء المحدثون في أوروبا قد تعاقبوا على مر السنين وأضافوا إلى المعارف إضافات لا شك في قيمتها العظيمة وإذا كان فضلهم في ذلك لا ينكر فإن فضل العرب على الثقافة الإنسانية جدير بأن يعترف به كذلك فلأنهم بحق رواد الحركة الفكرية الحديثة في العالم أجمع .

٢ - العلوم والآداب والفنون

جاء في كتاب ألفه (بريفو) بعنوان « تكوين الإنسانية » ما يأتي :
 « كانت العلوم أعظم إضافة أضافها العرب من حضارتهم إلى العالم الحديث ، فقد كان اليونانيون يصنعون الحقائق ويقررون القواعد العامة وينشئون النظريات ، ولكن القيام بالبحث العلمى وجمع الحقائق الثابتة واتباع الطرق العلمية الدقيقة في البحث والدأب على الملاحظة للوصول

إلى الحقائق فقد كان غير مألوف عند اليونان ومنافياً لاستعدادهم العقلي .
والعرب هم أصحاب الفضل في تعريف أوروبا بهذه الوسائل العلمية ^(١) .
وهذه شهادة لها أمثال كثيرة في هذا العصر وهي تدل في مجموعها
على أن الكتاب الأوروبيين بدأوا في وقتنا هذا يعدلون عن الطريقة السابقة
التي كان كتاب الغرب يتبعونها في إنكار ما للعرب من فضل على
الحضارة الإنسانية ومحاولة الافتراء عليهم وتشويه تاريخهم .
وسنكتفي بإلقاء نظرة سريعة على ما كان للعرب من جهود عظيمة في
ميادين البحث العلمي علاوة على ما أضافوه إلى المعرفة الإنسانية في ميادين
التفكير الفلسفي .

وقد سبق أن قلنا إن الإسلام يجعل التفكير في الكون والتأمل في أسرار
من واجبات المسلم لأن معرفة هذه الأسرار تجعل الإنسان أقوى شعوراً
بالسلام وأعرق إيماناً بقدرة الله وأطمئناناً إلى الإسلام لمشيتته، فالكشف
العلمي في الإسلام جزء من بواعث الإيمان ولهذا كان دأب علماء العرب
أن يبدقوا في تأملهم لما حولهم من قوى الطبيعة ولا يقنعون بالظاهر الذي
تقع عليه أعينهم بل يحاولون أن يصلوا إلى الحقائق الكبرى التي تنطوي
تحت ذلك الظاهر .

وكان من أول ما اتجهوا إليه في تأملهم حركة الأفلاك في الفضاء،

(١) ففلا عن كتاب (الإسلام والعرب) للأستاذ (روم لاندو) أستاذ الدراسات
الإسلامية بجامعة كاليفورنيا .

وكان لا بد لهم لإدراك أسرارها من دراسة الرياضيات ونقلها من الميدان النظرى الذى جال فيه من سبقهم من علماء اليونان إلى المجال التطبيقى الذى اتجه إليه العرب فى دراستهم للرياضيات ، وفى سبيل ذلك وضعوا أسس علم حساب المثلثات والهندسة الفراغية فالعرب هم أصحاب الفضل فى توجيه التفكير إلى الرياضيات التطبيقية ، كما كانوا أصحاب الفضل فى إطلاق الرياضيات من قيود العدد فابتكروا استعمال الصفر ليتمكنوا من تجاوز العد بالأرقام التسعة المعروفة إلى ما لا نهاية له من الأرقام كما أنهم ابتكروا علم الجبر للتخلص من قيود الأرقام لجعل الحساب يتناول ما لا نهاية له من المحسوبات . وكان صاحب الفضل فى هذا الابتكار هو الخوارزمى فى القرن التاسع الميلادى ، وكان اهتمام العرب بقياس أبعاد المكان ناشئاً من رغبتهم فى الكشف عن حقائق الكون الذى يتأملونه ، فقاموا بقياس أبعاد الأرض بالطريقة الفلكية باستخدام علم المثلثات ورصد ميل الكواكب الثابتة عن الأفق وكانت النتائج التى وصلوا إليها فى قياس الدرجة العرضية بالغة الدقة . ومن علماءهم الذين برزوا فى هذا الميدان الرياضى الكبير (البيرونى) من علماء القرن الحادى عشر الذى كان له الفضل فى توجيه الاهتمام إلى حركات الأفلاك ، وكان الشاعر المعروف عمر الخيام من كبار الرياضيين فى القرن الثانى عشر للميلاد ، وقد سبق إلى إعداد تقويم فلكى أعظم دقة من التقويم الجريجورى ، ومن علماءهم فى الفلك (أبو الوفا) الذى سبق العالم الأوروبى (قوبرنيكوس) فى كشف كثير من

الحقائق بل سبقه إلى بعض حقائق لم يفتن لها العالم الأوربي الكبير ، ولاهتمام العرب بالفلك أنشأوا مرصد عدة كان أولها في بغداد ثم أنشئ مرصد أعظم منه في (المراغة) بآسيا الصغرى في القرن الثالث عشر . وكانت الأندلس كمعانتها تعاون في خدمة العلوم كمعاونتها في خدمة الفلسفة . وقد حسن العرب صناعة آلة الاسطرلاب حتى صيروها آلة دقيقة لرصد الأفلاك فأحدثوا بذلك انقلابا عظيما في دراسات الفلك وفي الملاحظة البحرية ، وكان العالم الفلكي الأوربي (كوبرنيكوس) ينقل عن الزركلي في مؤلفه الكبير عن القبة السماوية . وبما يتصل بدراسة العرب للفلك دراستهم للجغرافية وتبثيلهم لحقائقها على الخرائط مبالغة منهم في الدقة . وكانت مبالغتهم في تحري الدقة في الدراسة النظرية ورغبتهم في الوثوق من المعطيات التي يقيمون عليها أحكامهم العامة — كان ذلك يدفعهم إلى تجشم مشاق الأسفار البعيدة ليروا بأعينهم ويتأملوا ما يرونه ، وقد حملتهم هذه الأسفار إلى قاب آسيا وإلى أفريقيا ومجاهل أوربا ، وكان الرحالة ابن بطوطة (في القرن الرابع عشر للميلاد) واحداً من مثبات من رحالة العرب الذين جابوا أركان الأرض بحثا عن الحقائق . وما يزال اسم الإدريسي علماً في تاريخ الجغرافيا وهو من علماء المغرب في القرن الثاني عشر ، وقد اشتهر اسمه في أوروبا لاتصاله بالملك (رجار) — روجر حاكم صقلية وقد ألف الإدريسي لذلك الملك كتابا في الجغرافيا ضمنه عددا كبيرا من الخرائط الإيضاحية التي كانت أدق ما عرف من الخرائط في العالم .

وعرف الإدريسي كما عرف غيره من علماء الجغرافيا والفلك أن الأرض كروية وحددوا أقاليمها . وقد اختلفت الآراء في اختراع الإبرة المغناطيسية ، فنيل لأنها من ابتكار العرب وقيل لأنهم نقلوها عن الصين ولكن العرب كانوا أصحاب الفضل في استخدامها وتعريف العالم بها على أية حال . وإذا كان الأوربيون يمجّدون العالم (ليو الأفريقي) اعترافاً بفضله في الوصول إلى الحقائق التي سجلها في رحلاته بأفريقيا فلن ذلك العالم عربي الأصل واسمه الأصلي (حسن الوزان) وهو مغربي النشأة . وقد أشرنا عند ذكر فلاسفة العرب إلى أنهم شاركوا في دراسة علوم كثيرة مثل الطب والكيمياء والطبيعة إذ كانت دراسات الفلاسفة منذ القدم قائمة على الشمول وتوسيع دوائر البحث ، فليس التخصص في الدراسات إلا تطوراً جديداً على الإنسانية . غير أن بعض الفلاسفة وإن لم يتخصصوا في ميدان واحد كانوا أكثر اهتماماً ببعض العلوم دون بعض ، وكان الطب من أهم العلوم التي نظر فيها الفلاسفة . وكان ذلك طبيعياً لعلماء المسلمين الذين كانوا يحاولون أن يعرفوا حقائق الوجود من الناحية الفلسفية عن طريق كشفهم للحقائق الماثلة في أنفسهم وفيما حولهم من الكائنات . وابن طفيل يمثل هذا الاتجاه في كتابه (حي بن يقظان) فإنه حين مات الغزالة التي أرضعته أراد أن يبحث عن سر روحها فأخذ في تشريح جسمها لعله يصل إلى مكن الروح فيها .

وقد ذكرنا فضل حنين بن إسحق على الترجمة من اليونانية إلى

العربية في عصر المأمون، وكان كتاب جالينوس في الطب من بين مترجماته، كما ترجم هو وتلاميذه كتب أبوقراط الطبية وكتاب (ديوسقوريدس) في الأقرباذين. ولم يكن حنين مترجماً فحسب إذ أنه ألف كذلك في الطب كتباً عدة أهمها في طب العيون. وكان الرازي من كبار أطباء أوائل القرن العاشر للميلاد. وفضلاً عن ممارسته للطب ألف كتباً كان لها أكبر أثر في القرون التالية وكان ابن سينا كما سبق ذكره من أكبر الأطباء وله كتاب (القانون في الطب) وهو الذي اعتمدت عليه دراسات الطب في العالم كله إلى عهد قريب. وكان (ابن النفيس) المصري من كبار علماء الطب في القرن الثالث عشر وما زال فضله العظيم في حاجة إلى الإظهار وهو الذي سبق إلى معرفة دوران الدم في الرئتين ليتطهر بالاتحاد بالهواء وهو السر الذي لم يكشفه الأوروبيون إلا في القرن السابع عشر. ولم يكن أطباء الأندلس وعلمائهم أقل براعة وعلماً من أطباء المشرق وعلمائهم فقد امتاز علمائهم بالدقة في مباحثهم حتى يمكن أن يقال إن أحدهم سبق العلم الحديث إلى فلسفة النشوء والارتقاء وهو محمد بن أحمد الوراق. وجاء في كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) ما يدل على أن علماء الأندلس عرفوا أسرار فساد الأجسام وتعفنها وأن ذلك يسبب الأوبئة التي تهلك الحيوان والنبات.

ومن علماء الأندلس وأطبائهم (ابن زهر أبو مروان عبد الملك ابن محمد بن زهر الأيادي الإشبيلي) وكان لكتابه (التيسير) أثر كبير

في نهضة العلم بأوروبا، وهو من أسرة نبغ فيها عدد من الأطباء والعلماء وإن لم يبلغوا شأوه في العلم . وكان ابن رشد تلميذ ابن زهر وكتابه (الكليات في الطب) من أكبر المراجع التي اعتمدت عليها جامعات أوروبا لمدة طويلة . وأطباء العرب هم الذين وجهوا الأنظار إلى سر العدوى في الأوبئة التي كانت تجتاح العالم في تلك الأزمنة بين حين وآخر . وكان العالم الكبير (ابن الخطيب) الغرناطي من علماء القرن الرابع عشر صاحب الفضل في ذلك وابن الخطيب هو الذي كُتِبَ في تاريخ حياته الكتاب الكبير الجامع للتاريخ والأدب وهو (نفع الطيب) . وكان يعاصر ابن الخطيب عالم آخر وهو (ابن خاتمة) وكان له فضل مثل فضل صاحبه في لفت الأنظار إلى سر العدوى في الطاعون الذي اجتاحت أوروبا في عصره .

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن الطب إلا أن نشير إلى أن الأمة العربية عرفت المستشفيات العامة لأول مرة في التاريخ ، فقد أنشئت مستشفيات عدة في العواصم الكبرى فأنشئ أولها في بغداد في القرن التاسع في مدة هارون الرشيد ، ثم أنشئت بعد ذلك مستشفيات أخرى كان منها مستشفى ابن طولون بمصر ، والمستشفى الذي بناه صلاح الدين الأيوبي ومستشفى قلاوون بالقاهرة ومستشفى دمشق بالشام الذي أنشأه نور الدين محمود ، وكانت هذه المستشفيات بمثابة مدارس للطب إلى جانب قيامها بالعلاج .

وقد بدأ لويس التاسع في إنشاء أول مستشفى بأوروبا عقب عودته

من حربه الصليبية في القرن الثالث عشر . وكان أطباء فرنسا يحاولون أن يقوموا بالخدمة في هذا المستشفى بمساعدة مؤلفات العرب في الطب التي بدأت تترجم إلى اللاتينية .

ومما يتصل بالطب دراسة العقاقير الطبية ودراسة الكيمياء، وإذا كانت دراسة الكيمياء قد خالطها كثير من الانحراف بالرغبة في الكشف عن لإكسير الحياة وعن سر تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، فإن جهود العلماء فيها أنتجت نتائج هامة . فالعالم الكيميائي جابر بن حيان الذي كان يعيش في القرن الثامن للميلاد هو الثاني من كبار الباحثين في الكيمياء بعد الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية . وإليه يرجع الفضل في تحضير بعض المواد مثل الزرنيخ وفي استخدام ثاني أكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج . وهو الذي ابتكر الإنبيق للتصعيد وعرف القلويات والكحل (الكحول) .

وقد اشتغل الطبيب الرازي بالكيمياء كعلم طبيعي لا كوسيلة للبحث عن الذهب . غير أن اهتمام العرب بالبحث في طبائع الكون كان أعظم من اهتمامهم بتركيب الأشياء أو استخراج المعادن ، ولعل ذلك أثر من آثار نظرهم إلى البحث العلمي على أنه وسيلة لمعرفة الحقائق التي يحض الإسلام على التأمل فيها .

ومن أكبر علمائهم في الطبيعة الحسن بن الهيثم البصري الذي كان له الفضل في القرن العاشر الميلادي في الكشف عن أسرار أشعة الضوء

لأول مرة، وأن رؤية الأشياء تكون نتيجة لوقوع الأشعة عليها وانعكاسها إلى العين . وقد ألف الأستاذ الجليل محمود نظيف رسالة كبيرة بين فيها الإضافات العلمية التي أضافها ابن الهيثم إلى التراث العلمى ومنها يتبين أن ذلك العالم كان رائد البحث الطبيعى الحديث فى كثير من المسائل العلمية الكبرى . وكان لأتباع ابن الهيثم من العلماء أثر كبير فى تقدم البحث العلمى فى هذا الميدان حتى أنهم بدأوا بعض التجارب المتصلة بسير شعاع الضوء إذا أنفذ فى غرفة مظلمة .

ومن العلماء المتأخرين فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد طائفة عكفوا على تأليف كتب ضخمة تشبه دوائر المعارف جمعوا فيها طوائف من المعارف العلمية التي كانت بغير شك هى الحصاد الأخير من ثمار النشاط العلمى العظيم الذى توالى عليه أجيال عدة من العلماء العرب وحسبنا أن نذكر من هؤلاء العلماء اثنين على سبيل المثال أحدهما ابن العوام الإشبيلى الأندلسى الذى كان لكتابه (كتاب الفلاحة) أكبر أثر فى دراسة علوم الزراعة بأوربا ، والثانى هو ابن البيطار نابغة علم النبات الذى ولد بالأندلس وتوفى بدمشق وكان بذلك أحد الأئمة الدالة على أن أبناء الأمة العربية كانوا لا يعرفون حدودا تفصل بين الأوطان العربية . واسم ابن البيطار أبو محمد عبد الله بن صالح . وجاء من بعده فى القرن السادس عشر (داود الأنطاكي) مؤلف الكتاب الكبير الذى يحتوى على خلاصة البحوث العربية فى العقاقير الطبية .

وإلى جانب هذه الإضافات العظيمة في ميدان الفلسفة والعلوم أقام العرب صرحاً شامخاً من البناء الحضارى فى سائر ميادين النشاط الفكرى والفنى ولستأ نستطيع الإحاطة فى مثل هذا الفصل بيلمأمة كافيأ بأثرهم الضخم فى ميادين الفنون والآداب، وحسبنا للدلالة على عظمة هذا الصرح ما يشهد به الباحثون المحدثون فى مختلف الأمم عن فضل العرب على الحضارة الإنسانية عامة والحضارة الحديثة خاصة . فقد كانت شعوب أوربا فى إبان نهضة العرب وتوفرهم على بناء حضارتهم ما تزال فى عهد بدايتها الأولى وكانت تنظر إلى الأمة العربية على أنها منبع العلوم والفنون وتشعر بضآلة شأنها بالقياس إلى ما بلغه العرب من التقدم . فكانت مظاهر الحضارة العربية ومقوماتها تراثاً متاحاً لهذه الشعوب فاستطاعت أن تستمد منه ما تدخره لنفسها حتى تستعد هى الأخرى للقيام بدورها فى البناء الحضارى على سنة نشوء الأمم وتطورها .

ونورد هنا طائفة من شهادات هؤلاء الباحثين المحدثين كما سجلها كتاب «تراث الإسلام» . وهذا ما يقوله الأستاذ (ألفرد جيوم فى الفصل الذى كعبه من ذلك الكتاب) .

« كان روح البحث الدينى والفلسفى شائعاً فى ميادين العلوم إبان العصر الذى ساد فيه العرب خلال أربعة قرون أو تزيد . وما فنى اللون الذى يصطبغ به العقل الشرقى والسحر الذى يمتاز به باقين فى كتابات ذلك العصر . . . » وقال بعد ذلك : « وقد قضى جهل أسلافنا من أهل

الغرب بلغة العرب ألا يتذوقوا إلا القليل من هذه الحياة الخصبية المتنوعة . . .
ورغم هذا بقيت الحالة العقلية في الشرق والغرب إبان القرن الثالث عشر
على اتصال لم يكن له نظير منذ ذلك العهد . . .

وسوف نرى عندما تخرج إلى النور الكنوز المودعة في دور الكتب
الأوربية أن تأثير العرب الخالد في حضارة العصور الوسطى كان أجل
شأننا وأعظم خطراً مما عرفناه حتى الآن^(١) .

ويقول الأستاذ كريستى في الفصل الذى كتبه عن الفنون من الكتاب
عينه :

« وقد عاصر الفاطميين وعرف ثروتهم الذائعة الصيت رحالة فارسي
مشهور وهو (ناصرى خسرو) الذى طاف بقاعات القصر في عام ١٠٤٧
للميلاد . . . ويقول الرحالة في وصف ما شاهده أنه اخترق إحدى عشرة
غرفة متتابعة في صف واحد كل منها تفوق الأخرى في الروعة والأبهة
وكان العرش تحفة من الذهب غاية في العظمة ، وإبداع الصنع
وعليه زخارف تمثل مناظر صيد بينها كتابات بدیعة وكان العرش قائماً
على ثلاث درجات من الفضة ويحيط به جلفق ذهبي يفوق جماله
كل وصف » . وقال الأستاذ كريستى في موضع آخر بعد أن أفاض

(١) ترجمة هذه المقتطفات منقولة من ترجمة كتاب تراث الإسلام للجنة الجامعيين
لنشر العلم .

فى ذكر تفنن العرب فى شتى ميادين الإبداع : « وقد بدأ الاتصال بين المسلمين (العرب) والمسيحيين (الأوربيين) . قبل الحروب الصليبية بزمان طويل ، فى أسبانيا كان الإسلام قد توطدت أركانه وثبتت دعائمه على حدود أوروبا الغربية نفسها ، وكان له منذ البداية أثر عميق فى الثقافة المسيحية . ثم قامت المسيحية والإسلام جنباً إلى جنب فى صقلية على حين كان الجزء الشمالى من أفريقيا تحت حكم المسلمين الذين كانت سفنهم فى ذلك الوقت تبحر عباب البحر الأبيض المتوسط من أوله إلى آخره .

« وبدأ بالحروب الصليبية عهد جديد ، فتلك العظيمة والأبهة التى كانت تنسب إلى العرب ، وتبدو كأنها ضرب من الخرافات أصبحت منذ بدأت الحروب الصليبية حقيقة ملموسة يراها المسيحيون فى دهشة واستغراب . إذ أن الجيوش الصليبية التى كانت تُجمع من كل أنحاء أوروبا اتصلت بغتة فى هذه الحروب اتصالاً وثيقاً بالنظام الاجتماعى عند الشرقيين وهو نظام كان يفوق من كل النواحي حدود تجاربهم الضيقة . ولم يلبث أن ظهر هذا الاتصال فى كل ناحية من نواحي الحياة ، ولم يكن ظهوره فى الناحية الفنية أقل من النواحي الأخرى » .

· وإنا لا نستطيع أن نستوعب كل ما يشهد به الباحثون المنصفون فى إثبات فضل العرب على المدنية الحديثة فى ميادين العلم ، فهم جميعاً يقررون أن إبداع العرب فى الفنون والعلوم بلغ مستوى عظيمًا من الإبداع . وما تزال

أسماء علمائهم وفنانهم تتردد على السنة العالم إلى يومنا هذا ، وما هذه الأسماء التي سبق لنا ذكرها إلا نماذج لألوف من الباحثين والعلماء الذين استندت حضارة العرب إلى علمهم وفهم في بناء صرحها . وقد امتاز علماء العرب باتساع آفاق بحثهم اتساعاً لا حد له وكان تحررهم الفكري من أعظم ما وهبوه للإنسانية . فلما تلقى أهل أوروبا مبادئ التفكير العلمي عنهم كان الفرق عظيماً بين ما كان يباح لعلماء العرب في حضارتهم ، وما كان يُقيّد به الفكر في بلاد أوروبا قبل العصر الحديث ، إذ كان تلاميذ العلماء العرب وأتباع مدارسهم في البحث من الأوروبيين يتعرضون لأقصى صنوف الاضطهاد في بلادهم من أجل تحررهم في التفكير والبحث .

ويشهد المنصفون من مؤرخي أوروبا أن نهضة أوروبا الحديثة ما هي سوى استمرار للدفعة القوية التي أحدثتها الحضارة العربية . والمتتبع لنشأة الجامعات الأوروبية يستطيع أن يرى في وضوح أنها كانت وليدة مباشرة للجامعات العربية . فقد عرف العرب الجامعات ومعاهد الدراسات العليا منذ عهد بعيد ، وقد ذكرنا منها على سبيل التمثيل الجامعة الأزهرية في القرن العاشر والمدرسة النظامية ببغداد في القرن الحادي عشر . ولم يكن المغرب العربي بأقل احتفالاً بإنشاء الجامعات . فهناك جامعة الزيتونة في تونس ، وجامعة القرويين في فاس ، عدا ما كان بالأندلس من جامعات كبرى في قرطبة وغيرها من العواصم الأندلسية .

وليس من شك في أن أقدم جامعات أوروبا أحدث عهداً من هذه

الجامعات العربية ، كما أن كل منصف من المؤرخين يصرح بأن جامعات أوروبا لم تكن في أول الأمر سوى نسخ منقولة من الجامعات العربية . ولم يكن من المصادفات أن أقدم الجامعات الأوروبية كانت تعتمد في دراساتها على مؤلفات العلماء العرب ، وأن نظمها وطرق التدريس فيها وأجازات الأساتذة لطلاب العلم بل مواد الدراسة ذاتها كانت صوراً منقولة عن الجامعات العربية .

إذن فقد أقامت الأمة العربية صرح مدنية عظيمة كان لها الفضل في إبداع إضافات لا حصر لها أغنت التراث الحضارى الإنسانى الذى وجدته قبلها ، كما كان لها الفضل — كسائر الحضارات العظمى — فى إيصال تيار الرقى الحضارى من العهود القديمة إلى العهود الجديدة بعد أن أمتعت حياتها الخاصة حيناً من الدهر بحضارتها العظمى ، ولم تبخل بأن تفيض بما لديها فى تواضع على الشعوب الأخرى التى كانت فقيرة إلى ما عندها .

وبما يجدر بنا ذكره هنا أن أول آلة للطباعة اخترعها حنا جوتنبرج فى سنة ١٤٤٥ للميلاد وأول كتاب طبع فى البندقية سنة ١٤٧١ كان مترجماً إلى اللاتينية عن العربية وهو كتاب التصريف لأبى القاسم الزهراوى ثم طبع كتاب القانون لابن سينا سنة ١٤٧٦ ثم طبعت مؤلفات الرازى سنة ١٤٨١ وكليات ابن رشد سنة ١٤٨٢ .

الدور الرابع من حياة الأمة العربية

١ - خمسة قرون من السلام

سبق أن ذكرنا في نظرية المؤرخ توينبي أن الأمة حين تخرج من نضال عنيف وهي سليمة منتصرة تصبح أشد قوة وأوفر حيوية مما كانت . ويكون انتصارها في الدفاع عن نفسها حافزاً جديداً لها يجعلها تسمو بحضارتها إلى آفاق أعلى ، وأنه ليس أدعى إلى الضعف والاضمحلال في روح الأمم من إيثارها الدعة والخلود إلى الاطمئنان وطلبها العافية من مواجهة مشكلات الحياة . وقد خرجت الأمة العربية في الشرق بعد الحروب الصليبية سليمة منتصرة وكان خروجها منتصرة من ذلك الصراع الرهيب جديراً بأن يزيد من حيويتها وحافزاً جديداً لتقدمها الحضارى وعلو شأنها . وهذا هو ما تنطق به صفحات التاريخ التي تدل على أن الدولة العربية صارت أعظم دول العالم قوة في البر والبحر ، وازدهرت فيها التجارة ازدهاراً كبيراً فكانت سلع الشرق تأتي إلى عواصمها مثل دمشق وحلب والقاهرة واردة من الصين والهند وجزائر المحيط الهندي لتوزع على بلاد العالم التي كانت تتسابق إلى عقد المعاهدات التجارية مع الدولة العربية بعد أن عادت الرحلة إلى أكبر الأوطان العربية وأهمها . وكانت

موارد التجارة تغنى خزائن الدولة كما كانت تعود بالرخاء والغنى على طبقات الأمة جميعاً .

واستمر البناء في ميادين النشاط الحضارى كلها طوال مدة الدولة الأيوبية وصدر دولة سلاطين الترك التى جاءت بعدها .

فاستهل القرن الرابع عشر والأمة العربية أقوى أمم العالم المعروف وأكثرها نشاطاً ، وكان من المنتظر لها أن تستمر في بناء حضارتها بقوة الدفعة الجديدة التى هزها . ولو أنها فعلت ذلك الذى كان منتظراً لها لوصلت إلى آفاق أوسع مدى ومستوى أعلى شأنًا مما بلغته في القرون السابقة . ولكن ذلك المصير لم يقدر لها ، وكان السر في هذا هو شعورها بالأمن والخلود إلى الدعة وإيثار البعد عن مشكلات السياسة والدفاع .

لقد كان الحكم منذ القرن التاسع الميلادى يعتمد على الجنود المرتزقة في الهجوم والدفاع ، ولا هاجم الصليبيون الوطن العربى وهبت الأمة للدفاع عن نفسها لم يكن لها بد من الترحيب بقيادة الأبطال المخلصين المتحمسين من الأمراء والملوك المسلمين أمثال عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ، وبمشاركة من عندهم من الجنود المرتزقة .

ومنذ عدت هؤلاء الأمراء زعماء لها وهبت لهم ثقتها ومنحتهم وفاءها ، وكانت تحرز الانتصار تلو الانتصار تحت رايهم وبفضل قيادتهم

الباسلة الحكيمة . وكان الشعب العربي يحارب مع الجيوش المرتزة جنبا
 بلجنب يشاركها في الجهاد ولا ينظر إلا إلى غاية واحدة وهي النجاة من الأخطار
 الشديدة التي تهدد حياته وكيانه وحياته .

فلما انقشعت هذه الأخطار الشديدة واستشعرت الأمة الاطمئنان
 على حياتها عادت إلى أعمالها التي تعودتها ، وبقيت الجيوش القائمة على
 سابق عهدا . وكان مما حمل الأمة على إلقاء سلاحها والعودة إلى أسلوب
 حياتها السابق أنها شعرت بالثقة في حكامها الذين تزعموا حركة جهادها
 في أحلك الأوقات التي مرت بتاريخها ، فأسلمتهم قيادها بعد انقضاء
 أخطار الحروب ، وكان نشاط التجارة بعد عصر الاضطراب الدموي
 وازدهار الصناعة كما لم تزدهر من قبل وتدفق الخيرات على الوطن العربي
 من الشرق ومن الغرب ، كان هذا كله مما زاد الأمة إخلاداً إلى الأمن
 والسلام ، فانصرفت تجني الثمار من تجارتها وصناعاتها وزراعتها ، وتركزت
 شئون الحرب في أيدي قادتها .

غير أن الأمور تبدلت منذ القرن الرابع عشر وتحولت شئون الحكم
 إلى أيدي غير أيدي القادة العظام من ملوك الأسرة الأيوبية والسلاطين
 الأتراك الأوائل ، الذين استولوا على الحكم بعد ملوك هذه الأسرة ، فاشتد
 التنافس بين أمراء الجيش الأتراك على السلطان وانقسموا فيما بينهم إلى
 أحزاب وأحلوا يدبرون المكاييد لعزل السلطان القائم ليحلوا محله زعيم
 الحزب الذي يعدهم بالجزء الأوفى على المساعدة . وبقيت الأمة منصرفة

إلى أعمالها لتجنى ثمار السلام الذى كان يرفرف عليها ، وزاد إهمالها لشئون الحكم فيها ومواجهة مشكلاتها .

وتبدلت الأحوال منذ أواسط القرن الرابع عشر تبديلاً آخر عندما بدأت دولة السلاطين الترك بمصر والشام تفقد السبب الذى يسوغ بقاءها وهو الجهاد للدفاع عن الأمة أمام أعدائها . فقد بقيت الجيوش قائمة بل تزايد عددها وأخذ قادتها يتنازعون فيما بينهم بغير أن يكون هناك ما يدعو إلى وجود الجيوش المترتبة الحرارة . وكان أمراؤها وقوادها ، بل كان أفرادها يعيشون عيشة بذخ وإسراف ولا يحلون ما يشغلهم من الهموم سوى المنافسات الضميمة على الحكم وتدبير المكاييد والمؤامرات فى سبيل الوصول إليه . فترايدت أعباء الضرائب شيئاً بعد شيء كى يتمكن كل سلطان جديد من الوفاء بما وعد به أنصاره من الجزاء ونشطت سوق الرقيق لجمع الشبان من الأقاليم غير العربية ليبيعوا إلى الأمراء ، حتى لقد كان الآباء فى بلاد الشركس والتركستان وغيرها يبيعون أبناءهم ليكونوا جنوداً للأمراء على أمل أن يتبها لهم المجد إذا سنحت لهم الفرص فى منازعات الأحزاب . ونشطت كذلك سوق الإماء من الجوارى الترك والحركس والصقالبة فكانت تعرض فيها الحسان ليصبحن نساء للأمراء والقواد . فانتهى الأمر إلى أن أصبح حكم السلاطين الأتراك وأمراءهم وجنودهم المماليك حملاً شديداً الوطأة يكلف الأمة عرقها وكلدحها على حين كانت هذه الجيوش لا تقوم بعمل فى الدفاع ضد الأعداء .

وكانت هناك دولة تركية أخرى ناشئة في بلاد آسيا الصغرى عرفت في التاريخ العربى باسم (دولة الروم) وهى التى نعرفها باسم الدولة العثمانية . وكان ابتداء أمرها كولاية صغيرة في القرن الثالث عشر ، غير أنها استطاعت أن تمتد سلطانها تدريجاً وأن تعبر بوغاز الدردنيل إلى شبه جزيرة البلقان وتنزع من إمبراطورية الروم الشرقية إقليماً بعد إقليم حتى أصبحت دولة إسلامية قوية تنافس دولة السلاطين الأتراك في مصر والشام .

وما زالت دولة الترك العثمانيين تنمو وتوسع حدودها من قبل إمبراطورية الروم الشرقية حتى استطاع أحد ملوكها وهو محمد الفاتح أن يفتح القسطنطينية في أواسط القرن الخامس عشر (سنة ١٤٥٣ للميلاد) وقضى بذلك قضاء أخيراً على تلك الدولة الرومانية العتيقة التى كانت تناصب العرب العداء منذ القرن السابع للميلاد . فأصبح بذلك في بلاد الشرق الإسلامى دولتان متنافستان إحداهما دولة العثمانيين الناشئة القوية وهى تسيطر على بلاد آسيا الصغرى والبلقان والأخرى دولة السلاطين الأتراك في مصر والشام وهى التى انتهى أمرها إلى ما رأيناه من الفرقة واختلاف الأهواء والمنازعات .

وتبعاً للسنة التاريخية التى سبقت الإشارة إليها كان لا بد أن تنتهى القوضى الشاملة بين الأحزاب المتناحرة إلى قيام دولة شاملة تستطيع أن تعيد الأمن إلى نصابه وأن تقضى على المنافسات والمنازعات وتقوم هى بالسيطرة الكاملة على الحكم .

وكان قيام هذه الدولة الشاملة مقدوراً للدولة التركية العثمانية كما هو منتظر، ففي مدة حكم السلطان سليم الأول زحفت الجيوش العثمانية على الشام وصدمت جيوش الدولة المنهارة، ولم تلبث أن قضت عليها . فبذل سنة ١٥١٧ للميلاد بدأت الدولة العثمانية تسيطر على حكم الأمة العربية . وامتد سلطانها إلى بلاد العرب والعراق وشمال أفريقيا فلم يبق خارجاً عن سلطانها من الوطن العربي إلا بلاد المغرب الأقصى .

وبقيت الأمة العربية تحت ظل هذه الدولة الشاملة مستمرة على ما أخذت إليه من الدعة وإيثار العافية ولم تشارك في الحكم ولا في الدفاع عن نفسها وأصبحت رعية منكشحة في نفسها منصرفة إلى شئون معيشتها . وبقيت الدولة العثمانية محتفظة بقوتها وسيطرتها نحو قرنين من الزمان، ثم بدأ حكمها يتزعزع في أوروبا على أثر مصادماتها المستمرة مع الشعوب التي تحكمها . فسارت على السنة التي تسير عليها الدول الشاملة دائماً فتعرضت إلى عوامل الصراع من جبهتين معاديتين إحداها الشعوب المحكومة التي تسيطر عليها وثانيتهما جبهة الشعوب المجاورة التي تصادماها . وانتهى أمرها في القرن الثامن عشر إلى أن عاد إليها الاضطراب وتفككت عراها واختل أمرها وألت أحوال الأمة العربية معها إلى الفوضى والاضطراب والشقاء، كأن ذلك كله عقوبة طبيعية لخلود الأمة العربية إلى الدعة والأمن طوال القرون الخمسة التي مرت . عليها في سلام بين أواخر القرن الثالث عشر والقرن الثامن عشر .

أما في بلاد المغرب العربي فإن الحوادث اتجهت إلى وجهة أخرى تختلف عما صار إليه الأمر في بلاد المشرق العربي . فقد كانت جبهة الأندلس تشهد مأساة أمة لم يقلد لها البقاء . بدأ أمراء الأسبان يكرنون عليها من أودية شمال شبه الجزيرة ، بعد أن تمزقت وحدتها وتقسمت إلى إمارات صغيرة منذ أوائل القرن الحادى عشر، وكان كل من الأمراء يطمع في المجد ويدعى لنفسه السيادة ، ولم يتردد بعضهم في مخالفة أمراء الإسبان ليكونوا لهم عوناً على الأمراء العرب الآخرين ، وكان الطابع الذى يميز هذه الإمارات جميعاً هو المغالاة في الترف والانغماس في كل ما توفره الحضارة المتقدمة من المباهج والزخارف .

ولم تكن حال المغرب العربي خيراً من حال الأندلس في انقسامها والتنافس بين أمرائها منذ أواخر القرن العاشر للميلاد .

فكان لا بد للوطن العربي في المغرب من تحول جديد يقضى على هذه الفوضى إذا قدر لهذه الأمة البقاء ، وهذا ما حدث في بلاد المغرب إذ نشأت هناك حركة بعث جديدة على أيدي دولة المرابطين التى أنشأت مراكش واتخذتها عاصمة وأعادت الأمن والوحدة إلى بلاد المغرب ، ثم عبرت جيوشها إلى الأندلس فردت تيار المهجوم الإسبانى في الوقت الذى كانت الجيوش الصليبية تغزو فيه بلاد المشرق العربي (أواخر القرن الحادى عشر) فكانت دولة المرابطين بالنسبة إلى المغرب دولة شاملة أعادت إليها الأمن وحفظت حياتها إلى حين . ولكن هذه الدولة الجديدة لم تلبث أن

تأثرت بعدوى الفرقة والانغماس في ترف الحضارة وزخارفها فنشأت حركة بعث أخرى في جنوب بلاد المغرب قصدت إلى جمع كلمة المسلمين وتطهير حكمهم من عوامل الفرقة والانغماس في مباحج الحضارة وتزيفها . وكانت نتيجة هذا البعث الجديد إنشاء دولة شاملة ثانية وهي دولة الموحدين التي استطاعت أن تنزع الحكم من دولة المرابطين وتحل محلها في حكم بلاد المغرب والأندلس على السواء في أواسط القرن الثاني عشر . وزاد سلطانها اتساعاً نحو الشرق فشمّل الجانب الأكبر من شمال أفريقيا ، حتى اتخذ ملكها عبد المؤمن لنفسه لقب أمير المؤمنين وكان في الحقيقة جديراً بهذا اللقب بعد زوال الخلافة الأموية بالأندلس منذ انقرضت ذرية الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر في أوائل القرن الحادى عشر للميلاد . واستمر حكم دولة الموحدين مزدهراً إلى أيام أمير المؤمنين يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن في أواخر القرن الثاني عشر ، وكانت أيامه تزخر بطائفة من نوابغ العلماء العرب مثل ابن رشد وابن طفيل .

غير أن حكم هذه الدولة العظيمة الشاملة لم يبق طويلاً بعد موت ملوكها الأوائل الكبار فتقلص حكمها عن الأندلس وعاد أمراؤها إلى الانقسام والتنافس وارتدت عليهم موجة الهجوم من أمراء الإشبانية . فنشأت في المغرب العربي دولة جديدة ثالثة وهي دولة بنى مرين التي كان المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون من وزرائها ، وقد امتد حكمها مدة طويلة إلى أوائل القرن السادس عشر (١٥٢٤ للميلاد) وكان لها أثر كبير في

بلاد المغرب العربي ولكنها لم تستطع أن تكون دولة شاملة وصحزت عن مد يد المساعدة إلى بقية الأندلس العربية ، كما لم تستطع أن تحتفظ بسلطان الموحدين السابق على شمال أفريقيا، فانفصلت تونس عنها وتولى حكمها أسرة بنى حفص التي حكمت بين ١٢٢٨ و ١٥٣٤ .

واستطاع الأمراء الإسبان أن يوالوا هجماتهم العنيفة على أمراء العرب في الأندلس منذ أوائل القرن الثالث عشر حتى لم يبق مستقلا من الإمارات المتنافسة إلا غرناطة وما حوطا فبقيت في حياة مهددة لمدة قرنين ونصف قرن ثم لفظت آخر أنفاسها في سنة ١٤٩٢ للميلاد عندما اجتمع على حربها الملك فردناند والملكة إيزابلا وهما حاكما أكبر الإمارات الإسبانية (أراجون وقشتالة) .

من هذا العرض الموجزي يتبين أن الأمة العربية في الشرق والأندلس وشمال أفريقيا على السواء تعرضت لمصائر متشابهة منذ أواخر القرن الثالث عشر فكانت تشعر بالسلام في ظل الدول الشاملة ما دامت تلك الدول قوية وقادرة عن الدفاع عنها . وكما أن الشعوب العربية في بلاد المشرق أخذت إلى الدعة وآثرت العافية في ظل الدول الكبرى التي تحميها فإن الشعوب في الأندلس وشمال أفريقيا كذلك أخذت إلى الدعة في ظل الدول الشاملة التي أظلتها بحمايتها وكانت نتيجة إخلالها إلى الدعة في الحالين واحدة فإنها فقدت الاهتمام بشئون الحكم والدفاع ، وانصرفت إلى ميادين العمل من أجل معيشتها . وقد عجلت نتيجة هذه الدعة إلى شعب الأندلس العربي فإنه

تعرض لهجمات أعدائه عندما تقلصت عنه حماية الدول الكبرى التي كانت تدافع عنه فلم يستطع الثبات أمام هجمات الأعداء وكان تفرق الأمراء العرب وتنافسهم مما ساعد على الإسراع بالنهاية المحتومة فقضى على الأندلس العربية ولم يبق منها إلا ذكر عاطر من آثارها العظمية في العلوم والفنون وسائر النشاط الحضارى الذى كان لها الفضل فيه في مدة حياتها .

أما الأقاليم العربية في شمال أفريقيا فقد كان حظها مثل حظ المشرق العربى منذ أظلتها الدول الشاملة بحمايتها وبقيت منذ أواخر القرن الثالث عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر ركدة النشاط ، وانعزل أهلها عن الحكم وعن الدفاع عن أرضهم وقصروا اهتمامهم على شئون معيشتهم حتى أصبحت بعد هذا الأمد الطويل من الإخلال إلى الأمن لا تزيد على حطام من الأمة العربية التى بنت مجدها خلال القرون الثلاثة الأولى من حياتها .

غير أن شعب المغرب الأقصى كتب لنفسه سيرة أخرى ، فإن الدول التى قامت فيه كانت عربية ، وكان شعبها هو الذى يدافع عن نفسه بنفسه بل كانت الدول الشاملة التى تعاقبت على الحكم فيه كانت تشمل بحمايتها الأقاليم المجاورة لها كما فعل المرابطون والموحدون حين كونوا دولتهم الشاملتين ، وقامتا بحماية الأندلس وشمال أفريقيا لمدة قرنين ، وكما فعلت دولة بنى مرين التى أظلت بلاد المغرب وجانباً كبيراً من شمال أفريقيا لمدة قرنين ونصف . فبلاد المغرب العربى تختلف عن سائر الأوطان العربية في أنها استطاعت أن تحتفظ باستقلالها وأن تواجه الأخطار التى

هددتها بنفسها معتمدة على أبناء شعبها الذين لم يتخلوا عن حكم أنفسهم ولا عن الدفاع عن وطنهم ، واستطاعت أن تبقى أعلامها مرفوعة إلى أوائل القرن العشرين لأنها لم تخلد إلى الدعة ولم تدع الدفاع عنها للجنود المرتزقة الأجانب أو تعتمد على حماية الدول الشاملة لها كما في سائر البلاد العربية .

أما شعوب أوروبا في مدة هذه القرون الخمسة التي أخلد فيها أكثر الشعوب العربية إلى الدعة فلإنها كانت تبني مدنيها الحديثة بعد أن خرجت من عهد ركودها في القرون الوسطى ، فقد هزتها الحروب الصليبية هزة عنيفة وزاد انصافها بالعرب في مدة القرنين اللذين توالى فيهما موجات الحروب الصليبية على بلاد الشرق ، واطلع أبنائها على مظاهر الحضارة العربية التي لم يكن لهم عهد بمثلها ، واستطاع الأوروبيون الذين أقاموا في فلسطين والشام نحو قرنين من الزمان أن يتعلموا اللغة العربية ويطلعوا على ما فيها من كنوز الآداب والعلوم ، فكانوا بمثابة الرواد في حركة بعث جديد للفكر الأوروبي وبدأت بفضلهم أول أشعة النور تنفلد إلى أقطار أوروبا . وإلى جانب هذا العامل القوي في إيقاظ شعوب أوروبا كان كثير من أبناء الشعوب الأوروبية يتصلون بالعرب في إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا حيث ازدهرت العلوم والآداب والفنون العربية فصاروا تلاميذ للحضارة العربية وساعدوا على بعث شعاع قوى آخر من النور في الظلام الذي كان يخيم على شعوب أوروبا . وبدأت الحركة تدب في تلك الشعوب منذ أواخر القرن الثالث عشر في الوقت الذي بدأت فيه الأمة العربية تشعر

بالأمن وتخلد إلى الدعة كما بينا من قبل ، فكان الأمة العربية وشعوب أوروبا كانا في كفتي ميزان ترجح إحداهما حين تخفف الأخرى .

وتزايدت حركة شعوب أوروبا على مر السنين وبدأت تنهض وتستفيد بما تهيأ لها الوصول إليه من آثار الحضارة العربية عن طريق الترجمة إلى اللغة اللاتينية التي كانت عند ذلك لغة مشتركة بين طلاب العلم في شعوب أوروبا الغربية جميعاً . ومنذ ذلك الحين بدأت هذه الشعوب تضع الأسس الأولى لحضارتها الحديثة التي أصبحت اليوم هي التي تسود العالم . وكان من أوجه نشاطها العدة انطلاقتها في البحث عن مجاهيل الأرض ، وأول من بدأ ذلك الانطلاق هما شعبا البرتغال وإسبانيا وهما اللذان زهاما الانتصار على العرب والقضاء على بقايا دولة الأندلس . فاتجهت أساطيل البرتغال ترتاد سواحل أفريقيا الغربية واتجهت سفن إسبانيا إلى الغرب بغية الوصول إلى الهند باختراق بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) .

ولا حاجة بنا إلى تتبع تاريخ شعوب أوروبا وبيان اتجاهاتها في نهضاتها الجديدة وحسبنا أن نشير هنا إلى حقيقة هامة بالنسبة إلى تاريخ الأمة العربية وذلك أن انطلاق شعوب أوروبا وجهها بعيداً عن الوطن العربي فيما عدا محاولات قليلة محدودة قام بها بعض دول أوروبا الغربية لغزو شواطئ المغرب العربي وشواطئ شمال أفريقيا العربي .

من أجل هذا لم تتعرض البلاد العربية في مجموعها لغزو أجنبي خطير من قبل دول أوروبا طوال القرون الخمسة التي أسلفنا الحديث عنها وشغلت

دول أوروبا في أثناء هذه القرون بتوسيع سلطانها في أركان الأرض البعيدة ،
 فنذ أول القرن السادس عشر بدأت حركة الاستعمار التي كانت أخطر حركة
 في حياة الإنسانية . منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، وكان لنا أكبر الآثار
 في حياتنا الحاضرة ، فإن المشكلات العظمى التي تهدد العالم اليوم ليست
 سوى الحصاد الوبيل الذي يجنيه العالم اليوم من بذور السيطرة التي
 اندفعت إليها دول أوروبا في بدء نهضتها الحديثة .

الدور الخامس من أدوار حياة الأمة العربية

نكبة الاستعمار

تمكنت دول أوروبا الغربية من الانسحاب في الأرض منذ أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر حين انطلقت تبحث عن مجاهيل الأرض بغية الوصول إلى الهند والجزائر الشرقية . وكان غرضها المباشر تحويل طريق التجارة مع بلاد الشرق عن المرور بأرض الدولة العربية في مصر والشام . واستطاعت البرتغال المرور حول أفريقيا حتى وصلت إلى سواحل الهند في أواخر القرن الخامس عشر ، كما استطاعت أسبانيا بفضل خريستوف كولبس أن تقطع المحيط الأطلنطي غرباً حتى وصلت إلى أرض جديدة ظنت في أول الأمر أنها أرض الهند ثم تبين لها فيما بعد أنها قارة عظمى وهى التى عرفت فيما بعد باسم أمريكا .

وانفردت البرتغال بسواحل أفريقيا والهند فأخذت تبسط عليها سلطانها ثم توغلت في أرضها وأخذت تخضع شعوبها لسيطرتها وتستغل خيراتها لنفسها كما انفردت أسبانيا بأرض القارة الجديدة تخضع شعوبها وتستغل خيراتها .

وكانت كل منهما تلجأ في إخضاع تلك الشعوب إلى وسائل القوة أحياناً باستخدام أسلحتها الجديدة التى لا عهد لتلك الشعوب بها ، كما

كانت تلجأ إلى وسائل الخداع والتفريق بين سكان البلاد . وبدأت الدول الغربية الأوروبية الأخرى في منافسة البرتغال وأسبانيا على اقتسام غنائم هذه الأقاليم الفسيحة التي كانت الأساطير الشائعة عند ذلك تبالغ في وصف كنوزها وثرواتها الطبيعية وأعاجيبها ، وثارَت بينها حروب دموية أدت إلى اشتراك عدد من تلك الدول في السيطرة على بلاد أفريقيا وآسيا ، وكانت نتيجة تلك الحروب تقسيم جانب من هذه الأقاليم بين عدة دول أوروبية أهمها هولندة وفرنسا وإنجلترا ، فأصبحت هذه الدول الثلاث مضافة إلى البرتغال وأسبانيا تسيطر فيما بينها على مساحات شاسعة من الأرض وعدد لا يكاد يقع تحت حصر من شعوب ، بعضها بدائي في أفريقيا والأقاليم الجديدة التي استكشفت حديثاً وهي أمريكا وأستراليا والبعض الآخر من الشعوب ذوات المدنية القديمة كالهند وجزائر الهند الشرقية والصين . ومن ذلك الحين نشأ في العالم نظام جديد سمي بنظام (الحلول) لأن الدول المسيطرة كانت تبحث من أبناء شعوبها مجموعات تقيم في الأقاليم التي ملكتها كي يحلوا فيها لاستغلال خيراتها وذلك النظام هو الذي أطلق عليه في اللغة العربية اسم نظام الاستعمار .

وهذه التسمية العربية لا تؤدي المعنى الحقيقي لنظام (الحلول) الأوروبي فالاستعمار يحمل معنى التعمير وهو أبعد شيء عن ذلك المعنى ، ولهذا فنحن نطلق عليه لفظاً آخر هو أقرب إلى معناه الحقيقي وهو « نظام الاستغلال » .

وقد أدى هذا النظام إلى تغيير جوهري في توزيع سكان العالم، فلإن شعوب أوروبا التي حلت في بعض الأقاليم قضت قضاء تاماً أو يكاد يكون تاماً على الشعوب الأصلية التي كانت تقيم فيها، وأصبح جمهور أهلها من نسل أبناء الشعوب المستغلة . ومن أمثلة ذلك أرض أستراليا ونيوزيلندة وقارقي أمريكا (الشمالية والجنوبية) . ولسنا نجد في تاريخ العالم مثالا لهذا النظام الاستغلالي فهو أقسى وأشنع من نظام السيطرة الذي سبقت إليه دولتا الفرس والروم وقد سبق أن وصفنا قسوة ذلك النظام، كما أنه يخالف كل المحالفة لنظام الإمبراطوريات القديمة كإمبراطوريات الإسكندر المقدوني ومصر القديمة وبابل وآشور والصين والهند وغيرها ، فإن تلك الإمبراطوريات الأولى كانت تضم الشعوب إلى حكمها وتدجهم في نفسها وتعاملهم كما تعامل شعوبها . وكانت الشعوب المقهورة تحت نظام الاستغلال تزيد في العدد أضعافاً على عدد السكان في الدول التي تستغلها، فكانت هولندة مثلاً تسيطر على عشرات الملايين في جزائر الهند الشرقية (إندونيسيا الحالية) مع أن سكان هولندة لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة من الملايين، ولهذا كانت الدول المستغلة تتحاشى بقدر استطاعتها أن تفتح أعين أبناء الشعوب المقهورة فكانت تحجب أشعة العلم أن تنفذ إليهم، وكانت تلجأ إلى تقسيم أبنائها إلى أحزاب متنافرة وتقرب منهم من تطمئن إلى ولائه لها رعاية لمصلحته الخاصة ، وتلقى إليهم بقطعة من الغنائم التي تستولى عليها من عرق تلك الشعوب ودماؤها. فكان هؤلاء

أشد ويلا على شعوبهم من أبناء الدول المستغلة نفسها .
 ولا نستطيع في هذه الصفحات القليلة أن نفصل في وصف الولايات
 التي أنزلها نظام الاستغلال بشعوب الأرض ، فكان أبناء أفريقيا وبناتها
 يصادون كما تصاد الوحوش ويعرضون في أسواق الرقيق كما تعرض السلع
 كى يعملوا وهم أرقاء في مزارع السادة المستغلين في الأقاليم التي يسيطرون
 عليها ، وما زال أبناء هؤلاء الأرقاء يقاسون الأهوال في بعض بلاد أمريكا على
 رغم نيلهم الحرية في العصور الحديثة .
 وهكذا أخذت دول أوروبا تبنى ثروتها ومجدها وتنمى حضارتها
 بما سلبته من مستغلاتها .

غير أن هذا النظام وإن عاد بالأرباح الوفيرة على الدول المستغلة ،
 ومكنها من زيادة ثرواتها زيادة كبيرة ومن رفع مستوى معيشة أهلها ، وبناء
 صناعاتها وفتح أسواق البلاد المقهورة لتلك المصنوعات ، كما مكنها من
 الحصول على أرباح طائلة من تجارتها وصناعاتها ، لم يدخل الطمأنينة إلى
 قلوبها بل عاد عليها من ناحية أخرى بنتائج وخيمة . فإن التنافس الشديد
 الذي اشتعل بينها أدى بها إلى مصادمات عنيفة على مر القرون
 فتصادمت معاً في حروب دموية لا محل هنا لذكرها ، ولكن الذى يهمنا
 من هذه المنافسات والمصادمات أنها أدت بهذه الدول المستغلة بعد مرور
 ثلاثة قرون من بدء سيطرتها على شعوب أفريقيا وآسيا أن تعود فتتنافس
 في أطماعها للسيطرة على الوطن العربى في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل

القرن التاسع عشر ، فلإنها فطنت إلى أن الوطن العربي يحتل موقعا جغرافيا ممتازا يتوسط بلاد العالم بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب فمن يسيطر عليه يضمن لنفسه الغلبة على منافسيه . وبدأت دول أوربا توجه أنظارها نحو هذا الوطن منذ القرن الثامن عشر فبعثت إليه عيونها تتجسس على أحواله لأنها كانت تقدم رجلا وتؤخر أخرى في الإقدام على غرة إذ كانت لم تنس بعد تجاربها الماضية في حروبها الصليبية مع العرب .

وكان هيكل الدولة العثمانية المسيطرة على العرب والمفروض عليها حمايتهم ما يزال قائما يخيل إلى من يراه من بعيد أنه هيكل ضخم مخيف ، وما كانت دول أوربا تستطيع الإقدام على مهاجمة الوطن العربي المحتفى بهذا الهيكل الضخم إلا بعد أن تتحقق من مدى القوة الكامنة فيه . واستمر جواسيسها يستطلعون ما في داخل هذا الوطن من معدات الدفاع ، وما تزال تقاريرهم أو بعضها محفوظة في كتب مطبوعة يخلع عليها اسم برىء وهو « الرحلات » وهو اسم لا يدل على ما تنطوي عليه من التجسس للأعداء . ونستطيع أن نرى أمثلة من هذه التقارير في دار الكتب المصرية تحت أسماء من سموا أنفسهم رحالة مثل (ثلثي) و (سفارى) و (سونى) وعشرات غيرهم من جواسيس الاستطلاع .

ولما انتهى هؤلاء الجواسيس في تقاريرهم إلى أن هيكل الدولة العثمانية ما هو سوى صورة جوفاء قد نُخرت من قلبها ، وأن الأمة العربية التي تستظل بذلك الهيكل قد بلغت من العزلة عن الحكم والشئون العامة ما لا يدع

لها طاقة على مواجهة الأعداء إذا هبطوا على وطنها ، بدأت الدول الأوربية تضع خططها للهجوم ، وكانت إنجلترا وفرنسا عند ذلك أكبر الدول الاستغلالية المتنافسة . وقد برهنت الحوادث على أن تقارير هؤلاء الجواسيس كانت صادقة من حيث عجز الدولة العثمانية عن صد الأعداء ، ولكنها قد برهنت أيضاً على كذب ظنونهم من ناحية قدرة الأمة العربية على المقاومة كما سيأتى ذكره ، فإن سر الحياة الكامن فى هذه الأمة كان أخفى من أن يظهر لهم وهم أجانب عن الروح العربى الصميم .

وبدأت فرنسا تجربتها فى مصر والشام على يد نابليون بونابرت فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ثم أعقب هذه التجربة الأولى تجارب أخرى قام بها ملوك فرنسا فى أوائل القرن التاسع عشر فى تونس والجزائر . وجاءت إنجلترا لغزو مصر مرة بعد مرة خلال القرن التاسع عشر - مرة فى أوائله ومرة أخرى فى أواخره ، ثم حاولت دول أخرى أن تقتطع لنفسها نصيباً من الغنائم فهبت إيطاليا فى أوائل القرن العشرين وهبطت على ليبيا . وكان من أعجب الظواهر وأبشعها أن دول أوروبا المتنافسة على استغلال الشعوب كانت تعقد فيما بينها اتفاقات تتعهد فيها (بشرفها) أن تقسم الوطن العربى وأن تحترم كل منها الأخرى فيما تقتطعه من أقطار هذا الوطن . وهكذا ظهرت العلاقات الدولية الأوربية فى مظهر خال من كل مبادئ الأخلاق والإنسانية .

وكانت هذه الدول كلما هاجمت قطعة من الوطن العربى تصدع

هيكل الحكم العثماني فيها فجأة وترك أبناء الأمة العربية وجهاً لوجه أمام القوى الجبارة التي تسوقها إليهم دول الاستغلال ، فهكذا كانت الحال عندما غزا بونابرت مصر والشام ، وهكذا كانت عندما غزت فرنسا شمال أفريقيا أو عندما غزت إيطاليا ليبيا وإنجلترا مصر .

وهكذا استطاعت دول الاستغلال بصدماتها المتوالية على الوطن العربي أن تسيطر عليه بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ هذه الأمة ، فقد كانت دورة التاريخ قد بلغت مداها وكان لابد لها أن تنتهي إلى الدور الخامس الذي تتمزق فيه الأمة بين أعدائها ويصبح مصيرها معلقاً على مقدار ما فيها من الحيوية الكامنة ، فلما أن تفنى ويصير ماضيها العظيم صفحة مطوية من صفحات التاريخ ، وإما أن تنهض من رقبتها الطويلة مترنحة وتستأنف الجهاد مرة أخرى كي تبدأ دورة جديدة من دورات الحياة .

وقد دلت الحوادث على أن الصدمات الشديدة التي أصابت هذه الأمة في ذلك الموقف الرهيب كانت نعمة خفية عليها برغم ما كبدها من الخسائر وما أصابها فيها من الجراح العميقة المؤلمة . لقد وجدت الأمة العربية أنه لا مفر لها من الدخول في معركة طويلة لاستعادة حريتها . وكانت تشعر في أعماقها أن هذه الحرية أنفس من الدماء التي تراق في سبيل استعادتها . وتردد ميزان القضاء بين حياة الأمة وموتها زمناً طويلاً ولكنها كانت تنطوي على حيوية تكمن في أعماقها وعلى ثقة بنفسها وتمسك

بكرامتها ، وعلى عقيدة راسخة في رسالتها الأصيلة التي جعلتها تؤمن إيماناً لا يتزعزع في أن الحياة لا تستحق أن تسمى حياة إذا هي خلت من الحرية . فكانت هذه القوى الهائلة التي تكمن في طبيعة الأمة العربية أقوى من قوة الصلصات الشديدة التي أصابها .

فلنلق نظرة على هذا الجهاد المرير في سبيل الحياة كي نطلع على لحظة من صراع أمة نبيلة لم تنس أنها أمة نبيلة جديرة بالحياة .

فجر الحياة الجديدة للأمة العربية

١ - يقظة مصر

الحملة الفرنسية وما بعدها

لم يعلم (بونابرت) وهو يواجه جيوش (مراد بك) ويخاطب جنوده ليثير كبرياءهم بأنهم سينتصرون في الموقعة المقبلة على مرأى من أربعين قرناً تطل عليه من قمم الأهرام العتيقة ، أن تلك القرون الأربعين تخفى ابتسامة ساخرة من غرور ذلك القائد الكبير ، الذى لم يعلم عند ذلك أنه سيصبح سجيناً بعد خمسة عشر عاماً في جزيرة (سنت هيلينا) المنعزلة وسط المحيط الأطلنطى ، وأن الانتصار الذى أحرزه على فرسان الأمير المملوكى مراد بك كان في الحقيقة طليعة النهضة للأمة التى رآها ضعيفة لا حول لها ولا قوة أمامه . لم يخطر لنابليون أن لهذه الأمة شأنًا في الصراع بينه وبين الحكام المزيفين الذين هربوا أمامه في موقعة الأهرام - أو موقعة إمبابة ، ولكن الحقيقة التى كانت القرون الأربعين تعرفها بطول خبرتها بأحوال البشر تجعلنا نتصورها تعجب من غرور القائد المنتصر الذى حسبها تنظر بالإعجاب إلى انتصاره الباهر . فلنا نحن أن نتمثل هذه القرون وهى تناديه بصوتها الصامت : « إن الأمة العربية لن تموت مهما

بلغت من القوة أيها الجبار الصغير». وهرب مراد من المعركة وتششت جيشه وذهب أمراؤه يبحثون عن ذخائرهم التي جمعوها من عرق الأمة ودمايتها ليهربوا ناجين بها .

وكان شريكه في الحكم إبراهيم بك مرابطاً على ضفة النيل الشرقية يرقب المعركة من بعيد بجيش آخر من مماليكه ، وكان واجبه يقضى عليه أن يبادر إلى استئناف المعركة في شرق النيل بعد أن هزم شريكه في غربه ، ولكنه ما كاد يرى هزيمة صاحبه حتى بادر بالفرار ، ووقفت جموع الشعب في القاهرة مذهولة من المنظر الرهيب وعمها بعد ذهوها ما يشبه اليأس والاستسلام . كانت لا تستطيع أن تهرب من وطنها ، وإلى أين تهرب ؟ وهي لا تقوى على الوقوف في وجه الجيش القاهر الذي شتت جموع الطاغية المتكبر (مراد) . فلم يبق لها إلا أن تحزن وتنتظر وهي تتساءل عن مصيرها .

وحاول (بونابرت) أن يستميل ذلك الشعب المهزوم لأنه كان يعلم أنه هو الحقيقة الباقية وأنه إذا هب فإنه سيعيد سيرة النضال القديم الذي أنسته إياه القرون الخمسة الماضية حين أدخل إلى حماية حكامه وانخدع عن نفسه واطمأن إلى أمن مزيف وبيل العواقب . ولكن الشعب أبى أن ينخدع باسمالة ذلك القائد المنتصر ، ولم يلبث بعد الدهول والدهشة من الصدمة الأولى أن أفاق إلى موقفه وبدأ يتحرك للهوض .

ومضى نابوليون في حربه منتصراً مزهواً بقوته وبعث بكبار قواده إلى

أطراف مصر العليا ليسط سلطانها عليها وإلى حدود مصر الشرقية ليتبع جنود إبراهيم وعسكر الدولة العثمانية وهي تفر أمامه في غير خجل ، ثم ذهب بنفسه ليفتح بلاد الشام كي يطمئن إلى نتائج انتصاره بمصر ويجعل من الشام معقلاً أمامياً يحمي دولته التي كان يطمح في إقامتها في الشرق .

ونفض الشعب العربي في الشام يدافع عن نفسه في بسالة عند (عكا) وأدرك القائد الفرنسي المظفر لأول مرة في حياته أنه عاجز أمام قوة جبارة . ولا نستطيع أن نغفل في هذا المقام فضل أحد الأمراء وهو أحمد الجزائر الذي ميز نفسه عن سائر أقرانه واندمج مع رعيته في الدفاع المجيد عن عكا .

وعاد بونا بورت إلى مصر كسيراً مخدولاً وهو يشعر بأن حلمه الكبير قد تبدد مثل خيال ، وأن الدولة التي كان يحلم بإقامتها في الشرق كانت سراباً في الصحراء ، ولم يلبث في مصر إلا قليلاً ثم تسلل عائداً إلى فرنسا تاركاً وراءه جيشاً حاقداً يفرغ حقه في فكاهات يتندر بها ويلقب القائد الذي تخلى عنه وهرب منه بلقب محرف عن اسمه وهو (بونا تراب) ومعناه بلغتهم الفرنسية (الفخ الجميل) .

وتحرك الشعب ناهضاً ليبدأ جهاده ، وكان جهاداً نبيلاً زاده روعة أنه كان جهاد شعب أعزل يتصدى لجيوش مدربة تملك من العدة ما لا عهد له به ، وتسير على نظام حربي لم تر مثله من قبل . غير أن المجموع العزلاء المواجهة التي لا علم لها بفنون الحرب كانت تندفع بقوة

نابعة من السر الخفى الكامن فى أعماقها . فلم ترهبها نيران المدافع التى كان العدو يصيبها على أحياء القاهرة ، ولم تخضعها فى أعماق الريف والصعيد طواير الجنود الزاحفة عليها تحت علمها ذى الألوان الثلاثة . وبقيت جموع الشعب فى ثورة بعد ثورة ، وتجدت للجهاد فى الريف عصابة بعد عصابة . وسفكت دماء كثيرة من أبناء الشعب الأعزل ولكن تلك الدماء كانت تزيد الثورات اندلاعاً . وبالعجوة جنود فرنسا فى اندفاعهم الأخرق فدخلوا بجيوشهم فى الأزهر وصبوا نيران قذائفهم على حى بولاق فأشعلوه فى حرائق مروعة ، ولكن الثورة لم تخمد بل زادت فى القلوب اشتعالا . وقتل القائد كليبر وهو أشجع قواد الجيش الفرنسى وأفساهم قلباً ، وانتقم الفرنسيون من قاتله (سليمان الحلبي) وكان انتقامهم وحشياً شنيعاً ، ولكن ثورة الشعب زادت مع هذه القسوة اشتعالا . وانتهى أمر هذه الحملة الغادرة إلى فشل لا يقل فى فداحته عن غرورها وشدة قسوتها . وعاد شعب مصر يتلفت حوله متسائلاً ماذا يكون مصيره . ولو شئنا أن ننطق بالصورة التى صورها نابليون وهو واقف حيال الأهرام عند موقعته الأولى ، لقلنا إن القرون الأربعين عادت تطل من قمة الأهرام ناظرة إلى انسحاب جيش فرنسا من مصر وهى تقول كما قال فكتور هوجو شاعر فرنسا وهو يتحدث عن مصير نابليون الأخير « إن المستقبل فى يد الله » .

وبدأ الشعب العربى فى مصر يواجه سادته القدامى مرة أخرى حين عادوا يريدون استرجاع سيطرتهم عليه بعد خروج جيوش فرنسا من

البلاد . عادت جيوش العثمانيين لتحكم البلاد بعد أن ظهر عجزها المتجمل في مقاومة جيوش فرنسا ، وعاد أمراء المماليك ليستعيدوا عسفهم بالشعب بعد أن تبينت حقيقتهم وعجزهم وغرورهم وأنانيتهم وحرصهم على الحياة ، وبعد أن تجلى للشعب أنهم لا يريدون من الحكم إلا أهته وزخرفته وترفه مع أنهم لا يؤدون له ما ينبغى على الحكام أن يؤدوه إلى الشعب من الخدمة والدفاع الباسل . ورفض الشعب أن يمكن هؤلاء أو هؤلاء من التحكم فيه مرة أخرى ، والتف حول الزعيم الذى أظهرته الحوادث الدامية فى السنوات التى أعقبت خروج الفرنسيين من مصر وهو السيد عمر مكرم ، ودخل فى معركة باسلة ضد الحاكم التركى (أحمد خورشيد) الذى كان يحاول إعادة قبضة العثمانيين على الحكم ، ودارت المعركة حول قلعة صلاح الدين التى تحصن الحاكم العثمانى فيها ، واستطاع بعد حصار طويل أن يقهر ذلك الباشا المتكبر العنيد وأن ينزله من القلعة أسيراً ويعيده إلى بلاده مطروداً مع جيشه المخدول ، يحيط به حرس من أبناء شعب مصر من الأبطال الذين كانوا يحاصرون القلعة ، وفى طليعتهم حجاج الخضرى وأبو شمعة الجزار . غير أن هذا الشعب المجاهد لم يقدر له أن ينجى ثمار انتصاره ، فإنه لم يفتن إلى حقيقة نفسه ولم يدرك أن العلة الأولى فى شقائه وحلول الكوارث به هى انصرافه عن حكم نفسه والخلود إلى الطمأنينة فى ظل حاكم أجنبى من الأتراك تعود الشعب على مر القرون أن يدع له مقاليد حكمه . ولو فطن إلى هذه الحقيقة لبادر إلى

اختيار زعيمه الطبيعي السيد عمر مكرم ليكون حاكمه الجديد عقب ذلك الانتصار ، ولكن الزعيم نفسه كان مثل الشعب الذى تولى قيادته فى حصار القلعة فلم يدرك هذه الحقيقة ولم يبادر إلى تولى الحكم كما بادر إلى زعامة الثورة . ويمكن الاعتذار عنه فى ذلك بأن الظروف المحيطة به وبقومه كانت لا تمكنه من تحمل عبء الحكم فى ذلك الوقت . كانت الآفاق عند ذلك مزدحمة بسحب قاتمة ذات بروق ورعود .

فالممالك الذين شردهم الفرنسيون كانوا هناك يتربصون للعودة إلى الحكم ، وكان لا مفر لأهل مصر من مصادمتهم وقتالهم إذا شاءوا منعهم من هذه العودة ، وكان هناك بقية كبيرة من جنود الجيش العثمانى تنتظر أمر السلطان بتعيين خليفة للبasha المطرود ، فلذا تولى زعيم الشعب حكم البلاد كان لابد له من قوة جيش تمكنه من طرد هذه البقية الكبيرة من الجنود المرتزقة ، والقضاء على بقية فرسان الممالك . فلم ير الشعب وزعيمه سبيلا إلى الخروج من هذا الموقف الخطير إلا باختيار قائد تركى يتوسمون فيه الصلاح والخير والبر ليواجه معهم الأخطار الكثيرة المحيطة بهم ، فوقع اختيارهم على محمد على قائد الفرقة الألبانية فى الجيش التركى ليكون شريكاً لزعيمهم أو نصيراً له على مواجهة الأخطار . فنادى به الشعب (باشا) ليتولى حكمه وألبسه السيد عمر مكرم الجبة ذات القراء وهى رمز الولاية فى حفل شعبي عظيم .

غير أن محمد على لم يلبث أن شعر بمقدرته على الغدر فننكر للشعب

ولزعيه بعد سنوات قليلة من تولي الحكم ، ونفى السيد عمر مكرم عن القاهرة ليقم سجيناً في دمياط ، وانفرد بتصريف الأمور وعزل الشعب عن مشاركته في تدبير شئون البلاد . وعاد الشعب إلى عزلته يشعر بخيبة أمل شديدة . وكانت هذه الحمية سبباً في عرقلة النهضة القومية وتأجيل جهاد الحرية لنحو ثلاثة أرباع قرن .

وأسس محمد على ملكاً لأسرته وسخر قوة الشعب وموارده في بناء مجده ، واستبد بأموال البلاد جميعاً وغرته الأمانى فحاول أن يبسط سلطانه على الدولة التركية كلها . ولكن قوى الدول الغربية اجتمعت ضده عند ذلك وكبحت من مطامعه وأرغمته في آخر مدة حكمه على الانكماش في حدود مصر التي كانت تشمل أقاليم الجنوب التي صارت اليوم جمهورية السودان الشقيق .

وتوالى على الحكم بعد محمد على أجيال من أبنائه وحفدته كان كل منهم يشبه أباه في الاستبداد والأنانية وإن كان يقصر كل التقصير عنه في قوة شخصيته وسعة أفقه . فأساءوا التصرف في مصالح البلاد وكان من أكبر آثامهم تسليم (سعيد بن محمد على) مشروع قناة السويس إلى شركة أوربية كانت طليعة لسيطرة الدول الأجنبية على شئون مصر . وجاء بعده إسماعيل حفيد محمد على فجعل على البلاد كثيراً من المشكلات بإسرافه وغروره . ثم جاء بعده توفيق بن إسماعيل فجنى على البلاد أكبر جناية يرتكبها حاكم ضد البلاد التي يحكمها إذ مكن الإنجليز من احتلالها .

وكان طغيان محمد على وسوء تصرف سعيد وتفريطه في مصالح شعب مصر وإسراف إسماعيل وغروره، مما جعل الشعب يتحرك مرة أخرى ليستأنف الجهاد الذي كبته محمد على واستغله لمصلحة نفسه وأسرته، وبدأت حركة شعبية قوية في زمن إسماعيل وزادها شدة أن دول الغرب بدأت تتدخل في شئون الحكم في البلاد. فإنتهى حكم إسماعيل حتى اندلعت ثورة الشعب وتصدى لزعامتها أحمد عرابي، وكان شعارها الحديد يمثل الحقيقة التي أخذت تتجلى واضحة لشعب مصر مع توالي النكبات وخيبة الآمال، فقد كان شعارها أن حكم مصر لن يكون لغير أهلها من أبناء الأمة العربية. فالحركة العرابية هي استئناف جهاد الحرية بعد أن مضى على عصر السيد عمر مكرم نحو ثلاثة أرباع القرن.

غير أن هذه الثورة لم يقدر لها النجاح أيضاً لأن الحاكِم المتهاك توفيق بن إسماعيل لجأ إلى الدول الأجنبية لحماية شخصه والحفاظة على ملكه.

فانتهت ثورة الشعب مرة أخرى إلى نكبة جديدة وهي نكبة الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ وكانت هذه النكبة سبباً في عرقلة سير النهضة القومية لمدة سبعين عاماً أخرى.

٢- يقظة شعب المغرب العربي

تعاقب على حكم بلاد المغرب منذ القرن الثالث عشر بعد دولتي المرابطين والموحدين دولة بني مرين التي استمر ملكها أكثر من ثلاثة قرون، ثم دولة السعديين التي وليت الحكم من عام ١٥٢٤ إلى عام ١٦٦٨، ثم دولة العلويين التي ما تزال إلى الآن تتولى الملك في المغرب منذ عام ١٦٦٨. وكان لهذه الدول الثلاث المغربية العربية الأصيلة أعظم فضل في الدفاع عن الوطن العربي في المغرب أمام المحاولات المتوالية التي أرادت دول الاستغلال الأوروبية أن تخضعه لسيطرتها. فقاوم بنو مرين غزوات البرتغال وقاوم العلويون هجوم الإنجليز والفرنسيين. فلم تتمكن الدول الأجنبية من التدخل في شئون دولة المغرب على توالى القرون برغم ما بذلته تلك الدول في سبيل ذلك من الجهود الشديدة. وانتهى القرن التاسع عشر إلى نهايته، وما تزال دولة العلويين مستقلة ترفع علمها العربي على ربوع بلاد المغرب العربي الفسيحة، بل إنها استطاعت في مدة هذه القرون أن تمد سلطانها في ظل السلام على كثير من الأقاليم التي حولها من ناحية الجنوب، وإليها يرجع الفضل في انتشار الإسلام في الصحراء الكبرى وفي مسابب السودان.

غير أن الدول الأوروبية استطاعت في محاولاتها المتوالية أن توقع

بها بعض الجراح فاقتطعت منها بعض قطع على سواحل البحر على أمل مواصلة الزحف منها إلى داخل البلاد . ولكنه أمل لم يتحقق لها على توالى السنين .

فعندما غزا البرتغاليون أرض المغرب في أواخر القرن السادس عشر ونزلوا في طنجة ، واجههم الملك السعدى عبد الملك وردهم على الأعقاب منهزمين ، وأعاد الإنجليز الكرة على بلاد المغرب بعد اندحار البرتغال ولم يتمكنوا برغم محاولاتهم الكثيرة إلا من اقتطاع (طنجة) والسيطرة عليها لمدة قصيرة .

وتقربت الولايات المتحدة إلى دولة المغرب منذ استقلالها في القرن الثامن عشر ، وعقد واشنطن الكبير أول رؤسائها محالفة مع سلطان المغرب العظيم محمد بن عبد الله العلوى شاكراً له مساعدات المغرب لدولته الناشئة في الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي .

وكانت فرنسا أشد دول الغرب في توالى محاولاتها للسيطرة على بلاد المغرب وأتيحت لها فرصة سانحة في أواخر القرن التاسع عشر عندما ولي ملك المغرب السلطان الشاب الصغير عبد العزيز فأخذت تعمل بمساعدة بعض الدول الأوروبية الأخرى على تدبير المؤامرات على الحكم الوطني ، وإثارة الثورات الداخلية ضده ، وتمكنت آخر الأمر من احتلال الدار البيضاء (كانزا بلانكا) والرباط وفاس في عام ١٩١٢ في أول القرن العشرين ، ثم بسطت حمايتها على هذه المملكة ذات التاريخ المجيد والحضارة العربية

العتيقة . فكانت تلك صدمة شديدة حركت كل ما في الشعب العربي المغربي من قوى كامنة للجهاد في سبيل رفع تلك الحماية المزرية بكرامة الدولة والشعب جميعاً ، فكانت صدمة مباركة لشعب المغرب وإن جاءت متأخرة في أول القرن العشرين .

٣- بدء يقظة العرب في شمال أفريقيا

كان مصير الشعب العربي في شمال أفريقيا محالفاً لمصير المغرب العربي ، فإن ذلك الجزء من الوطن العربي كان داخلاً في حدود الدولة العثمانية التي شملت بسيطرتها كل بلاد المشرق العربي .

وكان إقليم طرابلس الغرب أول ما ضمته الدولة العثمانية من شمال أفريقيا إلى ملكها لحماية من هجوم أسبانيا عليه في أوائل القرن السادس عشر فبعث السلطان العثماني جيشاً بقيادة (مراد أغا) لطرد الأسبان ، فلما تم له الانتصار أبقى هناك فرقة من الجيش العثماني للسهر على حماية البلاد إذا عاد الأعداء إليها . وما يزال مسجد ذلك القائد العثماني الأول قائماً في مدينة تاجورة في شرق مدينة طرابلس كأثر باق يذكر بحوادث ذلك العصر البعيد .

ومن ذلك الوقت أخذت سيطرة العثمانيين تمتد شيئاً بعد شيء إلى إقليم الجزائر ثم إلى تونس ، وكان حكمهم لتلك البلاد مشابهاً لحكمهم في

مصر؛ إذ كانت سياسة الدولة العثمانية تقوم على تولية حكام من قبلها يستند كل منهم إلى فرقة من الجيش لضبط الأمن في البلاد وجباية الضرائب من أهلها، بغير أن ترسم لهم خطة في طريقة الحكم أو تنمية موارد البلاد. وكانت الحكومة العثمانية المركزية تتولى بنفسها توجيه الحكم بفرمانات يصدرها السلطان كلما دعا الأمر إلى ذلك. فامضى على الحكم العثماني أكثر من قرنين حتى انصرفت الدولة العثمانية إلى المشكلات الكبرى التي واجهتها في حكم الشعوب الخاضعة لها في أوربا فشغلتها هذه المشكلات عن التفرغ لمراقبة أساليب الحكم في الأقطار العربية في آسيا وأفريقيا. فشعر الحكام الترك في هذه الأقطار العربية بضعف رقابة الدولة المركزية عليهم، وحاول كل من آنس من نفسه القوة في تلك الأقاليم أن يسيطر على إقليمه ويستقل بحكمه، مع حفظ مظاهر السيادة للسلطان العثماني. ففي بلاد ليبيا قام أحد ضباط الجيش التركي المرابط في طرابلس بانقلاب عسكري، وانتزع الحكم لنفسه وأعلن استقلاله بالولاية وأصبح اسم السلطان العثماني وحده رهزاً على سيادة العثمانيين عندما يدعو له الخطباء على منابر المساجد في أيام الجمعة. واستطاع ذلك الضابط واسمه أحمد بك القرمانلي أن ينشئ في طرابلس دولة ذات هيئة وقوة، وبقي الحكم في أسرته القرمانلية نحو مائة وعشرين عاماً من سنة ١٧١٤ إلى ١٨٣٥ ثم عاد الحكم العثماني إلى السيطرة على البلاد. وقد حدث مثل هذا في الجزائر وفي تونس، وكان الحكام في كل الأحوال يتخذون لأنفسهم

ألقاباً تميزهم وتشعر باستقلالهم وإن كانوا دائماً يحتفظون بالولاء الاسمي للسلطان العثماني ، ففي تونس اتخذ الحاكم لقب الباي ، وفي الجزائر اتخذ لقب الداي ، وصار الحكم ينتقل بالوراثة من الحاكم المسيطر إلى خلفه من أسرته .

واستمرت محاولات دول أوروبا لغزو بلاد الشمال الأفريقي، كما استمرت لغزو بلاد المغرب العربي على النحو الذي ذكرناه ، واشتدت هناك حركة مقاومة شديدة لهذه الغزوات ولا سيما في البحر ، فكان أهل البلاد ينشئون السفن ويحولون بها في البحر الأبيض المتوسط فيتعرضون للسفن الأوروبية ومن أجل هذا اشتهرت سواحل الشمال الأفريقي بين دول أوروبا بأنها مكان لصقور البحر العرب الذين كانوا يعرفون عند الأوروبيين باسم القرصان .

واتخذت دول أوروبا من هذه الحركة وسيلة للتدخل في شئون الجزائر وتونس وليبيا على السواء ، وكانت فرنسا أول من اتخذها ذريعة لاحتلال الجزائر . ففي عام ١٨٣٠ حدثت مشادة بين داي الجزائر وممثل فرنسا ، فلوح الداي إلى قنصل فرنسا بمغذبة كانت في يده فتدعرت فرنسا بهذه الحادثة الصغيرة وجعلتها حجة لها لتسوغ إرسال حملة حربية لاحتلال البلاد . وانهارت مقاومة الداي التركي عند أول صدمة كما سبق أن انهارت قوة المماليك في مصر عند أول اصطدام مع جيوش بونابرت ، وترك الشعب الجزائري وجهاً لوجه أمام قوى فرنسا ، كما ترك المماليك وجيش الترك شعب

مصر من قبل أمام قوى بونابرت في آخر القرن الثامن عشر . وهب الشعب الجزائري للجهاد بقيادة الزعيم الكبير عبد القادر الجزائري واستمر جهاده إلى عام ١٨٤٨ حين تغلبت عليه القوى التي حشدتها فرنسا لحربه فأسر ونفى . ولكن مقاومة الجزائر بقيت مستمرة ، فلم تكف نيرانها تخبؤ في إقليم أو آخر من أقاليم الجزائر الفسيحة . وعمدت فرنسا إلى طريقة جديدة في تعزيز سيطرتها على الجزائر الباسلة فحشدت ألوفاً من الفرنسيين وبعثت بهم ليستوطنوا بها حتى بلغ عددهم ألف ألف على مر السنين وصار هذا العدد الضخم مثل جيش قائم في الجزائر ليساعد على إخاد ثورات أهلها . ثم أعلنت فرنسا ضم الجزائر إليها واعتبرتها قطعة من وطنها ، وأخذت تعمل جاهدة على إخاد روح الجهاد في شعبها بوسائل شتى من القهر والظلم والقسوة . فتزعت الأرض الحصبة من أصحابها وشردهم إلى المدن ليعيشوا بها غرباء عاطلين ، وأحلت في أرضهم شرادم من المستوطنين الذين بعثت بهم ليغتصبوا ثروة البلاد من أهلها . وعمدت إلى القادة والأحرار فقلذت بهم إلى السجون أو شردهم في البلاد العربية الأخرى واضطرت الكثيرين من كرام البلاد إلى التزوح إلى فيافي الصحراء .

فهذه الكوارث التي حلت بشعب الجزائر كانت هي الأخرى باعثاً قوياً على اشتداد حركة المقاومة والتحرير ، وبلغ شعب الجزائر اليوم بفضل هذه الكوارث قمة الوعي والتحرك نحو حياة حرة جديدة .

وأما تونس فقد تأخر عدوان فرنسا عليها بنصف قرن ففرضت حمايتها

عليها في عام ١٨٨٠ وكانت حجتها في ذلك الاعتداء مثالا لشناعة السياسة التي اتبعتها دول الاستغلال حيال الشعوب العربية . فقد وافقت إنجلترا على أن تطلق يد فرنسا في الاعتداء على تونس لقاء موافقة فرنسا على إطلاق يد إنجلترا في احتلال جزيرة قبرص من الدولة العثمانية . وسوخت فرنسا اعتداءها على تونس بأنه ضروري لإخضاع مقاومة الشعب الجزائري .
الناظر .

واتخذت فرنسا هذه الحماية التي فرضتها على تونس ذريعة إلى اغتصاب الحكم فيها حتى أصبحت هي الدولة الحاكمة ، وصار الباي وهو الحاكم الرسمي للبلاد صورة جوفاء لا حول له ولا قوة مع ممثل الحكومة الفرنسية .

وقد كان لهذا الاعتداء الفرنسي على حرية تونس مثل الأثر الذي يحدثه الاعتداء الأجنبي في العرب دائماً ، فبدأ الشعب التونسي يستيقظ ويتحرك ويطالب باستعادة حريته حتى استطاع أن يتخلص من كثير من قيوده في أواسط القرن العشرين .

٤ - يقظة الشعب السوري والعراقي

كان للشعب العربي في سوريا قصة تختلف في كثير من تفاصيلها عن سائر الشعوب العربية إذ كانت بلاد الشام أقرب الأوطان العربية إلى السلطنة العثمانية ولعلها كانت أوثق هذه الأوطان اتصالاً بها .

وقد بقيت سوريا داخل حدود الدولة العثمانية بعد أن خرجت عنها مصر منذ أيام محمد علي وبعد أن خرجت عنها بلاد الشمال الأفريقي واحدة بعد الأخرى خلال القرن التاسع عشر .

ولما رأى شعب سوريا ما صارت إليه أحوال الأوطان العربية الأخرى من الاحتلال الذى أدى إلى استيلاء الجيوش الأجنبية عايتها ، بدأ يتحرك إشفافاً على إخوانه وإشفافاً على نفسه أن يكون مصيره مثل مصيرهم . ورأى زعماءه أن السر فيا أصاب الأمة العربية هو أسلوب الحكم العثماني وحالة الحكام في الدولة العثمانية وهو الأسلوب الذى باعد بين الحكام والشعوب وأدى إلى انعزال الشعوب عن حكم نفسها . وانتهى تفكير هؤلاء الزعماء إلى أن خلاص الأمة العربية يتوقف على تغيير هذا الأسلوب وإقامة الحكم على أساس ديمقراطى لا مركزى يمكن الشعب العربى من حكم نفسه بنفسه في ظل الدولة العثمانية الشاملة . ولكن كل المحاولات في سبيل الإصلاح ذهبت سدى ، فقد بلغ الفساد في الحكم العثماني مبلغاً استعصى معه كل علاج . وقامت ثورة داخلية في تركيا في أول القرن العشرين ضد نظام الحكم الاستبدادى العثماني وانتظر العرب في سوريا وغيرها أن تؤدي هذه الثورة إلى الإصلاح المنشود . ولكن الآمال التي أشرقت عليهم لم تلبث أن تبددت ، لأن الثوار كانوا أشد جموداً في سياستهم نحو الأمة العربية من الحكومات المستبدة السابقة . فيش زعماء الشعب السورى من نجاح خطة الإصلاح المرجوة . ثم قامت الحرب

العالمية الأولى وتظاهرت دول أوروبا الغربية بالعطف المخادع على أماني العرب ، وكانت الخديعة الكبرى التي أضمرتها هذه الدول للعرب سبباً في تعقيد كبير في موقف سوريا ، أدى إلى تأجيل تحرر الشعب السوري نحو نصف قرن كما سنذكر بعد .

وكانت قصة الشعب العربي في العراق شبيهة بقصة شعب سوريا إذ بقي العراق في داخل حدود الدولة التركية مثلما بقيت سوريا ، وأصابه من الحكم العثماني مثل ما أصابها ، فكان نخبة أمل الشعبين في إصلاح نظم الحكم التركي وفي تحقيق أمانهم من الاستقلال في نطاق الدولة التركية الشاملة وقع شديد على زعماء الشعبين .

وبدأت حركة عنيفة تدعو إلى التحرر والانفصال عن هذه الدولة ما دامت لا تريد التطور بنظم حكمها الفاسد الذي يصر في عناد على كبح حريات العرب وبأنبي إلا أن يسيطر على الشعوب العربية ويبقيها رعايا خاضعة لا شأن لها بحكم نفسها ولا في إصلاح أحوالها .

حركات التحرر العربية في القرن العشرين

١ - الصدمات تهز الأمة العربية

منذ عادت دول أوروبا لغزو الوطن العربي من أواخر القرن الثامن عشر على النحو الذي أجملناه ، وبدأت الشعوب العربية تهتز للدفاع عن نفسها ، تبين للمفكرين العرب أن الأخطار التي تهدد حياة الأمة في كل مكان واحدة ، وأن مصير الشعوب العربية في مختلف الأوطان واحد ، وأن هذه الأمة إذا أرادت أن تبقى على حياتها في تلك العواصف الشديدة التي هبت عليها كان عليها أن تفكر لنفسها وأن تتعاون فيما بينها ، كما تبين لهم أن الهزائم التي أصابت الشعوب العربية نشأت عن مواطن ضعف أساسية ينبغي للأمة أن تعمل على إصلاحها جاهدة حتى تستطيع أن تواجه الأخطار التي تهددها . وقامت من أجل هذا دعوات إصلاحية عدة في أنحاء مختلفة من الوطن العربي ، ففي جزيرة العرب قامت الدعوة الوهابية التي كانت صرخة عالية تدعو إلى النظر في حال العرب وتنبيههم إلى طائفة من وجوه الإصلاح التي يرجى منها أن تعيد إليهم حيوتهم ، وفي الوقت عينه أو قريباً منه قامت دعوات أخرى مشابهة مثل الدعوة السنوسية التي كانت صرخة أخرى تدعو العرب إلى وجوه من الإصلاح تكفل لهم المقدرة على مقاومة الأخطار التي تهدد حياتهم وإلى جانب

هذه الدعوات التي اتخذت صور الفرق الإصلاحية الدينية ظهر عدد من نوابغ المفكرين الذي قاموا بدعوات إصلاحية عامة بغير أن يكون لدعواتهم صور الفرق الدينية، ومن أمثالهم: السيد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده المصري وعبد الرحمن الكواكبي الحلبي . وبدأت هذه الدعوات على اختلافها تحدث أثرها في الأمة العربية فأدركت أن مشكلاتها الكبرى واحدة وأن مصيرها جميعاً معلق على ضم صفوفها وإصلاح أمورها والتعاون فيما بينها لإقامة حياتها على أسس جديدة من مبادئ دستورها الذي غفلت عنه طوال مدة خمودها واعتزالها الحكم وتخليها عن الدفاع عن نفسها . وقامت على أثر ذلك أحزاب وجمعيات شتى بعضها سياسى ، وبعضها اجتماعى ، وبعضها تعليمى أو علمى لتدبير الوسائل العملية لإحداث الإصلاح الذى أحس الجميع بضرورته . وكانت بعض الجمعيات السياسية تلجأ إلى التخفى عن عيون حكام البلاد الذين كانوا لا يرتاحون إلى تحريك الشعوب التى يتحكمون فيها ومن بينها جمعية (الرابطة العربية) التى أخذت تبث دعوتها سراً فى الشام والعراق خشية من بطش الحكام العثمانيين . وقامت جمعية تونس الفتاة فى تونس، والحزب الوطنى فى مصر . وكانت جميعاً تدعو إلى مقاومة هجمات دول الاستغلال إلى جانب دعوتها إلى إصلاح ما اختل من أحوال الأمة . فى مطلع القرن العشرين كانت الحركة القومية تهز البلاد العربية من أقصى شرقها إلى أقصى غربها لاستعادة الحرية والمجاهدة ضد الاستغلال الأوربى .

فالقرن العشرون بالنسبة إلى الأمة العربية يعادل القرن الخامس عشر بالنسبة إلى الشعوب الأوروبية في أن كليهما شهد حركة عامة شاملة تتطلع إلى الحرية وإلى الانطلاق . غير أن القرن العشرين كان يشهد أيضاً مأساة أمة نبيلة بدأت تتحرك وتفكر لنفسها وهي تشعر بقيود ثقيلة تكبلها وتعرقل حركتها . وكانت المشكلة الكبرى التي تبدو معضلة أمام الأمة العربية هي مشكلة هذه القيود ، والتماس الوسائل التي تستطيع بها أن تحطمها . وكان تحطيم تلك القيود يبدو في بعض الأحيان معضلاً ولا يمكن إلاً بمحسوث معجزة ، والمعجزات لا تحدث عند انتظار وقوعها ، ولا يتنبه إليها الناس في أول وقوعها . ولكن المعجزة حدثت في أوائل القرن العشرين على غير انتظار وكان ظهورها في الوطن العربي الصغير الذي تقوم فيه اليوم المملكة العربية الليبية .

٢- المعجزة العربية في ليبيا

في عام ١٩١١ هاجمت الجيوش الإيطالية طرابلس الغرب وكانت إلى ذلك الحين هي البقية الباقية من شمال أفريقيا العربي الداخل في دولة الترك العثمانيين .

كانت فرنسا قبل ذلك قد استولت على الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ وفرضت حمايتها على تونس منذ سنة ١٨٨٠ وأخذت تتغلغل شيئاً بعد

شئ في حكم بلاد المغرب العربي منذ ١٩٠٤ وكانت لإنجلترا قد احتلت مصر منذ سنة ١٨٨٢ وسيطرت على السودان منذ ١٨٩٩ . وكانت إيطاليا آخر الدول الأوروبية في تحقيق مطامعها الاستغلالية لأنها لم تتكون كدولة موحدة إلا في سنة ١٨٧٠ . فلم تجد أمامها إلا هذه البقية من العالم العربي لتجعلها نصيبها من الغنائم .

وما كادت جيوش إيطاليا تصدم الحكم العثماني في طرابلس حتى انهار كعاداته سريعاً وعقد السلطان صلحاً مع إيطاليا في خريف سنة ١٩١٢ وترك الشعب العربي الليبي وجهاً لوجه أمام جيش ضخم قوى العدة يوجه كل ما لديه من وسائل العلم وآلات الحرب لإخضاع شعب لا يزيد عدده على مليونين يكاد يكون أعزل من السلاح وخلوا من الأموال . واهتز أبناء الأمة العربية في كل قطر من الأقطار هزة شديدة حين سمعوا أخبار النكبات التي بدأت إيطاليا تصبها على الشعب الليبي ، وكان وعى العرب عند ذلك قد تنبه على أثر الدعوات الإصلاحية التي توالى منذ أواخر القرن الثامن عشر . فكانت مأساة العرب هناك مأساة للعرب جميعاً وأحسوا بآلامها كما يحس الجريح حين ينكأ جرحه القديم ، وهبوا إلى نصرة إخوانهم برغم القيود التي تثقلهم وتعرقل حركتهم ، فشاركوا بما استطاعوا في جهادهم ضد القوى الجبارة التي تهاجمهم . وبدأ الجهاد العنيف الذي مثلت فيه الشعوب العربية جميعاً بوفود من المغرب العربي وأخرى من المشرق العربي ، وكانت مفاجأة مدهشة حين رأى العرب جميعاً

أن الجيوش الإيطالية الضخمة بكل ما لها من عدد وما تملك من عدة تقضى الشهر بعد الشهر والعام بعد العام وهى عاجزة عن إخضاع الشعب المجاهد الصغير . ومرت ثلاث سنوات أو أربع قبل أن يتمكن الجيش الإيطالى من السيطرة على ربوع ليبيا .

غير أن الحرب العالمية الأولى بدأت فى خريف سنة ١٩١٤ ، وما كادت تبدأ حتى عاد العرب فأضرموا نيران الحرب على أعدائهم . وفى أشهر قلائل كان جيش إيطاليا قد تقهقر مهزوماً إلى قواعد محصورة على شواطئ البحر وأصبح مثل السجين فيها ، واضطر الإيطاليون إلى محاولة الصلح مع العرب ، واستمر جيشهم محصوراً فى شريط ضيق على ساحل البحر إلى أن انتهت الحرب العالمية الأولى ومضى بعدها أربع سنوات أخرى وحدث الانقلاب الكبير فى إيطاليا وقبض الفاشست على زمام الحكم وصار موسوليني حاكماً بأمره فيها .

فكان لهذا الجهاد العظيم أكبر أثر فى نفوس العرب كافة وامتألت قلوبهم ثقة بأنفسهم وأملا فى مستقبلهم .

لقد ضرب الشعب العربى الليبي مثالا للبراعة فى جهاده وهو قليل العدد والعدة أمام جيوش ضخمة من دولة كثيرة العدد ضخمة الموارد بالنسبة إليهم، ولما من عدة الحرب ما لا يملك العرب منه شيئاً من طائرات وسيارات ومدافع وأساطيل جراحة . ومع هذا فقد أعجز هذا الشعب تلك الدولة المعتدية وأجأها بعد حرب مستمرة لمدة خمس سنوات إلى أن (١٦)

تنكمش وتنهصر في رقعة ضيقة من الساحل ثم أن تسعى إلى مصالحهم وتعترف لهم بالاستقلال .

لقد حدثت هذه المعجزة تحت الأبصار المتطلعة من الأمة العربية ، فأدخل إلى قلوبها الأمل في أنها تستطيع هي الأخرى أن تجاهد بعددتها القليل وعدتها الضعيفة وأن تنتصر على أعدائها الأقوياء على رغم ما يحشدونه لها من الجيوش الحاررة والعدد الجبارة .

٣- جهاد شعب مصر

من الاحتلال إلى الاستقلال

رأينا كيف هب شعب مصر في أيام الخديو توفيق نائراً على الحكم الذي فرض عليه منذ استبد به محمد علي في أوائل القرن التاسع عشر، لأنه أدرك إدراكاً جلياً أن الكوارث التي أصابته والمشكلات التي تعقدت حوله إنما نشأت من سيطرة الأتراك الأجانب الذين اعتمدت عليهم أسرة محمد علي في التمكين لسلطانها ، فكان منهم حكام الأقاليم ومنهم قادة الجيش ، ولم يكن لأبناء الشعب العربي المصري إلا نصيب ضئيل في إدارة شئون بلادهم أو في القيادة العليا لجيشهم .

والتجأ توفيق إلى الدول الأجنبية لحمايته من ثورة الشعب ، فزادت الثورة اضطراباً في قلوب أهل مصر وتزعهم أحد كبار قواد الجيش

المصريين وهو أحمد عرابي ونادوا بعزل ذلك الخديو الخائن وأسقطوا حكمته وأنشأوا حكومة وطنية خالصة وكان شعار هذه الثورة أن مصر للمصريين .

وعزموا على مواجهة المشكلات المعقدة التي خلفتها لهم سياسة الحكم الأجنبي الذي سيطر على شئونهم طوال القرن التاسع عشر .
غير أن التجاء الخديو توفيق إلى حماية الدول الأجنبية كان فرصة سانحة لتلك الدول لتخضع مصر لسلطانها كما أخضعت فرنسا بلاد الجزائر وتونس من قبل . وسارعت فرنسا إلى إظهار رغبتها الشديدة في اتخاذ الوسائل القهرية للتدخل في مصر .

وكانت إنجلترا تخفي رغبتها القوية في ذلك وتظاهرت بأنها توافق على خطة فرنسا وهي تضمر العزم على الانفراد بالغنيمة ، حتى تقبض على ناصية قناة السويس التي كانت تطمح في السيطرة عليها منذ إنشائها .
وبعثت الدولتان أسطولا إلى الإسكندرية يشتمل على سفن من الدولتين ، وأخذت إنجلترا تدبر خططها في الخفاء كي تصل في النهاية إلى الانفراد باحتلال مصر ، واستطاعت أن تحقق تلك الخطط فلم تلبث أن نجحت في إبعاد شريكها عن التدخل ، واعترفت هذه الشريكة آخر الأمر بأنها قد خدعت عن الفريسة التي كانت تريد الإسراع باقتراسها .

واستخدمت إنجلترا في خططها لإخضاع ثورة مصر كل ما خلقت في تجاربها الاستغلالية مع شعوب أفريقيا وآسيا من أساليب الخداع ،

واستخدمت تابعها الخديو الخائن في بث الدعاية للتفريق بين صفوف أهل مصر واستطاعت في النهاية أن تنتزع انتصاراً رخيصاً على الجيش المصرى الذى كان يمثل الثورة القومية المصرية ، وقبضت على الزعماء الوطنيين فشردت منهم فريقاً وأعدمت فريقاً .

وكانت هزيمة الجيش والقضاء على ثورة الشعب صدمة عنيفة للآمال العربية في مصر وهى الصدمة الثانية التى أصابت هذه الأمة بعد خيبة آمالها من قبل في ثورة السيد عمر مكرم .

ونجم الوجوم على الشعب واعتراه شيء يشبه الدهول أو يقرب من اليأس حين رأى أن محاولته في التحرر تصطدم بالحقبة مرتين في قرن واحد ، غير أن هذا الوجوم لم يكن سوى أثر وقى للصدمة ، فلم يمحض على الاحتلال الإنجليزي إلا سنوات قلائل حتى بدأ شعب مصر يستجمع لإرادته ويستعيد نشاطه ويستأنف الجهاد الذى بدأه في أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت أكبر مظاهر هذا النشاط الجديد عودة الحياة إلى الحزب الوطنى الذى تألف من قبل في أواخر أيام إسماعيل ، وكان شعاره الأكبر مقاومة الاحتلال حتى يحل الأجنبي عن البلاد . وكان الموقف ما يزال معقداً كما كان في أوائل القرن . كان أمام الشعب المصرى قوة المحتل الأجنبي ، وكان أمامه قوة الأجنبي الآخر وهو الحاكم المنحدر من سلالة محمد على ، وهو يستند إلى حماية الاحتلال الإنجليزي وينخفض له وينفذ إرادته مرغماً أو راضياً .

ولا يتسع المجال في هذا العرض الموجز لتفصيل ما أصاب البلاد من النكبات على أيدي الاحتلال الإنجليزي وأعوانه، ولا تتبع جهاد الشعب خلال مدة الاحتلال التي تطاولت إلى أكثر من سبعين عاماً، وحسبنا أن نقول إن قوى مصر ومواردها كانت طوال هذه السنوات السبعين تسخر لخدمة الاحتلال ، وتحقيق مصالح إنجلترا السياسية . فسخر الإنجليز جيش مصر في فتح السودان وإخضاع الثورة المهدوية التي كانت مثل الثورة المصرية ترمى إلى التخلص من الحكم الفاسد الذي كان السودانيون يعرفونه بحكم الترك ، ولما تم للإنجليز ذلك الفتح على أيدي أبناء مصر عمدوا إلى انتزاعه لأنفسهم ومهدوا لجعله مستقلاً خاصاً بهم ، وأرغموا الحكومة الخديوية على الاعتراف لهم بتعيين الحاكم العام . ثم أحكموا قبضتهم على قناة السويس مع تركهم لإدارتها في أيدي الفرنسيين كقطعة تلتق إلىهم من الغنيمة .

ولم تنس فرنسا خديعة إنجلترا لها في الانفراد باحتلال مصر فأضمرت في نفسها غداء خفياً كان يظهر بين حين وآخر في صورة منافسة ضئيلة أو في صورة تشجيع للمصريين في طي الحفاء على المقاومة . لكنها عدلت عن هذه السياسة الهزيلة عندما ألفت إليها إنجلترا بقطعة أخرى من غنائم الاستغلال ، فعقدت معها اتفاقية في عام ١٩٠٤ يطلق عليها اسم « الاتفاق القلبي » وهو أشبه شيء بالاتفاق بين القرصان، فتعهدت بإطلاق يدها في بلاد المغرب العربي لقاء تعهد فرنسا بإطلاق يدها في

مصر . ونخيل إلى إنجلترا أن جو السياسة قد صفا لها، وأنها قد اطمأنت إلى رسوخ قديمها عبر قناة السويس ، وأمنت على تمكن قبضتها من طرفى وادى النيل . وفى عام ١٩٠٦ حدثت حادثة دنشواى وهى قرية من قرى مصر السفلى بين فرعى النيل الأدنى فى إقليم المتوفية ، فابتدأت باعتداء بعض الجنود الإنجليز على أهل القرية وانتهت بمحاكمة من أشنع المحاكمات لأهل القرية الذين اعتدى الإنجليز عليهم . وأراد ممثل الحكومة الإنجليزية (وهو لورد كرومر) أن يجعل تلك المحاكمة مثالا يضربه للمصريين جميعاً ليعلمهم الخضوع والخنوع للأجنبي المحتل حتى لا يجرؤوا أن يرفعوا جباههم أمامه ، وانتهت هذه المحاكمة إلى الإيقاع بعدد كبير من أهل القرية بين القتيل والسجين وبين التعذيب والإذلال بضرب السياط علناً على مرأى من الأهلى الذين انطوت قلوبهم على جرح عميق من الأسى والغضب والثورة . وكانت حادثة دنشواى تشبه الشرارة التى تنطلق وتحدث الانفجار . فهب زعيم الحزب الوطنى عند ذلك وهو المجاهد الكبير مصطفى كامل ليعان سخط الشعب جميعاً على ذلك العسف الشديد ، والتفت جماهير الشعب حول زعيمها الجديد الشاب ، واضطرت الحكومة الإنجليزية إلى سحب ممثلها الطاغية اللورد كرومر فى عام ١٩٠٨ .

فكان ذلك أول انتصار أحرزه الشعب ضد قوى الاحتلال الضخمة . ولم تمض بعد ذلك إلا ستان ثم حدثت حادثة أخرى كان لها أثر شديد فى اشتداد حركة المقاومة ، فقد أراد الإنجليز أن يحصلوا على موافقة الحكومة

المصرية على مـد الامتياز الجائر الذى ظفرت به شركة قناة السويس فى زمن سعيد بن محمد على . وهب الشعب المصرى غاضباً مرة أخرى بزعامه الحزب الوطنى ، الذى فقد زعيمه الكبير . مصطفى كامل منذ عام ١٩٠٨ ، ولم يسع الإنجليز إلا التقهقر مرة أخرى أمام غضبة الشعب الذى رفض تجديد ذلك الامتياز ، فكان ذلك انتصاراً قومياً جديداً فى المعركة الطويلة مع قوى الاستغلال .

وعملت الحكومة الإنجليزية منذ عزل اللورد كرومر على توثيق عرى التعاون بينها وبين الخديو عباس الثانى الذى تولى بعد موت أبيه توفيق فى سنة ١٨٩٢ كى تستعين به على مقاومة الثورة التى بدأت بوادرها تظهر فى شعب مصر ، واتمست إلى ذلك كل الوسائل التى هدتها إليها تجاربها الاستغلالية ، ونجملها فى عبارة قصيرة واحدة وهى أن تسمح للخديوي بأن يشاركها فى استغلال الشعب والقوز بقطعة من الغنائم المسلوقة من كده وعرقه .

فأقبل الخديو على جمع الثروة لنفسه بوسائل يأبأها شرف الحاكم النزيه ، فكان ذلك عاملاً جديداً على اشتداد غضب الشعب وسخطه على الاحتلال وشريكه فى الاستغلال .

فلما اندلعت فى سنة ١٩١١ نيران الحرب الإيطالية فى بلاد ليبيا وكانت عند ذلك تعرف بولاية طرابلس الغرب ، رأى شعب مصر أمام عينيه كيف يمكن للشعوب أن تقوم بمعجزة فى دفاعها وكيف استبسل

الشعب الليبي الأعزل في مقاومة القوى الضخمة التي وجهتها إيطاليا إليه من وراء البحر لقمهره والسيطرة على بلاده ، فذهب إلى مساعدة إخوانه المجاهدين بكل ما يستطيع أن يساعد به من مال وعدة ومؤونة على رغم القيود التي كبله بها الاحتلال ، وتطوع بعض أبناء مصر للجهاد مع إخوانهم وما يزال بعض هؤلاء المجاهدين يعيشون إلى اليوم بيننا ، ولسنا نغالي إذا قلنا إن شعب مصر جميعاً كان يشارك المجاهدين في ليبيا بقلبه ولسانه ، ويود لو استطاع أن يشاركهم بنفسه .

كانت انتصارات العرب في سباسب برقة وطرابلس تملأ قلوب شعب مصر غبطة وأملاً ، وكانت المآسي التي تقع لهم تدمي قلوب أهل مصر وتفعمها أسى وحنقاً ، وامتألت قلوب جماهير الشعب إيماناً بأنها تستطيع هي الأخرى أن تستبسل في الدفاع عن نفسها أمام قوى الاحتلال ، كما فعل شعب ليبيا . وكون شباب مصر وكهولها جمعيات سرية وأخرى علنية للدعوة إلى الثورة ، واشتدت حكومة الخديو عباس في إيقاع العقاب بكل من تخشى منهم المقاومة حتى عم البلاد عهد من حكم الإرهاب لم يسبق له مثيل ، وكان الاحتلال الإنجليزي من وراء هذا الإرهاب يتمنى أن يتمكن به من قمع الثورة التي يخشاها وهي ما تزال في مكانها . فكانت الآفاق في مصر تنذر باندلاع ثورة عنيفة على الاحتلال الأجنبي وأعوانه من الحكام الأجانب ومن يحيط بهم 'من أصحاب المصالح وطلاب المنافع الخاصة ، غير أن الظروف السياسية انقلبت فجأة حين اندلعت نيران

حرب كبرى شغلت الشعوب جميعاً وأدهشت العالم كله وهى المعروفة بالحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

وكان موقف العرب عامة مثل موقف شعب مصر عند ابتداء تلك الحرب . وهو موقف دقيق غاية الدقة حائر أشد الحيرة . لقد بادرت إنجلترا فأعلنت حمايتها على مصر وعزلت الخديو عباس الذى لم تطمئن إلى ولائه برغم ما قدمت له من الرشى من أموال شعب مصر . وكان عباس فى ذلك الوقت غائباً خارج البلاد، فاختارت أحد أبناء إسماعيل وجعلته سلطاناً تحت حمايتها ، وأخذ بعض رجال الحكم يتهامون بأن الإنجليز قطعوا على أنفسهم وعوداً وثيقة بأن يردوا إلى البلاد حريتها بعد انتهاء الحرب .

وأسرعت الحوادث يتلو بعضها بعضاً فى سرعة مذهلة . ودخلت الدولة العثمانية فى الحرب ضد إنجلترا إلى جانب ألمانيا والنمسا، وكانت خطة الحرب تقضى بأن يكون هدف المتحاربين السيطرة على قناة السويس ، فكل من الجانبين يحشد الجيوش لمعركة تقرر مصير هذه السيطرة . ولم تستطع حكومة السلطان الجديد (حسين كامل) أن تثبت وجودها أمام سيطرة الإنجليز على مصر، فأخذ جيش الاحتلال كل الأمر فى يديه والشعب المصرى يرى ويأسى ويشعر بأن فرصة عظيمة تتفلت من بين يديه ؛ فقد كان انشغال إنجلترا بالحرب الطاحنة فرصة سانحة لثورة قومية تهب فى ذلك الوقت كما فعل الليبيون فى جهادهم لجيوش إيطاليا، ولكن حكومة السلطان حسين

كانت تعمل على كبت مشاعر أهل البلاد وتخذل همّهم بدعوى أنها تؤثر الحكمة وتنتظر نهاية الحرب لتحقيق وعود الإنجليز في تحقيق حرية مصر، وأنها لا ترى من الحكمة الاندفاع في عداوة الأجنبي المحتل في ذلك الوقت العصيب خوفاً من إحراجه وإقدامه على ضم البلاد إلى مستعمراتها . بل لقد بالغت تلك الحكومة في دعايتها وزعمت أن إعلان إنجلترا لحمايتها على مصر يقطع علاقة التبعية الاسمية التي كانت تربطها بالدولة العثمانية ويمهد بذلك إلى جعلها من الناحية السياسية دولة تامة الاستقلال بعد انتهاء الحرب .

وكان بعض الدعاة الموالين للاحتلال حمن أصحاب الصحف العربية بمصر يسوغون سياسة الحكومة المصرية بأنها تحافظ على عرش إسماعيل لأبناء إسماعيل — كأن المحافظة على ذلك العرش أمنية من الأمانى العزيزة على شعب مصر !

وحشدت الدولة العثمانية جيوشها على حدود مصر ولا شك أن جماهير الشعب كانت تتمنى الانتصار لهذه الجيوش التركية وتترقب اجتيازها لقناة السويس لتهب للقضاء على الاحتلال . ولكن حكومة السلطان كانت تجاهر بحماسة بأن واجبها مواجهة الجيوش العثمانية ومقاومتها وحماية البلاد من غزوها، وأن الوطنية الحقة تحتم عليها هذه الخطوة . بل إن رئيسها وهو حسين رشدي باشا أعلن يوماً في حماسة أنه مستعد لحمل السلاح والوقوف في وجه جيش الترك إذا زحف على مصر، وهذا الرئيس حفيد

لأحد قواد محمد على .

حقاً إن شعب مصر كان مثل الشعوب العربية عامة ، لا يحمّد تاريخ الحكّام التركيّ وما قامته البلاد منه من عواقب ضعفه وفساده وطفغيانه ، ولكن كراهته للاحتلال الإنجليزي كانت تدفعه إلى العطف على أعدائه .

وأخذت إنجلترا تحشد الجيوش الجرارة في مصر للدفاع عن قاعدتها بها إذ كانت ترى أنها إن أصيبت بالهزيمة فيها أدت هزيمتها إلى فقدان سيطرتها على قناة السويس وإلى انهيار إمبراطوريتها حتّى بعد ذلك .

وكانت تلك الجيوش خليطاً عجيباً من الشعوب الخاضعة لها ومن سلالات رعاياها في أركان الأرض الأربعة ، ففيهم ألوف مؤلفة من أبناء الهند وأخرى من أستراليا وزيلاندة ، وغيرهم من أهل المستعمرات الإفريقية .

وسخرت موارد البلاد جميعاً لخدمة تلك الجيوش وحشدت ألوفاً مؤلفة من أبناء مصر بالقهر للخدمة في ميادين الحرب أو القيام بالأعمال المساعدة في معسكرات الجند . فكان شعور الألم والغضب يتزايد في جماهير الشعب على مر أيام الحرب وأضيف إلى ذلك شعور آخر من الخنق على الحكام الذين ساعدوا المحتلين على كبت ثورتهم وتضييق الأغلال حولهم . وزاد هذا الشعور شدة عندما خاب أمل الجماهير في انتصار جيوش الترك منذ هزموا عند قناة السويس وارتدوا على أعقابهم نحو فلسطين ، وأخذت جيوش الإنجليز تزحف وراءهم في سيناء ومواصلة حربهم في فلسطين .

واستمر شعب مصر طوال مدة الحرب يعاني أشد الويلات من
 أخطا الجنود المحشودين في بلاده ومن الأعباء الثقيلة التي ألقتها الحرب
 على عاتقه ، كما استمر يعاني أعظم الشقاء من خيبة الأمل ، وتفتت فرصة
 التحرر من بين يديه ، ومن ضعف حكامه وخنوعهم للأعداء وتغاضبهم
 عن تسخير أبناء الشعب وموارده لخدمة هؤلاء الأعداء . ثم عقدت الهدنة
 بين المتحاربين في نوفمبر سنة ١٩١٨ فلم تمض بعدها إلا أيام قلائل حتى
 ذهب وفد من زعماء الشعب إلى ممثل لإنجلترا ليطالبه بتحقيق الوعود التي
 قطعها الإنجليز على أنفسهم لحكام البلاد عند ابتداء الحرب . وكان رد
 الممثل الإنجليزي عليهم رد سيد متغطرس على قوم يتدخلون فيما لا شأن
 لهم به . ومن ذلك الوقت بدأت الثورة تغل في القلوب حتى انطلقت عنيفة
 مستميتة في مارس سنة ١٩١٩ عندما اعتقلت السلطات الإنجليزية
 العسكرية زعيم الشعب الناطق بلسانه سعد زغلول . ولم تبال جماهير
 الشعب بما كان للإنجليز في البلاد من جيوش جرارة ولا من عدد جبارة
 ولا بما كانت تشعر به الجيوش الإنجليزية من الزهو في أعقاب انتصارها
 فواجهت نيران الإنجليز وصادمهم في كل مكان حتى اضطر الإنجليز
 إلى التقهقر للمرة الثالثة بعد تقهقرهم من قبل مرتين : إحداهما عقب
 دنشواي والأخرى عند رفض الأمة لتجديد امتياز شركة قناة السويس ،
 وقبلوا التفاوض مع وفد يمثل الشعب برئاسة سعد زعيم الشعب الذي عدوه
 من قبل عاصياً وقبضوا عليه ونفوه إلى جزيرة سيشل البعيدة . ومن ذلك

الوقت تكونت كتلة سياسية ضخمة لمفاوضة الاحتلال . . . وهى كتلة (الوفد المصرى) .

وليس من قصدنا تفصيل الحوادث التى وقعت بعد ذلك، وحسبنا أن نتتبع الخط الرئيسى فى تطورها. فى عام ١٩٢٢. أعلن الإنجليز إلغاء الحماية التى كرهها أهل مصر وأعلنوا استقلال مصر كدولة ذات سيادة، ولكنهم قيدوا هذا الاستقلال بتحفظات أربعة فأبقوا بها أربع مسائل كبرى بغير حل، وهى مسألة الحكم فى السودان وقناة السويس والامتيازات الأجنبية ومعاملة الأقليات فى البلاد .

وكان السلطان عند ذلك فؤاد بن إسماعيل الذى تولى الحكم بعد موت أخيه السلطان حسين سنة ١٩١٧ ، فاتخذ لنفسه لقب الملك . وكان عهده الذى استمر إلى عام ١٩٣٦ حافلا بالحوادث المؤلمة ، فإنه كفى الإنجليز مشقة مواجهة الشعب وتحولت المصادمات بعد أن كانت بين الشعب والإنجليز فأصبحت بين الشعب والملك، وكان الإنجليز ما يزالون من ورائه ينفذون سياستهم عن طريقه . وعهد فؤاد والإنجليز من ورائه إلى إنشاء أحزاب سياسية مصطنعة لتقاوم الاتجاه الشعبى الذى كان يمثلها الوفد المصرى الذى تكون كحزب سياسى يمثل الجمهور الأكبر من أهل مصر. ولم يكن لوجود تلك الأحزاب الصغيرة من مسوغ سوى أن لكل منها رئيساً كان الملك والإنجليز يختارونه لينفذ سياسة موجهة لتقاوم الحزب الذى يمثل كتلة الأمة وهو الوفد .

ومات سعد زغلول فى سنة ١٩٢٧ ، ففقدت البلاد بفقده زعيماً كان يجمع صفوفها ويوحد كلمة أكثريتها الكبرى ، ولكن الوفد استمر نحو عشر سنوات يواجه الحوادث التى كانت سياسة الملك والإنجليز تدبرها لتصرف انتباه الأمة عن القصد إلى غايتها الكبرى وهى استمرار الثورة عليهم .

وكانت الأحوال العالمية تنذر بوقوع حرب كبرى ثانية بعد حين . فعهد الإنجليز إلى خطة أرادوا بها الاحتياط لأنفسهم إذا وقعت هذه الحرب ، فبدأوا فى مفاوضة الوفد لعقد معاهدة تقرر موقف مصر تقريراً واضحاً وتحل عقدة التحفظات الأربعة التى قيدوا بها إعلان استقلال مصر فى عام ١٩٢٢ . وكانت نتيجة هذه المفاوضات معاهدة سنة ١٩٣٦ وما كاد رئيس الحكومة الوفدية يقضى عاماً واحداً فى الحكم على أساس هذه المعاهدة حتى أقاله الملك فاروق الذى خلف أباه الملك فؤاد منذ عام ١٩٣٦ . وتولت الحكم بعد ذلك وزارة أخرى بدأت تعدل المعاهدة الجديدة وتحور شروطها بحيث تكون أكثر ملاءمة للإنجليز إذا ما شبت نيران الحرب المتوقعة . وفى سنة ١٩٣٩ اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية المنتظرة .

واستمرت الحوادث المؤلة بعد انتهاء الحرب وكان محورها منافسات الأحزاب حول تولي الحكم . ولكن الإنجليز خشوا من استمرار تلك المنافسات التى كان فاروق يشجعها لإبعاد الوفد عن الحكم ، فقاموا بحركة تشبه

الانقلاب في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ليرغموا الملك على العدول عن خطته وأمره بأن يعيد الوفد إلى الحكم إذ كان ما يزال يمثل كتلة الشعب الكبرى ، وكان من مصلحتهم أن يستميلوه إليهم . وكانت المدة الباقية من الحرب منذ سنة ١٩٤٢ إلى ١٩٤٥ أشبه شيء بالمأساة السياسية ، فالحرب بطبيعتها تحرك أطماع المستغلين وتثير أدناً الطبائع في الأنانيين وتستهين في مغامراتها الدموية بإهدار القيم العليا والتوسل إلى إحراز النصر بكل الوسائل مهما بلغت من الدناءة .

فجرفت هذه العوامل الدنيئة كل شيء في طريقها وانغمس الملك في أطماعه ومفاسده ، كما تورط زعماء الوفد وأتباعهم في كثير مما كانوا من قبل يتورعون عنه ويرفضونه من إثارة مصالحهم الخاصة وإهدار القيم العليا التي كانوا من قبل يتمسكون بها ؛ بل إن حكومة الوفد تساهلت من أجل المحافظة على الحكم في كثير مما كانت تأباه من قبل مع الإنجليز وما كانت تقاومه من طغيان الملك وفساده ، وكانت نتيجة ذلك خيبة أمل شديدة لجماهير الأمة ، واشتد حنقها على الملك وحكومته الوفدية . فلما انتهت الحرب العالمية الثانية في ١٩٤٥ أطلق الإنجليز يد الملك في الحكم فأثار المنافسات بين الأحزاب ونحى الوفد عن الحكم ، وتعاقت بعده حكومات الأحزاب الأخرى وكانت الثورة وخبية الأمل تتزايد اضطراباً في أعماق الأمة ، واتخذت مظاهر عدة من النقد اللاذع والهجوم العنيف على الحكم . وقد تجلّى فساد الحكم في صورة بشعة في

حرب فلسطين ضد إسرائيل في عام ١٩٤٨؛ فبينما كانت الجيوش المصرية تضحى بدمائها في ميدان القتال دفاعاً عن شعب فلسطين العربي استمر الملك وأعدائه سادرين في عبثهم، وكان من بين جرائمهم في حق الأمة بعثرة الأموال العامة في شراء أسلحة فاسدة لا تضر العدو بقدر ما تخون الجنود الذين يستخدمونها. ودل التحقيق في هذا الأمر على إهمال شنيع من المسئولين يبلغ حد الخيانة الوطنية. وانتهت مأساة فلسطين بنكبة أضافت وقوداً إلى شعور الثورة في جماهير الشعب والمخلصين من المفكرين والزعماء.

وأراد الملك أن يهدئ الثورة فأعاد الوفد إلى الحكم على زعم أنه يمثل الأكثرية من الأمة، فلم تلبث الحوادث أن برهنت على أن الأمة قد خاب ظنها في ذلك الحزب كما ساء ظنها في الأحزاب الأخرى. وأفاق الملك من أوهامه على حريق هائل اشتعل في أكبر أحياء القاهرة في يناير سنة ١٩٥٢ فكان ذلك إنذاراً بما صارت إليه الأمور من الاختلال. وأفعمت القلوب بمشاعر التشاؤم وسوء الظن والحنق وتعاقبت الحكومات بعد الحكومة الوفدية وكانت تشبه بحارة سفينة على وشك الغرق وهم لا يدرون أين تتجه التيارات التي تتقاذف بسفينتهم.

فكان الناس يتساءلون ماذا يكون المصير حين فاجأهم الثورة الكبرى التي قام بها الجيش المصري في أوانها في ٢٣ يولييه سنة ١٩٥٢.

وكان أول ما قامت به لإتمام ما عجزت ثورة عرابي عن إتمامه وإصلاح

الخطأ الذى وقعت فيه ثورة السيد عمر مكرم، فلما عزلت الممثل الأخير لأسرة محمد على فى ٢٦ يولييه سنة ١٩٥٢ وبذلك قضت على العامل الأول فى عرقلة سعى الأمة نحو الترقى بحياتها، وقوضت الدعامة التى استند عليها الاحتلال منذ سنة ١٨٨٢، فكان عزله بداية النهاية للاحتلال الإنجليزى.

وواجهت الثورة منذ أول عهدها مخلفات قرون طويلة توالى على البلاد، حتى مدت جذورها فى حياة الشعب، ولكن كان عليها أول شىء أن تطهر الأرض من الاحتلال . وأبدت حسن نيتها فى تحاشى معارك لا ضرورة لها عندما قبلت أن تعقد معاهدة مع الإنجليز رتبت فيها خطوات انسحاب الجيش المحتل وما يقتضيه ذلك من تنظيم وتدبير ، وكانت تريد بذلك أن تتفرغ وتجمع كل نشاط الشعب وجهوده لبناء حياة جديدة وإصلاح ما أفسدته عوامل الضعف والحمول والأنانية فى كيان البلاد . غير أن أعداء الأمة كانوا يدبرون فى الخفاء خططاً خبيثة ليحولوا بين الشعب وبين ما يتمناه من الإصلاح ، وكانوا يطمعون فى إبقاء العهد الثورى الحديد عاجزاً عن الدفاع عن البلاد كما صنعوا بالعهد السابق قبل الثورة . فنذ أدركوا أن هذا العهد جاد فى تحصين الحياة الجديدة وتوفير عدد الدفاع عن البلاد بادروا إلى عرقلة مساعى الثورة بأساليب الضغط الاقتصادى التى اعتادت دول الاستغلال أن تتبعها فى إرغام الشعوب على الخضوع لها .

وكان من الأمانى الكبرى عند شعب مصر أن تزيد موارد الثروة فى البلاد

ومن أول ما فكرت فيه بعد الثورة لإنشاء سد عال يحفظ مياه النيل في وقت الفيضان لينخر منها مقادير عظيمة عاماً بعد عام؛ كي تتمكن البلاد بالماء المدخر من توسيع رقعة أرضها الزراعية . واتفقت الحكومة المصرية مع البنك الدولي على إمدادها بقرض تستطيع به البدء في تحقيق هذا الأمل الكبير . ولكن أساليب الضغط الاقتصادي التي اتبعتها الدول المستغلة حملت البنك الدولي على رفض تقديم القرض بعد أن سبق الاتفاق عليه ، وذلك في شهر يولييه سنة ١٩٥٦ . فبادر زعيم عهد الثورة جمال عبد الناصر برد تلك الضربة بعد ستة أيام من رفض البنك لتقديم القرض بتأميم قناة السويس ، كي تتمكن البلاد من توفير الأموال اللازمة لإقامة السد من موارد القناة - وهي الموارد التي كان ينبغي عدلاً أن تصل إلى خزائن مصر ، والتي استمر المستغلون على استلابها ما يقرب من قرن كامل من الزمان . ففقدت دول الاستغلال ائزانها عقب هذه الضربة وتخبطت في سياستها حتى دهرت مكيدة دنيئة قصبت بها أن تباغت مصر بعدوان مسلح يقضي على عهد الثورة ويقضي على كل ما أودعته الأمة فيها من الآمال . فحشدت إنجلترا وفرنسا جيوشهما وأساطيلهما سرّاً وبالغتا في كتمان حركاتهما وإخفاء مقاصدهما ودفعتا بإسرائيل كي تزحف بجيوشها فجأة على مصر في يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .

وبادرت قوى الدفاع المصرية لمواجهة زحف إسرائيل وابتدأت معركة ظهرت فيها بسالة الروح العربي ووقف جيش إسرائيل حائراً عاجزاً

فأسرعت إليه نجدة فرنسا وإنجلترا ، اللتين بادرتا بقذف ما حشدناه من قواهما على أرض مصر بعد أن تظاهرتا بمهزلة تدعيان فيها أنهما تريدان أن تقفا بين مصر وإسرائيل لتمنعاهما من الاستمرار في حربهما حتى لا تهددا الملاحة في قناة السويس . وظهرت حقيقة المؤامرة سافرة أمام أعين شعوب العالم جميعاً ، وأن إنجلترا وفرنسا هما اللتان دبرتاه مكيدة خبيثة ودفعتا إسرائيل لمهاجمة مصر لتتخذها ذريعة لشن غارتها بقصد إعادة السيطرة الأجنبية على مصر .

وقد سجل شعب مصر في هذه الحرب صفحة من أنجد صفحات تاريخه وأنبأها ، فإنه عقد النية على الدفاع عن بلاده شبراً شبراً ، ولم ترهبه القوى الجبارة التي سلطتها عليه الدولتان الاستغلاليان الطاغيتان .

ونجابت محاولة الدولتين في اقتحام مدخل القناة من ناحية السويس حين هزم الأسطول الذي أقبل إليها من البحر الأحمر .

ونجابت محاولتهما في السيطرة فجأة على شاطئ القناة ، فركزت المعركة على شواطئ بورسعيد . وصبت الدول الثلاث كل ما لديها من قذائف الموت على المدينة الباسلة فهب شعبها مع قوى الجيش المصرى ليواجه ذلك الاعتداء الفظيع في بطولة نادرة المثال ، ولم تستطع حشود الدول المعتدية أن تتقدم من الدائرة الضيقة التي نزلت بها على الشاطئ . وبدلت حكومة مصر كل ما في وسعها في ذلك الوقت الحرج لحصر الحرب بينها وبين الأعداء في دائرتها المحدودة حتى لا تؤدي إلى حرب عالمية كانت على وشك

الانفجار وتحملت مصر آلامها وصبرت على جراحها وكفكت دموعها على فلذات أكبادها الذين فتك بهم غدر الأعداء، حتى اهتز ضمير العالم كله وتدخلت الأمم المتحدة فقررت أن تكف الدول المعتدية عن اعتدائها . وكان لابد لتلك الدول أن تكف عن اعتدائها المنكر على رغم مراوغتها ومماطلتها في وقف القتال ، فقد أحاطت بها الأخطار من كل جانب ، وأوشكت النكبة التي حاولت إيقاعها بمصر أن تحل بها هي . لقد أوشكت الحرب أن تنقلب إلى حرب عالمية تدمرها أو تدمر العالم كله معها ، فأوقفت نيرانها مرغمة وما يزال السلاح في أيدي جيش مصر وفي أيدي شعب بورسعيد وسائر المدن والقرى المستعدة للجهاد من أجل حريتها .

وقد ظهرت في أثناء هذا الاعتداء حقائق خطيرة أصبحت اليوم من أهم الحقائق في السياسة العالمية، وأولها أن شعوب الأمة العربية جميعاً هبت غاضبة ثائرة ومدت يدها بكل ما استطاعت أن تبذله للجهاد مع الشعب العربي في مصر . فنسفت أنابيب البترول العربي وأغلقت موارده العربية في الأنهار العربية جميعاً وهبت الشعوب في كل وطن عربي لتشارك بأنفسها في الجهاد، ووقفت وفود الدول العربية في الأمم المتحدة جبهة واحدة جمعت حوثها لإرادة الشعوب المحبة للحرية والسلام في كل بلاد العالم . ولم تلبث شعوب الدول المستغلة أن شعرت بأن السلام في الوطن العربي ضروري لسلامتها هي ، فكان صوتها يعلو مع صوت العرب في إنكار مؤامرات الحكومات المستغلة .

فند وقع الاعتداء الثلاثي على مصر أدرك العالم كله أن في هذا الوطن العربي الفسيح تعيش أمة عربية شاعرة بقوميّتها عازمة عزماً صارماً على الدفاع عن حريّتها، متضامنة من أجل ذلك مهما كلفها هذا الدفاع من تضحيات ومن آلام .

ومنذ وقع ذلك الاعتداء صار من المحقق أن وحدة الأمة العربية حقيقة قائمة في قلوب الشعوب العربية جميعاً، وأنها ستتخذ صورتها الواضحة بغير شك في يوم من الأيام .

ومنذ وقع ذلك الاعتداء أيضاً برهنت شعوب العالم جميعاً على إنكارها لمحاولات حكومات الاستغلال في دفع الإنسانية إلى حرب عالمية لن يبقى للمدنية البشرية بعدها وجود .

ولم يمض بعد هذا الاعتداء إلا عامان حتى خطا الشعب العربي في سوريا ومصر خطوتهما الحرية في تحقيق الوحدة التامة واشتركت معهما حكومة اليمن وذهبها في تكوين الدولة العربية المتحدة .

وهكذا بدأت الأمة العربية سيرها نحو الغاية الطبيعية المقدورة لها ، وهي توحيد اتجاهها وجمع صفوفها لمواجهة حياتها الجديدة .

٤ - خيانة الحلفاء الكبرى للعرب

عندما بدأت الحرب العالمية الأولى كان العالم كله يتوقع انهزام الحليفتين لإنجلترا وفرنسا أمام قوى دولتي الاتفاق وهما ألمانيا والنمسا، وكانت ألمانيا تبهر أنظار العالم عند ذلك بقوة معداتها الحربية وبالانتصارات السريعة الأولى التي أحرزتها على جيوش فرنسا التي انهارت أمامها في أوروبا . واشتركت الدولة العثمانية في الحرب فدخلت إلى جانب ألمانيا . ولاشك في أن جبهة الحرب في الشرق الأوسط كانت في المحل الأول من الخطورة للجانبين المتحاربين لأن المنتصر فيها كان يستطيع السيطرة على قناة السويس . وأحست إنجلترا بالخطر الشديد على دولتها الاستغلالية الكبرى التي كانت في ذلك الوقت تباهى بأن الشمس لا تغرب عنها وكانت تشتمل على الجانب الأكبر من قارة أفريقيا وعلى شبه قارة الهند العظيمة والملايو وقارة أستراليا وزيلاندة وما لا حصر له من الممتلكات الصغرى في جزائر المحيط وشواطئ البحار . واتجهت أنظارها إلى العرب وهي في أشد أوقات محنتها لعلهم يساعدونها على الوقوف في وجه الجيوش العثمانية وحلفائها الأقوياء فأخذت تزين لبعض حكامهم وزعمائهم أن يدخلوا الحرب إلى جانبها على وعد أن تساعدكم على تحقيق استقلال بلادهم وتكوين دولة عربية حرة إذا وضعت الحرب أوزارها. وكانت تقصد كذلك إلى غاية أخرى من استمالة العرب إليها بأن تظهر أمام ملايين

المسلمين من رعاياها المنود وغيرهم ممن يحاربون في جيوشها على أنها تحارب في جانب حرية العرب المسلمين .

وكان اللورد كتشنر الذى قضى عدة سنين في مصر ممثلاً للحكومة الإنجليزية في مصر قد صار وزيراً للحرب في إنجلترا فبدأ يتصل بالشيخ حسين أمير مكة ليرى مدى استعدادة للاتفاق مع الحلفاء في حربهم ضد الدولة العثمانية .

وقد سبق أن أشرنا إلى خيبة أمل العرب في إصلاح أحوالهم والتمتع بحريتهم في نطاق الدولة العثمانية عندما رأوا أن الثورة التركية التي استولت على حكم الدولة العثمانية في سنة ١٩٠٨ لم تحقق لهم ما كانوا يرجونه منها . وتدل الظواهر على أن الشيخ حسين تردد حيناً في إجابة كتشنر لإجابة صريحة خوفاً مما سيكون عليه موقفه من الحرج إذا هو ناصر الإنجليز على العثمانيين المسلمين ، ولم يرغب عنه بغير شك مبلغ كراهة شعب مصر العربى للإنجليز وسوء ظن العرب جميعاً بهم ، ونواياهم في السيطرة على الوطن العربى ومبلغ كراهة الشعوب العربية في شمال أفريقيا والمغرب لفرنسا حليفة إنجلترا . غير أن تردده لم يجعله يقطع في الأمر برفض ما عرض عليه كتشنر منذ البداية ، بل بعث إليه يسأله عن الشروط التي تتعهد بها إنجلترا له وللعرب لقاء مساعدتهم بجانب الحلفاء ، وعهد كتشنر إلى السير هنرى مكماهون ممثل الحكومة الإنجليزية في مصر عند ذلك بالمضي في مفاوضة الشيخ حسين . فتبادل الجانبان رسائل عدة تعرف بمكاتبات

(حسين - مكماهون) .

وقد ساعدت الحوادث على نجاح الإنجليز في هذه المفاوضات فإن سياسة القائد العثماني جمال باشا في سوريا وفلسطين كانت سياسة قمع وقسوة وتنكيل، وبلغ من شدتها أن بلغ عدد المسجونين السياسيين عدة ألوف وبلغ عدد الضحايا الذين قتلوا من العرب عدة مئات .

فقد أدت هذه السياسة الفاشمة إلى تحول مشاعر الوطنيين السوريين والعرب إلى كراهة عميقة لطغيان الحكم التركي ، وحملتهم هذه الكراهة إلى قبول ما عرضه عليهم الشريف حسين من الثورة على الحكم العثماني على رغم سوء ظنهم الشديد بالدولتين الإنجليزية والفرنسية ونواياهما الاستغرافية، وتاريخهما الطويل المغمم بعداوة العرب والاعتداء على حريتهم .

وبذل الإنجليز في مفاوضات مكماهون كل ما يفرى الوطنيين العرب من الوعود في تحقيق استقلال « الأمة العربية » وحريتها . غير أن المستقبل القريب برهن على أن الإنجليز كانوا على عادتهم من الدهاء والاحتيايل يبطنون غير ما يظهرون^(١) . وأما العرب فإنهم كانوا كذلك على عادتهم دائماً يقلسون الصراحة والوفاء بالوعد . فتمت المفاوضات بين الشريف ومكماهون أخذ العرب في تنفيذ ما وافقوا عليه وبدأوا الثورة في الخامس من شهر يونيه سنة ١٩١٦ .

(١) وهذا ما ظهر جلياً من ثنايا الخطابات المتبادلة بين الشريف حسين ومكماهون وقد تبعنا نصها كما ورد في كتاب يوم ميلون للأستاذ ساطع المصري .

وبما يدل على خبث السياسة الإنجليزية أن الإنجليز عقدوا اتفاقاً سرّياً آخر مع فرنسا وروسيا في مايو سنة ١٩١٦ نقضوا فيه كثيراً مما تعهدوا به للعرب . وهو المعروف باتفاق (سيكس - بيكو) ، وفيه قسموا الوطن العربي فيما بينهم وهو الذي وعدوا بتحريره وضمنوا استقلاله للشريف حسين وللوطنين العرب .

وفي نوفمبر سنة ١٩١٧ أعلنت الحكومة الإنجليزية في غير خجل تصريح بلفور الذى يكفل لليهود إنشاء وطن لإسرائيل في قلب الوطن العربي فذهل قادة الثورة العربية ، ولكن الفرصة كانت قد أفلتت من أيديهم عند ذلك فقد كانوا دخلوا الحرب وهزموا تركيا في الحجاز وزحفوا على فلسطين وانتزعوا العقبة من الجيش التركى في يولييه سنة ١٩١٧ وزحف الأمير فيصل بن الشريف حسين نحو دمشق بمن معه من العرب ، أى أن مصير الحرب مع العثمانيين كان قد تقرر . فلما انتهت الحرب في نوفمبر سنة ١٩١٨ بالنصر لجيوش الحلفاء، وبدأ المنتصرون يتفاوضون في شروط معاهدة الصلح ، رأى العرب آمالهم تنهار تحت أعينهم وهم خارجون من الحرب بانتصار باهر . فلإن الحلفاء تنكروا للوعود التى قطعها إنجليزاً لهم باسم الحلفاء ، وتبين للعرب عند ذلك مدى ما انطوت عليه نية الإنجليز وحلفائهم من الغدر .

وذهب الأمير فيصل في سنة ١٩١٩ إلى باريس ليحضر في مفاوضات الصلح فوجد أن المعروض على مؤتمر الصلح هو تضحية حرية

سوريا ولبنان من أجل سيادة فرنسا، وتضحية فلسطين من أجل الصهيونيين ،
وتضحية العراق من أجل لإنجلترا .

وفي ٥ مايو من ربيع سنة ١٩٢١ أتم الحلفاء تقسيم غنائم الدولة
العثمانية في معاهدة (سان ريمو) بين فرنسا وإنجلترا وتركزت الصهيونية
تتمهد لمشروع دولتها المفصولة تحت ظل العلم الإنجليزي .
فكانت تلك خيانة كبرى من الحلفاء للعرب وهي أساس الكوارث
التي لحقت بالأمة العربية وما تزال إلى اليوم تخلف لها أكبر مشكلاتها .

٥ - الموقف في سوريا

في الوقت الذي كان فيه شعب مصر يواجه جيوش الإنجليز الحارقة
بصدره الأعزل في ثورته الكبرى في مارس سنة ١٩١٩ ، كان شعب
سوريا كذلك يواجه خيانة الحلفاء الكبرى التي بدأت تتكشف له في
وضوح، وكان أول دلائلها احتجاج فرنسا على إنجلترا على تغلغل الجيوش
العربية في البلاد السورية ، كأن هذه الجيوش العربية لم تكن هي الأداة
في انتصار الحلفاء على جيوش الدولة العثمانية واستيلاء الحلفاء على كل
الأقاليم السورية واللبنانية. ولم تستطع إنجلترا إغضاب حليفها فأمرت الأمير
فيصل بن الحسين قائد الجيوش العربية بترك السواحل الفرنسية وتسليمها إلى
الجيوش الفرنسية . فكان ذلك أول تنفيذ لاتفاقية (سيكس-بيكو) التي

عقدت خلصة من وراء ظهور العرب بين فرنسا وإنجلترا وروسيا في عام ١٩١٦ .

ولم يجد فيصل بدءاً من تنفيذ هذا الأمر فتزلت جيوش فرنسا في بيروت في ٨ أكتوبر سنة ١٩١٨ ثم انطلقت تنزل جيوشها على شواطئ لبنان وسوريا .

وتلاهذه الضربة ضربة أشد منها حين قسمت بريطانيا إقليم سوريا إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة إدارات عسكرية، إحداها إدارة المنطقة الشرقية (سوريا وشرق الأردن) والثانية إدارة المنطقة الغربية (السواحل) والثالثة المنطقة الجنوبية (فلسطين) وكان نصيب فيصل مقصوراً على إدارة المنطقة الشرقية . ولم يمض عام على هذه الضربة الثانية حتى وقعت الضربة الثالثة إذ اتفقت إنجلترا وفرنسا في ١٥ سبتمبر سنة ١٩١٩ على تعديل في توزيع هذه المناطق أدى إلى استيلاء فرنسا على كل ما نصت عليه اتفاقية (سيكس - بيكو) السرية ومنها سوريا .

فثارت ثائرة الوطنيين العرب وأعلنوا عزمهم على مقاومة ذلك الغدر بالقوة وهبت الثورة في بعض أنحاء سوريا .

ولجأ الوطنيون العرب إلى وسائل السياسة مؤملين أن ينصرهم الرئيس الأمريكي (ولسن) الذي كان قد أعلن مبادئه الإنسانية عقب انتهاء الحرب وحسب الناس جميعاً أن العالم سيبدأ عهداً جديداً بإقامة العلاقات الدولية على أساس العدالة وحرية الشعوب ، وقد لاقت مساعيهم بعض

النجاح في أول الأمر حين بعث ولسن بـلجنة استفتاء تستطلع آراء أهل سوريا ولبنان وفلسطين في الحكم الذي يرضونه لأنفسهم . وأعد الوطنيون عدتهم لعقد مؤتمر عام يجتمع فيه الزعماء لتوحيد صفوف الشعب عند وصول لجنة الاستفتاء إلى البلاد، وكان أول اجتماع له في ٣ يونيو سنة ١٩١٩ . أما الأمير فيصل فإنه ذهب إلى فرنسا ليكون قريباً من أقطاب الحلفاء وهم مجتمعون للمفاوضة في شروط الصلح في فرساي .

وأعلن مؤتمر العرب قراراته في مارس سنة ١٩٢٠ وكان في صدرها إعلان استقلال سوريا وتنصيب الأمير فيصل ملكاً دستورياً عليها ، وكانت حدود سوريا التي بينها قرار الاستقلال تشمل السواحل وفلسطين جميعاً، فكان هذا القرار مقدمة للاصطدام العنيف بين الوطنيين العرب وبين فرنسا التي ادعت لنفسها الحق منذ معاهدة (سيكس - بيكو) في الاستيلاء على سوريا الكبرى وعلى الجزء الجنوبي من آسيا الصغرى (كليليكيا) .. وكان لإعلان قرارات هذا المؤتمر وقع شديد على سياسة إنجلترا وفرنسا جميعاً ، وإن كان وقعها على فرنسا بلغ حد الخطورة ، فبدلت الحكومة الفرنسية كل جهدها في معاهدة (سان ريمو) (أبريل سنة ١٩٢٠) لتحصل على ما سماه الساسة في ذلك الوقت بالانتداب على سوريا ولبنان كما حصلت إنجلترا على الانتداب في فلسطين . فزاد هياج الشعب العربي في أنحاء البلاد جميعاً وتبين له آخر الأمر مدى الخيانة التي تأمر فيها حلفاء الأمم على أحرابته . وتألفت وزارة سورية جديدة عهد إليها واجب الدفاع

عن استقلال البلاد في ٣ مايو سنة ١٩٢٠ ، وعزم الملك فيصل على السفر مرة أخرى إلى أوروبا ليسعى إلى تلافى الأزمة المتوقعة عن طريق المفاوضة مع كبار ساسة الحلفاء في باريس .

وكان الرئيس ولسن رئيس الولايات المتحدة قد انسحب غاضباً من مؤتمر الصلح وعاد إلى بلاده خائباً عندما تحقق من أن ساسة الحلفاء يضربون بمبادئهم عرض الآفاق ، وأظهر قائد الجيوش الفرنسية في سوريا حقيقة نواياه فلم يسمح بمرور الملك فيصل من مدن الساحل التي يسيطر عليها ، وأرسل في ١٨ يولييه سنة ١٩٢٠ إنذاراً نهائياً إلى الحكومة السورية يأمرها بقبول الانتداب الذي قرره معاهدة (سان ريمو) وبإلغاء كل تدابير الدفاع التي بدأت الحكومة في اتخاذها لحماية الاستقلال تنفيذاً للسياسة التي عهدت إليها منذ ٣ مايو .

ولم يلبث الموقف بين سوريا وفرنسا أن انهار في سرعة عجيبة وكانت الأعمال التي قام بها (غورو) القائد الفرنسي تدل على أن فرنسا قد عقدت النية على غزو سوريا . ثم وقعت معركة (ميسلون) التي استشهد فيها وزير الحرية يوسف العظمة في ٢٤ يولييه سنة ١٩٢٠ واضطر الملك فيصل إلى مغادرة سوريا ذاهباً إلى أوروبا فلم يعد بعدها إلى تلك البلاد ، وكان استقباله في أوروبا فاتراً ولم يعترف أحد من ساسة الحلفاء بأنه ملك ، بل عاملوه على أنه ابن ملك الحجاز الشريف حسين . واتبعت فرنسا في حكم سوريا سياسة تشبه سياسة الصليبيين حين

قسمت سوريا إلى أربعة أقسام (سوريا ولبنان واللاذقية وجبل حوران) وكانت تقصد بذلك إيقاع الفرقة بين أبناء الشعب العربي كيما تتمكن من التحكم في الجميع . غير أنها لم تستطع أن توطد حكمها في البلاد فهبت ثورة في عامي ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ وكان رد فرنسا الشنيع لإطلاق القذائف الضخمة على دمشق أقدم مدينة مأهولة في العالم . غير أنها لجأت بعد ذلك إلى المداينة فسمحت بانتخاب جمعية تأسيسية في سنة ١٩٢٨ لوضع دستور للبلاد ولكنها رفضت ذلك الدستور عندما تم وضعه . وتعاقبت ثورات الشعب السوري على فرنسا خلال السنوات العشر التالية حتى اضطرت الدولة العاصبة إلى الاعتراف باستقلال الشعب المجاهد في معاهدة بقيت مهملة مدة طويلة حتى وافقت الحكومة الفرنسية مرغمة على الجلاء عن سوريا بعد مصادمات عنيفة وذلك في عام ١٩٤٥ . غير أن المؤامرات الفرنسية على سوريا لم تنقطع بعد جلائها عن أرضها كما لم ينقطع ضغطها المالي والاقتصادي عليها .

وقد خلقت سياسة التفرقة التي اتبعتها فرنسا في حكم سوريا نتائج شتى أدت إلى تشتت في وحدة صفوف المجاهدين الذين وقفوا صفاً واحداً أمام قوى الاستغلال عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى .

وكان من أكبر المشكلات التي تخلفت من هذه السنوات المضطربة المليئة بضروب الخيانة والمؤامرات نكبة فلسطين العربية التي بدأت مشكلتها تستفحل منذ أيام الحرب عندما أعلن بلفور وعده بإنشاء وطن قومي لليهود

في أرض فلسطين عام ١٩١٧ ، ولما سيطرت إنجلترا على فلسطين بعد قرار انتدابها عليها وجدت مكاييد الصهيونية بيئة صالحة لها تحت حماية الانتداب الإنجليزي ، فما أتى عام ١٩٤٥ حتى استطاعت أن تكشف القناع عن مطامعها ومؤامرتها على حياة شعب فلسطين وحرياته .

وقد ظهرت نتائج تلك المجموعة من المكاييد التي تعاونت عليها فرنسا وإنجلترا والصهيونية في الحرب التي أثّرت في عام ١٩٤٨ وما تخللها من خيانات، وما أعقبها من تشريد مليون عربي من أهل فلسطين واغتصاب أرضهم وإقامة عدو في قلب الوطن العربي ليكون نكأة لدول الاستغلال تستخدمها في مواصلة مؤامراتها ومكايدها ضد أبناء الأمة العربية . وقد ظهرت نية دول الاستغلال واضحة في مؤامرة غزو مصر في عام ١٩٥٦ ، فأدرك العرب جميعاً مدى التهديد الخطير الذي يهدد حياتهم وحرّياتهم وهبوا جميعاً للدفاع عن العروبة في معركة القناة وكان شعب سوريا في مقدمة الشعوب العربية التي هبت لهذا الدفاع وكان جهاده من أكبر العوامل على انتصار شعب مصر .

وأدرك كل من شعبي سوريا ومصر أن وجودهما يتوقف على ما يبديانه من الحزم وقوة الإرادة في ضم صفوف العرب لمواجهة الأخطار العامة التي تهددهم جميعاً ، فاجتمعت إرادتهما على تحقيق أعظم خطوة في توحيد الأمة العربية بإقامة الجمهورية العربية المتحدة في فبراير عام ١٩٥٨ كما مر ذكره .

٦ - الموقف في لبنان

كان لبنان دائماً مرتبطاً بمصير كتلة الشعوب العربية الشقيقة في الشرق فكان يشاركها في كل ما يواجهها من الحوادث منذ أقدم العصور ، وكان من أول الأوطان التي استقر فيها العرب خارج الجزيرة العربية قبل الإسلام فلما هناك نزح الفينيقيون الذين أقاموا مدنيهم على سواحل البحر الأبيض وهم أبناء عمومة العرب أو هم عرب خلص نزحوا إلى شواطئ البحر الأبيض من أقاليم الخليج العربي قبل الميلاد بعشرات من القرون ، وتوالت موجات أخرى من الجنس نفسه على شواطئ لبنان ، فلم يمكن تمييزهم عن إخوانهم في دواخل الإقليم سوى أنهم يقيمون على السواحل وما يحيط بها من سفوح الجبال العالية . فهم واجهوا غزوات الإسكندر ، كما واجهها إخوانهم في سوريا ومصر وهم واجهوا غزوات الروم كما واجهها هؤلاء . واستمر لبنان مرتبطاً بمصير جيرانه حتى شملته الدولة العربية فشارك أبنائه سائر الأمة العربية الجديدة في بناء الحضارة العربية العظمى كما شاركهم الانصواء تحت سيطرة الدولة العثمانية الشاملة إلى أن قامت الحرب العظمى .

وفي أثناء الحرب العظمى كان الشعب اللبناني يشاطر الشعوب العربية المنضوية تحت الحكم العثماني مشاعرها وأمانها كما كان يشاطرها الجهاد

فى سبيل التحرر من سيطرة العثمانيين ، فلما انتهت تلك الحرب بانتصار الحلفاء كما سبق وصفه فى الفصل السابق تعرض لبنان لآثار الحياة الكبرى التى أقدم عليها الحلفاء بعد انتصارهم ، فكان لبنان جزءاً من الغنائم التى وزعوها فيما بينهم فأصبح منذ سنة ١٩٢٠ داخل فى المنطقة الخاضعة للانتداب الفرنسى ، وهى تشمل سوريا واللادقية ولبنان وحموران . وقد حاولت فرنسا تدعيم سيطرتها على لبنان بسياسة التفرقة بين أهل هذه الأقسام الأربعة وتذرعت فيما تذرعت به باختلاف الدين بين بعضهم وبعض ، غير أن الأقاليم الأربعة لم يلبثوا أن كشفوا خدعتها وصاحوا جميعاً بشعار واحد : « الدين لله والوطن للجميع » ولم يسع فرنسا لإزاء خيبة سياستها إلا أن تعقد مع لبنان معاهدة فى سنة ١٩٣٦ تشبه معاهدتها مع سوريا فى الوقت عينه وكان مصير تلك المعاهدة مثل مصير المعاهدة السورية فلم يوافق عليها البرلمان الفرنسى . فلما هزمت فرنسا فى الحرب العالمية الثانية أمام قوى ألمانيا الجبارة وخضعت الحكومة الفرنسية للاحتلال الألمانى ، وتكونت هيئة المقاومة التى تزعمها الجنرال ديغول باسم (فرنسا الحرة) كان لبنان من البلاد التى ساندت حرية فرنسا المنهارة وعقد مع القائد الممثل لفرنسا الحرة معاهدة أعلن فيها استقلال لبنان فى سنة ١٩٤١ . غير أن الحال لم تلبث أن تبدلت بعد سنتين حين تجددت آمال الحكومة الفرنسية فى الانتصار ، فألقى القائد الفرنسى دستور سنة ١٩٤١ وقبض على زعماء الوطنيين ومن بينهم رئيس الجمهورية ، وأظهرت فرنسا بذلك مدى عجزها

(١٨)

عن الاعتراف بالجميل للشعوب التي وقفت تسندها في أشد أوقات محنتها ، وكان لهذا المسلك اللئيم أثر بالغ في نفوس شعب لبنان ، فرفض الانتداب الفرنسي وبدأ حركة مقاومة عنيفة انتهت في سنة ١٩٤٦ بخروج الفرنسيين مدحورين من البلاد .

وقد برهن لبنان منذ استقلاله على صدق عروبه بقدر ما برهن على حرصه على استقلاله وحرية ، فكان يقف إلى جانب الشعوب العربية الأخرى في كل مصاف تجاه أعدائها ، فوقف أمام إسرائيل في حرب سنة ١٩٤٨ ووقف بحماسة إلى جانب مصر في عام ١٩٥٦ .

وقد شهدت أمم العالم جميعاً كيف هب شعب لبنان يكافح عن حرياته واستقلاله وعروبه عندما حاولت دول الاستغلال إعادة سيطرتها عاياه في الوقت الذي هددت فيه حريات شعب العراق عندما ثار ثورته الكبرى في يولييه عام ١٩٥٨ .

فتاريخ لبنان الحديث منذ قيام الحرب العالمية الأولى إلى اليوم دليل قاطع على أن الشعوب العربية جميعاً تعرف أن سبيلها إلى الحياة الكريمة والحرية هو السبيل الذي يوحد صفوفها وأنها تشعر شعوراً عميقاً بالصلات التي لا يمكن أن تفصم والتي تربط بعضها ببعض منذ قرون طويلة مضت ، بلغت فيها معاً ما بلغته من مجد وحضارة ، وقاست فيها معاً ما قاسته من الكوارث ، وأنها تستقبل معاً عهداً جديداً لا تستطيع مواجهته إلا وهي متعاونة معاً .

٧- الموقف في العراق

كان الشعب العراقي هدفاً آخر للخيانة الكبرى التي ارتكبتها الحلفاء في أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد شارك في الثورة على الحكم العثماني وضحي بدمائه وأمواله في سبيل انتصار الحلفاء وهو يعمل نفسه ببلوغ أمنيته الكبرى في الاستقلال والحرية بعد أن تخمد نيران تلك الحرب . غير أن الحلفاء كانوا يعلمون أنهم يتعاملون بوجهين فيقابلون العرب بوجه ويخلو بعضهم إلى بعض بوجه آخر . كانت إنجلترا تفاوض فرنسا في اقتسام الوطن العربي في الوقت الذي كانت تفاوض فيه الشريف حسين في تحقيق آماني العرب في الحرية والاستقلال . وكانت نتيجة هذا النفاق السياسي فيما يتصل بالعراق أن الدولتين الحليفتين عقدتا مع حليفتهما الثالثة عند ذلك - روسيا - معاهدة (سيكس - بيكو) في مايو سنة ١٩١٦ وقد مر ذكرها ، وكان العراق فيها من نصيب إنجلترا .

ولابد لنا هنا من ذكر حقيقة لها أهمية خاصة فإن الإنجليز بعد أن فرغوا من عقد هذه الاتفاقية بدأوا يمهدون لها مع العرب ليحملوهم على قبولها ففاتحوا فيها الشريف حسين فلما عرضوا عليه ما يدبرونه للعراق ، تردد طويلاً ثم وافق آخر الأمر فقال « إنه رغبة منا في تسهيل الاتفاق ، قد نوافق على أن نترك الآن - لمدة قصيرة - الأراضي التي تحتلها الجيوش

الإنجليزية (ومنها العراق) لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة».

وقد ارتاح المفاوض الإنجليزي لهذا التساهل ارتياحاً عظيماً أظهره في كتابه الأخير الذى بعث به إلى الشريف حسين بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٩١٦ إذ قال :

«والآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق والحريات وتعمل معنا في سبيل هذه القضية المهمة ، فإننا نرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد صداقة دائمة تعود على الجميع بالغبطة والسرور.

وقد سررنا جداً بالحركة التي يقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا ونترك لفتنتكم تقدير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع من هذه»^(١).

فلما انتهت الحرب إلى انتصار الحلفاء ولم تبق لهم من حاجة إلى ولاء العرب كشفوا القناع عن نواياهم في تمزيق الوطن العربي وعلم شعب العراق أنه كان هدفاً لخيانة ماكرة في اتفاق (سيكس بيكو) وأن الإنجليز جعلوه نصيبهم من الغنيمة فوضعوه تحت انتدابهم أو بقول آخر هبطوا به إلى مرتبة التبعية والحماية . فهب ثائراً في الوقت الذى كانت فيه سائر الشعوب العربية تضطرم بالثورة . كانت مصر عند ذلك تغل وتهدف بالحمم على جيوش إنجلترا وكانت سوريا تحشد أبنائها لمواجهة جيوش الفرنسيين .

(١) نقلا عن كتاب «يوم ميلون» للأستاذ الكبير سامع الحصرى .

ووجد الإنجليز أنهم يواجهون مشكلة جديدة في العراق فوق مشكلاتهم الكثيرة وأرادوا أن يجدوا منها مخرجاً سريعاً وأتاحت لهم الظروف حلاً مناسباً فقد كان الأمير فيصل عند ذلك في أوروبا يحاول أن يستعيد عرشه المسلوب في سوريا ، فعرضت عليه إنجلترا أن توليه ملكاً على العراق وتمت الموافقة على ذلك في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ . وبمقتضى هذا الاتفاق نزلت إنجلترا عن حكمها العسكري في العراق على أن تعقد مع الملك فيصل معاهدة تكفل لها السيطرة على شئون البلاد .

وكان ذلك الحل مرضياً لفيصل كما كان مرضياً لشعب العراق على أنه سيزيل عن كاهله عبء الانتداب الذي فرضته عليه إنجلترا . وكانت شخصية الملك فيصل وعلاقته الوثيقة بحلفائه الإنجليز تحول دون وقوع تصادم خطير بين الحكومة العراقية الجديدة وبين الحكومة الإنجليزية ، ولكن هذه الشخصية لم تبق في الحكم طويلاً ولم يلبث الموقف أن عاد إلى خطورته بين شعب العراق ودولة الانتداب في مدة حكم الملك غازي بن فيصل . غير أن مدة حكم هذا الملك الشاب لم تطل كذلك ففرضي نجه في حادثة يحيط بها الغموض واثرت حولها شكوك كثيرة إذ بدا من ذلك الملك ما يدل على طموحه إلى الاستقلال بحكم بلاده . وكان ولي عهده ما يزال طفلاً وهو الذي صار فيما بعد الملك فيصل الثاني ، فعين خاله الأمير عبد الإله وصياً عليه حتى يبلغ الرشد وكان ذلك الوصي من أشد أفراد الأسرة الملكية ولاء لإنجلترا ولم تكن له شخصية قوية

مثل شخصية الملك فيصل الأول .

فى عام ١٩٣٠ عقدت معاهدة جديدة بين العراق وإنجلترا تنطوى شروطها على ما جعل حكم العراق شبيهاً بأن يكون اعترافاً بالانتداب الإنجليزى .

فعاد القلق يستولى على الشعب وزعمائه من الوطنيين الذين توجسوا خيفة من تغفل النفوذ الأجنبى فى حكم بلادهم وتوالت الحكومات التى كان كل منها لا يبقى فى الحكم إلا مدة قصيرة وكان حكم الكثير منها ينتهى بانقلاب فجائى يدل على التوتر الشديد بين الحاكمين والشعب . وقد ظهر أثر سياسة الوصى على العرش واضحاً فى أثناء حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ إذ كانت الشقة واسعة بين حماسة الشعب لمناصرة شعب فلسطين العربى وبين تراخى الحكومة فى مجهودها الحربى ، ثم ظهر ذلك الأثر مرة أخرى عندما اتفقت الحكومة العراقية مع إنجلترا على إنشاء حلف بغداد فى سنة ١٩٥٥ ليكون أداة دفاعية عن مصالح إنجلترا وحلفائها فى الشرق الأوسط ، مع أن الدفاع عن المصالح الإنجليزىة يصطدم مع مصالح الشعوب العربية .

ولما بلغ الملك فيصل سن الرشد استمرت سياسة عبد الإله الموالية للإنجليز وكان من أشد أنصار تلك السياسة نورى السعيد الذى تولى الوزارة مراراً عدة كلما دعا الأمر إلى إحداث انقلاب فى الحكم للمحافظة على ولاء حكومة العراق للسياسة الإنجليزىة .

وقد بلغ تحدى عبد الإله والساسة المتنفذين حوله لمشاعر شعب العراق ذروته عندما تمت الوحدة بين شعبي مصر وسوريا في فبراير سنة ١٩٥٨ فكان رد الحكومة العراقية على وحدة القطرين العربيين الشقيقين لإنشاء وحدة أخرى معارضة بين العراق والأردن .

فلم يبق أمام الوطنيين العرب في العراق إلا سبيل واحد لتلافي ما نجره هذه السياسة على مصير الأمة العربية وهوسبيل الثورة . ففي يولييه سنة ١٩٥٨ هبت ثورة الجيش العراقي العظيمة تدعمها مشاعر الشعب العراقي عامة وأطاحت في غضبها بالخارفة بعبد الإله وبنوري السعيد نفسه وبالعروش الهاشمي والأسرة الملكية ، وأعلنت منذ ذلك التاريخ أول جمهورية عربية في العراق .

وما تزال جمهورية العراق الجديدة إلى يومنا هذا تواجه الموقف الذي خلفته لها سلسلة الحوادث الخطيرة التي بدأت منذ مطلع هذا القرن كما تواجه مخلفات قرون عدة سابقة .

فهى إلى اليوم ما تزال في دور هام من أدوار حياة الشعب العراقي بخاصة والأمة العربية بصفة عامة، وما تزال غلالة من أثر المعركة الهائلة تحيط بها نرجو أن تنجلي قريباً عن الشعب العراقي الحر الذى هب ليحقق أمنيته الكبرى في جمع صفوف الأمة العربية لتواجه معاً مواقف المستقبل المشترك كما واجهت معاً مواقف الماضى المشترك .

٨- الموقف في الأردن

إذا أمكن أن نتصور ذراعاً تفصل من جسم لتعيش وحدها أو غصناً يقطع من شجرته لينمو ويثمر وحده جاز لنا أن نتصور قيام دولة مستقلة في هذه القطعة من الوطن العربي . فالأرض التي تسمى اليوم بمملكة الأردن كانت وما تزال ذراعاً لا يتجزأ عن جسم هذا الوطن العربي أو هو غصن لا يمكن أن يتفصل عن دوحة الأم العربية . كانت هذه الأرض قطعة من أرض العرب منذ أقدم العصور وإن اختلفت الأسماء التي كانت تطلق عليها في كل عصر منها . فسواء كانت قطعة من أرض جلعاد أو من أرض مواب أو من دولة بطرة، فقد كانت على مر القرون جانباً متمماً لكيان الوطن العربي خارج الجزيرة العربية . وهو أول مهبط هبط إليه العرب من جزيرتهم حين خرجوا لنشر دعوتهم الإسلامية في القرن السابع الميلادي ، ومنذ ذلك الحين لم يكن إلا قطعة من بلاد الشام تتمثل فيها الحياة العربية البدوية كما تتمثل في بوادي الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا . هناك ذهبت الجيوش العربية أول ما ذهبت وراء حدود الجزيرة العربية وهناك أحرزت كتائب العرب أول انتصاراتها على جيوش الروم وكانت هذه الانتصارات أول خطواتهم في إنشاء الدولة العربية الكبرى وفي تكوين الأمة العربية الجديدة .

فلسنا نبعد عن الحق حين نقول إن هذه الأرض التي نعرفها اليوم باسم دولة الأردن كانت عتبة الدولة العربية الأولى ولها من المكانة في نفوس الأمة العربية الحالية ما للأقاليم التاريخية التي ترفرف على جوها ذكريات مجيدة عزيزة عليها . فأرض الأردن إنما تستمد وجودها ومكانتها وأهميتها من تاريخها الطويل كقطعة حيوية من الوطن العربي الذي يحتويها ويضمها من كل جهاتها كما تضم الأم وليدها . وقد تعاقبت الدول على حكم الأمة العربية وأرض الأردن في كل عصر وكل دولة باقية كقطعة من القطر الذي كان يطلق عليه اسم الشام ، وكان أهل هذه الأرض وما يزالون إلى اليوم في حياتهم وأسلوب معيشتهم وأنسابهم ومفاخرهم ينتمون إلى أمهم بقلوبهم وعقولهم كما ينتمون إليها في أعماق طبائعهم وعقائدهم .

فليس أعجب من أن تكون أرض الأردن دولة قائمة بنفسها أو أن يكون أهلها شعباً منفصلاً عن أشقائهم الذين يماثلونهم تماثل الماء القراح بالماء القراح أو أن يكون لها عرش يناصب الشعوب العربية العداء .

وقد بدأت الأعجوبة منذ قامت الحرب العالمية الأولى ، فقد خلفت للأمة العربية طائفة من الأعاجيب التي كونت فيما بعد تلك المشكلات التي تتبعنا صورها في حديثنا عن الأقطار العربية المختلفة .

ولا حاجة بنا أن نعيد هنا ما سبق لنا ذكره عن حوادث الثورة العربية على الحكم العثماني ، وعن معاهدة سان ريمو التي تمثلت فيها خيانة الحلفاء الكبرى للعرب وبتقسيم بلادهم التي كانت خاضعة للحكم

العثماني بين دولتي إنجلترا وفرنسا ، وحسبنا أن نذكر إحدى مآسيها إذ جعلت فلسطين والأردن معاً قطعة واحدة تحت الانتداب الإنجليزي . ولا عوضت لإنجلترا الملك فيصل بملك العراق عن عرش سوريا الذي فقده بعد اعتداء فرنسا ، عينت أخاه الأكبر عبد الله بن الحسين أميراً على الجانب الشرق من الإقليم الذي انتدبت عليه وأطلقت عليه اسم (إمارة شرق الأردن) .

ولم يكن في حساب أحد أن هذه الإمارة ستصبح في يوم من الأيام مملكة قائمة بذاتها فإن لإقليم شرق الأردن كان طوال تاريخه قطعة من الشام ويعتمد في حياته على أنه جزء منها فلم تكن موارده الخاصة كافية لإقامة دولة مستقلة لها حكومة وبرلمان وأمير وجيش وسائر ما تضطلع به الدول من الأعباء . ولم يكن عدد أهل شرق الأردن عند ذلك يزيد على نصف مليون من الشعب العربي . غير أن إنجلترا اعترفت به كدولة مستقلة في ١٥ مايو سنة ١٩٢٣ .

وكانت إنجلترا تتولى الإنفاق على هذه الدولة التي صنعها لقاء سيطرتها التامة على شئونها . غير أن الشعوب العربية الأخرى حرصت مع ذلك أشد الحرص على شد أزر الدولة العربية الجديدة على رغم أنها دولة مصنوعة كيلا تسمح لإنجلترا باتخاذ الإقليم وسيلة للهجوم على الأمة العربية ، فلم تتردد الحكومات العربية في سنة ١٩٤٥ في قبوله عضواً في الجامعة العربية على أنه دولة مستقلة . وفي العام التالي عقدت

لإنجلترا معاهدة مع الأردن في عام ١٩٤٦ اعترفت فيها باستقلال الأردن التام واتخذ الأمير عبد الله لنفسه لقب ملك شرق الأردن . غير أن الأحوال بقيت هناك على ما كانت عليه من قبل وكان الإنجليز يسيطرون على الحكم سيطرة كاملة . فلما شبت حرب فلسطين في سنة ١٩٤٨ كان موقف الحكومة الأردنية الخاضعة للإنجليز موقفاً مريباً ، وكانت نتيجة تلك الحرب الكارثة ضم قطعة من أرض فلسطين في غرب نهر الأردن إلى مملكة شرق الأردن وأصبح اسم الدولة الجديدة « المملكة الهاشمية الأردنية » وكانت نتيجة هذه الزيادة مضاعفة عدد سكان الدولة الجديدة فأصبح نحو مليون ونصف كما زادت مواردها بما أضيف إليها من أرض فلسطين .

ولم يكن عجباً أن تصطدم الدولة الجديدة بمشكلات كبرى زادت الموقف فيها تعقيداً ، فإن الشعب الفلسطيني الذي ضم إليها عقب انتهاء حرب فلسطين كان عميق الشعور بما أصاب وطنه من النكبات في حرب إسرائيل ، وما قاساه أهله من الشدائد وما وقع لهم من المآسى على أيدي الصهيونية التي لم ترع عهداً ولم تعرف في اعتدائها معنى للإنسانية . فأصبحت حكومة الأردن تسيطر على شعب ثائر تتقد مشاعره بآثار ما قاساه ، وبالرغبة في العودة إلى وطنه العزيز الذي اغتصبه الأعداء الخونة . وكان من نتائج هذه الثورة النفسية اغتيال الملك عبد الله في القدس في ٢٠ يولييه سنة ١٩٥١ .

وتولى عرش الأردن من بعده ابنه طلال ، غير أنه لم يبق في الحكم طويلا بل اعتزل في مايو عام ١٩٥٣ لضعف قواه العقلية وتولى بعده ابنه الشاب الملك حسين ، الذى لم يلبث أن شعر بما ينطوى عليه الشعب من الثورة فلم يسعه إلا أن يسايره في ثورته في عام ١٩٥٦ حين هب لإزاحة سيطرة الإنجليز على البلاد . وقرر إلغاء المعاهدة التى عقدها جده الملك عبد الله معهم في سنة ١٩٤٦ .

غير أن الأمور لم تكن لتستقر على مثل هذا الوضع ولم يكن من اليسير بناء قصر من الرمال ، فكيف يمكن للدولة الأردن وهى مملكة مستقلة أن تستمر بغير أن تتلقى إعانة تواجه بها ما تحتاج إليه من نفقات ما دامت مواردها لا تكفى لإقامة الدولة المستقلة ؟ عند ذلك كشفت المعضلة عن وجهها الحقيقى فإن دولة الأردن لم تنشأ إلا كى تكون دولة خاضعة لإنجلترا تستمد منها كل مقوماتها وكل تمويلها ، فإذا نحيت إنجلترا عن التدخل فى شئونها وأوقفت مساعدتها المالية لها كان لابد لها من أحد مسلكين فلما أن تعود إلى وضعها الطبيعى فتكون مرة أخرى قطعة من أمها سوريا ولما أن تتساند الدول العربية فيما بينها على إمدادها بالمال لتكون دولة مستقلة . وقد اتفقت الدول العربية الشقيقة على المسلك الثانى بعد مفاوضات كثيرة واجتماعات بين رؤساء الدول العربية .

غير أن ذلك الاتفاق ما كاد يعقد حتى عادت الحكومة الأردنية فسارعت إلى الاتصال بالدول المستغلة الغربية للعودة إلى ما كانت عليه

الأمر قبل عام ١٩٥٦ . وبهذا عاد موقف الأردن إلى ما كان عليه ،
تسيطر عليه إنجلترا وتوجه سياسته لقاء الإعانة التي يستطيع بها إقامة
حكومته والإنفاق على جيش قائم تسيطر عليه بطبيعة الحال قيادة
إنجليزية .

٩ - انتصار الشعب في ليبيا

بقى جهاد شعب ليبيا الباسل مثل شعلة تضيء للأمة العربية منذ
السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى - أي منذ سنة ١٩١٥ واضطرت
جيوش إيطاليا في طرابلس أن تنسحب إلى رقعة ضيقة محصورة من
الساحل كما مر ذكره

ولم تكن تلك الجيوش آمنة في مقبعتها بهذه الرقعة الضيقة، إذ كانت
هجمات العرب تتوالى عليها حتى اضطرت في سنة ١٩١٩ إلى عقد
معاهدة مع زعيم المجاهدين في طرابلس وهو رمضان الشتيوي أو رمضان
السويحلي على أن يعلن الوطنيون جمهورية مستقلة هناك . كما اضطرت
من قبل منذ سنة ١٩١٧ إلى مفاوضة زعيم السنوسيين المحاربين في برقة
وهو السيد محمد إدريس السنوسي (وهو الآن ملك ليبيا المستقلة) بقصد
إيقاف الحرب المشتعلة في سباسب برقة الفسيحة ، وانتهت هذه
المفاوضات باتفاق أبريل سنة ١٩١٧ .

وكان الإيطاليون مثل سائر أبناء الدول المستغلة يضمرون في أنفسهم الغدر منذ البداية ، ويعملون على إعادة الهدوء في البلاد كي يتمكنوا من إيقاع الفرقة بين المجاهدين في طرابلس وبرقة جميعاً بطرق دول الاستغلال المعهودة . وأخذت إيطاليا تحشد الجنود مرة أخرى بعد عقد هاتين المعاهدتين استعداداً للخطوة القادمة التي تضمم القيام بها فما جاء عام ١٩٢٢ حتى بدأت تكشف عن نواياها، وأخذت تعيد الكرة على المجاهدين في كل مكان من حدود تونس إلى حدود مصر . وكانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت منذ سنة ١٩١٨ وتغيرت الأحوال في إيطاليا بتولي الحاكم بأمره موسوليني على حكم إيطاليا في أواخر سنة ١٩٢٢ .

وكانت نقطة البداية لتجدد الهجوم الإيطالي هي اتفاق جبهتي المجاهدين الوطنيين في طرابلس وبرقة على توحيد صفوفهما والاعتراف بالسيد محمد إدريس السنوسي أميراً على ليبيا جميعها في نوفمبر سنة ١٩٢٢ . وأحس الأمير إدريس بنوايا إيطاليا في الغدر فسافر سراً إلى واحة الجغبوب ومنها إلى مصر ليستعد للجهاد المقبل الذي كان لابد منه ، وترك في ليبيا بعض أهله الأقربين ليقوموا على حركة الجهاد في داخل البلاد . ولم يأت شهر مارس سنة ١٩٢٣ حتى جدد الإيطاليون هجومهم على المجاهدين في ميداني طرابلس وبرقة ونقضوا بذلك كل العهد التي قطعوها على أنفسهم في معاهدتي سنة ١٩١٧ (ببرقة) وسنة ١٩١٩ (بطرابلس) . ولسنا نستطيع أن نصف في هذا الحديث الموجز ما كان من تقلبات

الحرب بين الجانبين من نصر وانهمام منذ استأنفت إيطاليا هجومها ، وحسبنا أن نقول إن جهاد العرب كان مثالا رائعا من البسالة مع كل ما كان يعرقلهم من قلة العدد والمال وقلة السلاح وضعفه ، على حين كانت إيطاليا قد جردت للمعركة الطاحنة مئات الألوف من الجند وكل ما لديها من عدد الحرب ومن الأموال . ولم يكن أقل أسلحة إيطاليا ما مهت فيه دول الاستغلال من المكر والدهاء والكيد وإيقاع الفرقة بين المجاهدين . وكان أول الكوارث موت (رمضان الشتيوى) زعيم الجهاد في طرابلس في معركة داخلية مع أحد الزعماء المنافسين . ولسنا نبرئ إيطاليا من تحريك هذه المنافسة وإيقادها ضد مجاهد طرابلس الكبير . وقد فقدت ليبيا بموت رمضان الشتيوى شخصية كبيرة ممتازة . واعتبر الإيطاليون موته فوزاً كبيراً لخططهم الحربية المقبلة .

وتوالى انتصار الجيوش الإيطالية منذ عام ١٩٢٣ ونجحت في كيدها نجاحاً لم تصل إليه قط في مواقعها الحربية ، ولا نستطيع إلا أن نسدل الستار على مناظر القسوة والشناعة التي كانت جيوش إيطاليا ترتكبها في حربها ضد المجاهدين فإنها مأساة دموية تجعل انتصار تلك الجيوش أنكى عليها من الهزائم .

وأما الجهاد في برقة فقد استمر متقطعاً إلى سنة ١٩٣١ حين استطاعت الجيوش الإيطالية الجحارة أن تحاصر عرين الأسد الجريح وتأسره فأنهت بذلك مقاومة سيدى عمر المختار — ذلك الشيخ المجاهد الذى صار اسمه

علماً على الأحرار وسيبقى رمزاً لأسمى مراتب الشهامة والثبات والإيمان .
 وكان من دواعي الحزى للقائد الإيطالى المنتصر (جرازيانى) أن أمر
 بإعدامه فى سبتمبر سنة ٣١ وكان أشد لحزبه أنه فآخر بانتصاره الضئيل
 على ذلك البطل الذى روعه وروع جيوشه أعواماً طويلة مع قلة عدد
 كتيبته الباسلة وقلة ما لديها من المال والسلاح .

وإنه لمن الحق على العرب جميعاً أن يقيموا فى قلوبهم لذلك البطل
 العظيم تمثالا من النور فهو فى صدر أبطال الطليعة الذين كان لهم الفضل
 فى إذكاء مشاعر الثقة بالنفس فى قلوب الأمة العربية جميعاً وكان بشهامته
 وصراحته ورجولته صورة من صور الأبطال العرب القدامى الذين دان
 العالم لعظمة نفوسهم وطهارتها وإيمانها .

ومنذ قضت إيطاليا على المقاومة فى برقة بموت البطل عمر المختار ،
 خلا لها الجحوى لتنفيذ سياستها الاستغلالية فى ذلك الشعب العربى الباسل .
 الذى تمكنت من تقييده بعد حرب دامت لإحدى وعشرين سنة . وقد
 أعادت فى سياستها الاستغلالية كل ما اتصفت به سياستها الحربية من
 عنف وقسوة . فطاردت الأحرار وشردتهم فى البلاد وفى خارجها وسأقت
 جموع الأطفال والنساء والشيوخ إلى المعتقلات فى البرية ليموتوا من الجوع
 والعطش والحرمان من الحرية ، بعد أن قتلت الشبان والكهول أو ألقت
 بهم إلى السجون . وخيل إلى قادة الجيش والحكام المستغلين أنهم قد أخذوا
 روح الشعب وأن لهم أن يسلبوا أرضه وأمواله ، فاغتصبوا كل ما راقهم

من ذلك كى يجعلوه مستعمرات للألوف من أبناء إيطاليا يجردون فيها الغنى والعز والمجد بدلا من حياتهم المحرومة فى بلادهم . ومضت سبع سنوات طويلة على تلك المحاولات الظالمة قبل أن تشب نيران الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ . واشتركت إيطاليا مع ألمانيا فى مغامرتها ضد الدول الاستغلاية الأخرى لعلها تصيب غنيمة أكبر مما نالته من قبل إذا انتهت هذه الحرب كما كان منتظرا بالنصر الساحق لألمانيا وحلفائها .

غير أن الحرب لم تكن إلا وبالا على ألمانيا وحلفائها وكان من الطبيعى أن يشهز زعماء ليبيا فرصتها كى يزيحوا عن أعناقهم نير إيطاليا . فى داخل البلاد هب الشعب مرة أخرى للجهاد، وفى الخارج أعد الأمير إدريس السنوسى جيشاً من الليبيين والعرب للزحف من مصر نحو حدود ليبيا، وساعد الإنجليز تلك الحملة وكانوا فى مدة الحرب يسيطرون على مصر وكانت مصلحتهم تقضى بهذه المساعدة . وشهدت شواطئ ليبيا الفسيحة تقلب الحظ بين الجانبيين المتحاربين ، فكانت جيوش إيطاليا وحلفائها الألمان تتغلب أحيانا حتى تصل إلى ضواحي الإسكندرية وكانت جيوش إنجلترا وحلفائها تتغلب أحيانا أخرى حتى تبلغ قريبا من حدود تونس . وقاسى أبناء الشعب الليبي من آثار هذه الحرب المدمرة أهوالا شديدة ولكنها كانت تهون عندهم على أمل أن تؤدى الحرب إلى اندحار إيطاليا . وانتهت الحرب فى ليبيا بذلك الاندحار فى سنة ١٩٤٣ ، فتنفس الشعب المجاهد الصعداء آخر الأمر .

وبعد سنوات عدة من عواصف السياسة الدولية وعواصف اختلاف الآراء في صفوف المجاهدين ، استقر الأمر على إعلان استقلال ليبيا في ديسمبر سنة ١٩٥١ واتخذ الأمير محمد إدريس لقب الملك إدريس الأول وأعد للبلاد دستوراً اتحادياً يقوم على الاستقلال الإداري للولايات الليبية الثلاث : برقة وفزان وطرابلس .

ولكن ليبيا المستقلة خرجت جريحة متزوفة الدماء من أثر الكوارث التي تعاقبت عليها منذ سنة ١٩١١ ، وكان لمساعدة الإنجليز على تحريرها أثر في قيامهم بتدخل مستور في توجيه سياستها لقاء إعانة مالية سنوية تساعد الدولة الناشئة على القيام بأعباء الحكم . وكان للسياسة الأمريكية كذلك تدخل مستور آخر في لقاء مساعدة مالية أخرى وذلك باتخاذها قاعدة من أهم قواعدها العسكرية على مقربة من مدينة طرابلس . غير أن الشعب الليبي برغم ما يحيط به من الصعاب لم يتردد في إظهار تضامنه العربي الباسل عندما أغار الأعداء على مصر في عام ١٩٥٦ فكانت وقفته حكومة وشعباً إلى جنب مصر في جهادها ضد الأعداء مثالا رائعا لشعور الوحدة القومية العربية التي تشمل الشعوب العربية جميعاً، والمأمول قريباً أن يتمكن شعب ليبيا من مداواة جراحه وإصلاح مرافق بلاده وبناء ما هدمته النكبات المتوالية من جديد حتى يصبح في صدر الشعوب العربية المتحررة التي كان له الفضل في ضرب المثال الرائع لها في الاستبسال للدفاع عن حرياتها .

١٠ - حركة التحرير في تونس

بدأت حركة الجهاد الوطني تشتد في تونس كما بدأت تشتد في سائر الشعوب العربية منذ بدء الحرب العالمية الأولى ، وعلى رغم شدة الضغط الفرنسي هب الشعب التونسي في عام ١٩١٩ كما هب شعب مصر وكما هبت الشعوب العربية الأخرى بقيادة حزب الدستور لاستعادة استقلال تونس . وكانت فرنسا تبذل كل جهد ممكن لتهدة هذه الحركة بوسائل الضغط حيناً ووسائل الكيد والتفرقة بين الزعماء حيناً آخر ، حتى إذا كان عام ١٩٣٨ ولاح شبخ الحرب العالمية الثانية على الأفق اتبعت فرنسا سياسة عنف شديد. دلت على شعورها بحرج موقفها . لقد كانت عند ذلك تواجه الثورات المتتالية من شعب سوريا ومن شعب لبنان وتشعر بحرج موقفها في بلاد المغرب العربي وترى على أفق أوروبا نذير الحرب العالمية الثانية ، ولكنها لم تتبع سياسة التهدة التي اتبعتها لإنجلترا في مصر والعراق بل ألقت القبض على زعماء حزب الدستور الجديد وألقت بهم في السجون أو شردتهم في الآفاق . ولم يخضع الشعب العربي لهذا الإرهاب بل زادت غضبته بازدياد عسف فرنسا حتى إنها اضطرت في أوائل سنى الحرب أن تمنح تونس نوعاً من الاستقلال الذاتي لتهدة ثورته ، فلم يؤد ذلك إلى انخداع الشعب عن آماله في الاستقلال الكامل . فاستمر في كفاحه

حتى إذا لم تستجب فرنسا إلى تحقيق أمانيه هبت الثورة العنيفة في عام ١٩٥٠ وهي الثورة التي انتهت بانسحاب فرنسا وإعلان استقلال تونس سنة ١٩٥٤ مع الاحتفاظ ببعض تحفظات تشبه تحفظات إنجلترا في المعاهدة التي عقدها مع مصر في سنة ١٩٢٢ ، وأهمها احتفاظ فرنسا بالإشراف على السياسة الخارجية ، وعلى قوة الدفاع والشرطة . غير أن هذه التحفظات ألغيت في عام ١٩٥٦ وبذلك أصبحت تونس دولة كاملة الاستقلال من الناحية السياسية فيما عدا بقاء قوة عسكرية فرنسية في قاعدة (بنزرت) .

وقد تخلصت الحكومة التونسية من الأسرة الحاكمة التي تولت حكمها منذ العهد العثماني فعزلت آخر البايات وأعلنت الحكم الجمهوري في عام ١٩٥٧ .

والمأول أن يستطيع الشعب التونسي الحريص على حريته وكرامته أن يزيل بقايا عهد الاستغلال الفرنسي الذي ما يزال ماثلاً في سيطرة الفرنسيين إلى اليوم على الميادين الاقتصادية في البلاد وفي إبقاء قوة عربية خطيرة على الأرض التونسية التي كانت عدة عصور طويلة مهدداً للمجد العربي يشهد بذلك مسجد القيروان العتيق وجوامعته الجليلة .

١١ - البعث الجديد في المغرب العربي

رأينا أنه في الوقت الذي سيطرت فيه الجيوش المرتزقة على الأمة العربية في المشرق، حافظ المغرب العربي على كيانه الأصيل، وكان ركناً ركيناً للعروبة، وله فضل كبير في رد موجات الغزو الأجنبي المنحدر إليها من شعوب غرب أوروبا. ورأينا كيف نبغت في المغرب دول عربية وطنية متتالية كان منها دولة المرابطين المغربية التي هبت لمساعدة أمراء الطوائف الذين تقسموا أرض الأندلس فيما بينهم بعد زوال دولة بني أمية، واستطاعت أن تحافظ على سلطان العرب في الأندلس نحو قرن من الزمان، فلما اضمحلت قواها جاءت بعدها دولة الموحدين المغربية أيضاً، وكان لها الفضل في المحافظة على حياة الأندلس العربية لنحو ثلاثة أرباع القرن.

ولما تقلص ظل العرب في أسبانيا شيئاً بعد شيء في أثناء القرن الثالث عشر للميلاد بقي المغرب العربي محتفظاً باستقلاله وعروبته في ظل دولة بني مرين والدولتين العربيتين السعدية الشريفة ثم العلوية، وهي التي توارثت الحكم منذ القرن الثالث عشر، فلم تنقطع سلسلة الحكم العربي المستقل في المغرب على توالي القرون حتى أواخر القرن التاسع عشر. وكانت فرنسا قد تمكنت منذ بدء القرن التاسع عشر من اقتحام الأرض العربية الخاضعة للدولة العثمانية في شمال أفريقيا فاحتدت على الجزائر في عام ١٨٣٠ وعلى

تونس في عام ١٨٨٠ ولكنها لم تستطع أن تقتحم أرض المغرب العربي إلا في أوائل القرن العشرين منتهزة فرصة الفترة المضطربة التي تولى فيها الصبي عبد العزيز ملك البلاد، فبدأت تتدخل في شئونها متوسلة بوسائل الخداع والكيد والضغط والاقتصاد والابتزاز ، وهي الوسائل التي تتفنن فيها سياسة الاستغلال الأوروبية . فكانت تدبر المؤامرة تلو المؤامرة للتدخل في شئون البلاد وكانت في الوقت نفسه تعقد المعاهدات (الشرفية) مع الدول المستغلة المنافسة لها في اقتسام السيطرة على الشعوب كما فعلت مع إنجلترا في عام ١٩٠٤ حين عاهدتها على إطلاق يدها في مصر لقاء إطلاق إنجلترا ليدها في بلاد المغرب وكما فعلت مع أسبانيا عقب ذلك حين عاهدتها سراً على اقتسام بلاد المغرب العربي فيما بينهما ، وكما فعلت مع ألمانيا في سنة ١٩١١ حين قدمت لها رشوة في صورة ربع مليون من الكيلومترات في الكمرن بغرب أفريقيا لقاء تعهدها بترك فرنسا حرة في السيطرة على المغرب .

وتذرعت فرنسا بمقتل بعض عمال يعملون في شركة فرنسية لمد خط حديدى بقرب الدار البيضاء في عام ١٩٠٧ فاحتلت الدار البيضاء ورباط الفتح وفرضت على حكومة المغرب غرامة فادحة ، وتعللت مرة أخرى بمقتل طبيب فرنسي بقرب مدينة مراكش فاحتلت مدينة على الحدود الجزائرية ، ثم بعثت في عام ١٩١١ جيشاً كبيراً لغزو البلاد فاحتل فاس (العاصمة) وفرضت فرنسا حمايتها على البلاد جميعاً في مارس

سنة ١٩١٢ . ثم قامت الحرب العالمية الأولى فكانت فرنسا تحشد الجنود العرب المغاربة للدفاع عنها حتى انتهت الحرب بفوز ساحق للحليفين فرنسا وإنجلترا وخيل إليهما أنه قد آن لهما أن يخضعا العالم كله لسيطرتهما فتكررت كل منهما للشعوب العربية التي ناصرتها لإحراز ذلك النصر . في الوقت الذي أقدمت فيه إنجلترا على خيانتها الكبرى لعرب المشرق ، أقدمت فرنسا على خيانة عرب المغرب ، فأخذت تبسط سلطانها على بلادهم ، وتحكم قبضتها على موارد ثروتهم وابتزاز أهوالهم ، ولم يغن عن شعب المغرب شيئاً أن قواد الحلفاء اعترفوا صراحة بما كان بلجنود المغرب من فضل في انتصار فرنسا ، وأنهم أشادوا بما امتاز به هؤلاء الجنود من الشجاعة وقوة الاحتمال .

ولكن جمود فرنسا وشراتها ودسائسها لم تستطع أن تطفئ جذوة الحرية في قلوب الشعب المغربي ، الذي تكررت ثوراته على مدى عشرين عاماً أخرى ، وكان لا يتنظر إلا أن يجد الزعيم الذي يسير في طليعته ، حتى يهب في ثورة عامة للجهاد ضد الاستغلال الفرنسي . وقد أتبع له أن يجد هذا الزعيم في شخص السلطان محمد بن يوسف الذي ولي الملك في عام ١٩٢٧ . فاشتدت حركة المقاومة حتى قامت الحرب العالمية الثانية . واستمرت فرنسا في اعتمادها على عرب المغرب في مقاومتها لأعدائها ، ولولا مساعدتهم لها في حركة المقاومة التي قام بها الجنرال ديغول عقب انهيار فرنسا في الحرب العالمية الثانية ، لما أمكن لتلك الدولة أن تقوم لها

قائمة بعد صرعتها الشديدة . فلما وضعت الحرب أوزارها وجنت فرنسا ثمار النصر الذى أحرزها لها الشعب العربى المغربى عادت إلى شراحتها الاستغلالية، وحاولت إحكام قبضتها على الدولة المغربية العربية . فاضطرت نار الثورة مرة أخرى ضد المطامع الفرنسية وأقدمت الحكومة الفرنسية على خطوة بالغة التهور فى عام ١٩٥٣ إذ قبضت على السلطان محمد بن يوسف سليل الأسرة العلوية العريقة ونفته إلى جزيرة (مدغشقر) ، بدعوى أنه يشعل عليها نيران الثورة ! ولجأت إلى وسيلتها التقليدية فى التفرقة بين صفوف الأمة باستخدام بعض صنائعها وإثارة خرافة التمييز بين العنصر العربى والعنصر البربرى من أهل البلاد ولكن تلك الخدعة لم تجد قبولا، وهب الشعب فى حركة عامة من الجهاد المستميت فى سبيل الحرية، حتى اضطرت فرنسا إلى إعادة السلطان إلى عرشه الشرعى فى عام ١٩٥٥ . وبقيت الراية العربية خفاقة فوق الوطن العربى المغربى كما بقيت قديماً طوال القرون، ولم تلبث فرنسا أن اعترفت باستقلال المغرب ، وصار الملك محمد الخامس أول ملك فى عهد البعث إلى الحياة الجديدة للشعب المغربى الحر .

ولكن فرنسا ما تزال تلجأ إلى أساليب دول الاستغلال على رغم اعترافها باستقلال البلاد، فهى تحاول فرض إرادتها عن طريق الضغط الاقتصادى وبمحاولة عرقلة الحكومة الوطنية بسحب الموظفين الفنيين الفرنسيين من خدمتها . على أن الدولة المغربية الحرة سارت فى طريقها

لإقامة الحياة الجديدة بسواعدها . ففي هذه السنوات القلائل التي مرت عليها في عهد الحرية، استطاعت أن تخطو خطوات الجبارة بقيادة زعيمها الملك في سبيل نشر التعليم وتدعيم أسس الاقتصاد . والمستقبل ما زال يفتح أمامها آفاقاً جديدة للتقدم والترقى، والأمل أمامها عظيم في تحقيق ما تطمح إليه، وهي في غنى عن مساعدة فرنسا التي استمرت تستغلها وتهين كرامتها نحو نصف قرن من الزمان .

ولا شك في أن المغرب العربي يجد من كل شعب عربي في المشرق والمغرب على السواء كل ما يتوقعه الشقيق من أشقائه من التعاون المتبادل لتحقيق الخير المتبادل بين الجميع . وإن المغرب العربي الذي بقى حصناً منيعاً للعروبة طوال ثلاثة عشر قرناً ميبقى حصناً لها مدعماً لجهادها في حركة التحرر الحديثة ، وسيكون أبناؤه الذين كان للأجيال المتعاقبة منهم يد بيضاء في بناء الحضارة العربية الأولى جديرين في هذا العصر بأن يعيدوا الكرة في بناء الحضارة العربية الحديثة المشتركة .

١٢ - الجهاد الباسل في الجزائر

لعل التاريخ لم يسجل لشعب من الشعوب ما يسجله اليوم لشعب الجزائر في بطولة جهاده وإصراره على الدفاع عن كيانه وحرته . وقد وصفنا من قبل كيف اعتدت فرنسا على استقلال هذا الوطن العربي في عام ١٨٣٠

وكان ذلك هو الاعتداء الفرنسى الثانى على الوطن العربى منذ مطلع القرن التاسع عشر ، ففى الحال الأولى كان اعتداء فرنسا على مصر بقيادة بونابرت الذى كان يطمع فى إنشاء إمبراطورية فسيحة فى الشرق ، وقد رأينا ما آلت إليه الحملة من الخيبة ، وأما فى الحالة الثانية فكان الاعتداء موجهاً إلى شمال أفريقيا كى تتخذ فرنسا مدخلاً إلى السيطرة على قلب القارة الأفريقية، لتقيم هناك إمبراطورية فسيحة تعوضها على حلم نابليون الذى لم يتحقق فى الشرق . وكان القضاء الساخر الذى تربص بنابليون بونابرت فى مصر يتتبع خطى فرنسا فى شمال أفريقيا ، فلم تستطع أن تشعر بالاطمئنان فى وقت من الأوقات منذ بدأت اعتداءها إلى اليوم . فاصطدمت فى أول الأمر بصخرة شائخة هائلة أعجزتها عن بسط سلطانها على البلاد مدة ثمانية عشر عاماً ، وهى صخرة جهاد البطل العظيم عبد القادر الجزائرى ، ولما استطاعت بجيوشها الجحرة أن تأسر البطل المجاهد ، وجدت نفسها فى محيط واسع ملاً قلوبها رعباً ، فلجأت إلى حيلة سياسية حسبت أنها تؤنس وحشتها فى ذلك المحيط الواسع ، فحشدت مئآت الألوف من الفرنسيين وبعثت بهم إلى الجزائر ليقيموا فيها على أمل أن يكونوا عدة لها فى انتزاع الوطن العربى من أصحابها ، وتحويله إلى أرض فرنسية . ونزعت الأرض من أصحابها وشردهم فى قسوة وعنف تنضاد إلى جانبها قسوة المعارك الدموية وعنفها . وذهب أبناء البلاد المحرومون يلتمسون لهم مقاماً فى الصحراء ، أو يعيشون

مشردين على حوافي المدن التي جعلها الفرنسيون معاقلة لأنفسهم . وبالعالم فرنسا في الاحتيال على تنفيذ خططها البشعة فاستخدمت الخداع متظاهرة بأنها تنظر إلى أهل الجزائر على أنهم مواطنون فرنسيون لهم ما للفرنسيين من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات .

فقسمت البلاد إلى ثلاثة أقاليم ، وجعلت لكل منها نواباً في البرلمان الفرنسي ، ولكنها قيدت حقوق الانتخاب بقيود جمعت تمثيل شعب الجزائر في البرلمان مظهرأ أجوف لا حقيقة له .

ولم يخدع أهل البلاد عن حريتهم بالمظهر الأجوف وواصلوا جهادهم على رغم القيود التي كان الحكم الفرنسي يكبل به الشعب الجزائري . وفي الوقت الذي كانت فرنسا تجعل فيه الحقوق السياسية لأهل الجزائر مظهرأ أجوف لا حقيقة له كانت تنتزع منهم أموالهم وتبسط على كواهلهم بأثقل أعباء الضرائب وتحشد أبناءهم وكهولهم في حروبها ، فكانوا يشهدون وشجاعتهم يعرضون فرنسا عن انحلال أبنائها وقلة غنائمهم في القتال . وكان من أبرز مظاهر السياسة الفرنسية في الجزائر أن أبناء البلاد الشجعان كانوا يحشدون للقتال تحت علم فرنسا على حين كانت فرنسا تبعث إلى الجزائر بفرقة مرتزقة تستمد أفرادها من شذاذ الشعوب الأوروبية الذين لفظتهم . بلادهم بلجرائهم وجرائمهم فكانت هذه الفرقة تجوس خلال الديار فتعتدي على الأبرياء وتبسط بالأحرار المشردين في فيافي الصحراء وتروع المساكين من المحرومين الضعفاء .

وهكذا استمر الحكم الفرنسي في الجزائر على مدى قرن من الزمان وهو صورة بشعة من التحكم الأجنبي العنيف والسيطرة القاسية على شعب مكبل بالقيود والاستغلال الجشع الذي لم يكد يدع لأهل البلاد سوى البقايا التافهة من خيرات أرضهم السخية . واستأثر الفرنسيون النازحون إلى الجزائر بكل ما في البلاد من موارد الزراعة ومن الثروات العظيمة المنطوية في أقابها الفسيحة الغنية بالمعادن .

وظهر جحود فرنسا وأنانيتها في أجلى مظاهره عقب الحرب الأولى عندما خرجت من الحرب منتصرة بفضل جنود الجزائر وإخوانهم من العرب في شمال أفريقيا وبلاد المغرب ، فلنما لم تكافئ أهل الجزائر على بسالتهم في حماية حريتها إلا بزيادة الاعتداء على حرياتهم وسلب أموالهم . وأعادت فرنسا المأساة في الحرب العالمية الثانية ، وكان جحودها بعد انتهاء الحرب أشد وأنانيتها أشنع ، فبدلا من الاعتراف بفضلهم في مناضرة حركة المقاومة التي قام بها ديجول ، سلطت عليهم جيوشها ففتكت بعشرات الألوف من شباب الجزائر الأعزل في خبطة حمقاء واحدة .

غير أن هذه السياسة العنيفة القاسية لم تستطع أن تخضع الشعب الجزائري أو تكسر شوكته ، فاستمر في جهاده حتى تحول ذلك الجهاد إلى ثورته النبيلة الأبية منذ أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ . وشعوب العالم اليوم تنظر إلى هذا الجهاد النبيل في إكبار وإشفاق ، وهي ترى فرنسا تحشد جيوشها لكبت حرياته، وتستخلم الأسلحة التي يسخرها لها حلف

الإطْلَنْطِي فِي التَّنْكِيلِ بِهِ وَمَحَاوَلَةِ إِذْلالِهِ . وَلَئِنْ كَانَ جِهَادُ هَذَا الشَّعْبِ
الْأَبِي قَدْ امْتَدَّ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ عَامٍ ، فَلِئِنْ الْقَضَاءُ الَّذِي تَرْبِصُ بِالطَّاغِيَةِ
بُونَابَرْتِ فِي مِصْرٍ مَا زَالَ يَتَرْبِصُ بِأَحْفَادِهِ الطُّغَاةَ ، وَسَيَكُونُ شَعْبُ الْجَزَائِرِ
قَرِيباً مِنْ أَكْبَرِ دَعَامَاتِ الْحُرِيَةِ فِي الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ أَنْ ظَلَّ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ
الطَّوِيلَةُ مِنْ أَكْبَرِ دَعَامَاتِ جِهَادِهَا وَاسْتَبْسَالِهَا فِي الدِّفَاعِ عَنْ حُرِّيَّتِهَا .

حضارة عربية جديدة

في عهد جديد

إذا نظرنا نظرة الطائر من عل وجمعنا في نظرة واحدة بين أولية أمتنا العربية وبين ما وصلت إليه أحوالها في عصرنا هذا، تبين لنا خط سير طويل ما تزال عليه آثار أقدم الأجيال المتتالية من الأمة، وهي حيناً تسير إلى الأمام في جراءة لا نكاد نجد لها مثيلاً في تاريخ الأمم الأخرى، ثم يضطرب بها السير حيناً آخر فنرى آثار العقبات التي اعترضتها، وبقياء المعارك التي خاضت غمارها، ونستطيع أن نقرأ في تلك الآثار كيف كان الجهاد يوقف نشاطها ويثير كامن قواها، وكيف كان الخلود إلى الدعة يفضي بها إلى الخمول والانحلال، كما نستطيع أن ندرك ما جناه عليها سادتها الأنانيون حين تفرقوا وتنافسوا فيما بينهم تبعاً لمصالحهم وقضاء لآرهم حتى انتهوا بها إلى مواجهة الأخطار التي هددت حرياتنا، وكيف هبت عند ذلك لمواجهة تلك الأخطار وتحملت من جراء ذلك كثيراً من الآلام، وكابدت صنوفاً من المشقات والمآسى حتى استطاعت آخر الأمر أن تتحرك وأن تستعيد حريتها وتبدأ دورة جديدة من أدوار حياتها.

وقد كانت عودة الحركة والحرية إلى الأمة العربية من أكبر الأدلة على قوة مقاومتها وعلى متانة بنائها وتميز شخصيتها. فكم فئيت من أمم، وكم

اندثرت من حضارات ، وهى لم تقض إلا جزءاً يسيراً من الزمن إذا قيس بالحقب الطوال التى قضتها الأمة العربية فى سيرها عبر القرون .

ولقد تغيرت أحوال العالم على مر هذه القرون وتبدلت طرق الحياة حتى صارت إلى ما نراه قائماً فى وقتنا الحاضر ، وهى تختلف اختلافاً كثيراً عما كان عند ما بدأت أمتنا العربية حياتها الطويلة . فهمضتنا الحاضرة نحن العرب تتسم بظاهرتين متلازمتين لا مفر لنا من أخذهما فى الاعتبار حين ننظر إلى أنفسنا ، الأولى أن حركتنا الحاضرة استئناف لحياتنا القومية التى ما زالت محفظة بخصائصها ومقوماتها الأساسية ، فهى استمرارها وهى دورة جديدة منها ، ولم تقطع مئات السنين التى مرت من حياة الأمة العربية خيط الاتصال بين أوليتنا ومنهانا إلى عصرنا هذا . والظاهرة الثانية أن حركتنا الحاضرة تقع فى عصر غير العصر الذى نشأت فيه أمتنا ، وفى ظروف تختلف اختلافاً عظيماً عن الظروف التى كانت تحيط بها عند ابتداء حركتها الأولى . والنتيجة الطبيعية لهذا الازدواج أننا فى نهضتنا الحاضرة نأخذ فى بناء حضارة جديدة تستلزمها ظروف حياتنا الجديدة ، ونريد أن نختارها أصلح الأنماط وأن نتحرى الحكمة فى تصميم الطراز الذى ينبغى أن يكون لها . فهل يقضى هذا الازدواج علينا أن نختار بين طراز حضارتنا الأولى وبين طراز حضارة العصر الذى نعيش فيه ؟ إما هذا وإما ذاك ؟ هل نتجه نحو حضارتنا العربية الأولى وندير ظهورنا إلى حضارة عصرنا هذا فنتخذ نموذجنا منها لأنها الحضارة الأم التى نعلها مفخرة لنا ؟ أم ندير

ظهورنا إليها وتتخذ نموذجنا من الحضارة العالمية القائمة اليوم لأنها تمثل التقدم الحضارى الإنسانى ؟ إن مستقبل حضارتنا الجديدة يتوقف على الاتجاه الذى نختاره لأنفسنا عن وعى أو عن غير وعى . وأخطر الأحوال أن نندفع فى اتجاهنا واختيارنا عن غير وعى . لقد طالما أخطأت الأمم طريقها عند ما اختارت لحضارتها طرازاً أعجبها ظاهره ثم تبينت بعد حين أنها قد أخطأت فى الاختيار بعد أن أوغلت فى سيرها حتى تعدت عليها العودة أدرجها .

ها هى حضارة العصر الحديث قد بلغت ما بلغت من التقدم فى كل ميادين العلوم والفنون والإنتاج الفكرى والأدبى ، ولكن الشكوى ترتفع فى كل مكان من خطر داهم يهددها أن تنهار فجأة من أثر عوامل مدمرة كامنة فيها ، وهى عوامل ترجع إلى الروح الذى يسرى فى عروقها منذ قرون . والسبب الذى أدى إلى هذه الحال المحزنة إنما هو الخطأ الذى ارتكبه شعوب أوروبا فى أول نهضتها عند ما اختارت الطراز اليونانى الرومانى الوثنى القديم ليكون نموذجاً لحضارتها . وقد وصل كثير من المفكرين الغربيين إلى حقيقة هذه العوامل المدمرة ، التى تسرى فى عروق حضارتهم الغربية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يرجعوها أدرجها كى تصلح خطأها . وإنا نجرؤ فنقول : إن هذه الحقيقة تبدولنا واضحة إذا نحن تتبعنا مجرى الحضارة الأوروبية إلى منابعها الأولى . كان أول قبس أضاء على ظلمات الجهالة فى أوروبا منبعثاً من الشرق ، أو بقول أدق كان منبعثاً من الأمة العربية . كانت العلوم العربية والثقافة

العربية هي أول ما تلقاه أهل أوربا من النور في أعقاب عصرهم المظلم الطويل . فالحضارة العربية كانت أقرب الحضارات عهداً لمولد الحضارة الأوروبية الحديثة .

وقد كان من الطبيعي أن يكون طراز الحضارة العربية هو المؤثر المباشر في طراز الحضارة الأوروبية الحديثة . بل إن شيئاً من هذا بدأ يحدث فعلاً في جنوب إيطاليا وصقلية في أول نهضة أوروبية حديثة على يد الملك روجر الصقلي ، وإن شيئاً منه استمر يحدث في أسبانيا نفسها مع شدة العداوة بين ملوكها وبين العرب . ومن جهة أخرى كان فجر عصر النهضة الأوروبية مشبعاً بروح الدين بل كان مشبعاً بروح التعصب الديني الشديد ، وكان المنتظر أن تكون مبادئ الدين المسيحي هي أساس الحضارة الأوروبية الحديثة . ولكن الحضارة الأوروبية لم تلبث أن تنكرت للحضارة العربية وللدين المسيحي ، واتجهت نحو الحضارة القديمة الوثنية من رومانية ويونانية وأدارت ظهرها لكل ما عداها حتى أنها اتسمت بعد القرن الثالث عشر والرابع عشر بالتحلل الخلقي في الفنون والآداب ، وصارت حضارة روما المستغلة الطاغية المسيطرة على الشعوب هي المثال الأعلى للدول الأوروبية الحديثة . هذا هو سر العوامل المدمرة في روح هذه الحضارة التي بلغت ما بلغته اليوم من التقدم المادى ، فهي مع كل ما أحرزت من تقدم تشكو من خوائفها الروحية ومن اتجاهها الوثني ، الذى لا يعتد إلا بالقوة المادية ولا يخضع إلا للقوة المادية . فهي وثنية في وحشيتها حيال الشعوب (٢٠)

التي تتحكم فيها وتلها وتخضعها بالحديد والنار . وهي وثنية في تعاملها وفي منافساتها ، لا تعرف معنى للتعايش السلمى الإسلامى أو المسيحى ، وتعد عدة الهلاك للهجوم على أعدائها ، ولا تتورع عن وسيلة ولو كانت دنيئة من الناحية الإنسانية إذا كانت توصلها إلى غاية مادية تحرص على تحقيقها .
فهذا الخطأ الذى ارتكبه الحضارة الأوروبية جدير بأن يفتح أعيننا على أهمية اختيارنا فى وقتنا هذا . فكيف نختار إذن طريقنا وأى أساس نختاره لنقيم عليه الحضارة التى بدأنا فى بنائها ؟

إننا لا نستطيع إلا أن نذكر أن الفضل فى بقاء أمتنا العربية طوال عهود جهادها ضد الصدمات التى وجهت إليها إنما يرجع إلى العناصر الجهورية فى موارثنا العربية التى ورثناها من حضارتنا الأولى . فلماذا نحن نبذلنا هذه الموارث كان ذلك بمثابة التخلي عن العوامل التى كانت صاحبة الفضل فى بقائنا إلى اليوم ، والتى مكنتنا من تحمل كل الصدمات التى وجهت إلينا ، ومقاومة كل محاولة لإفناء شخصيتنا ، ونكون بذلك مثل من يلقى سلاحاً كفل له السلامة فى معركة هائلة ، لأنه انخدع بمظهر سلاح آخر لم يجربه من قبل . لقد أنجنتنا موارثنا من الفناء فى الماضى والحاضر وهى جديرة بأن تنجيننا فى المستقبل . ولسنا نقصد بهذا أن الأفضل لنا هو العودة إلى الماضى والنظر إلى كل ما كان فيه على أنه مثال أعلى فتتخذة نموذجاً لنا فى بناء حضارتنا . فأول ما ينبغى لنا أن نحصر عليه هو أن نلحق بركب الأمم فى تقدمها العلمى وأن نعب من كنوز المعارف التى

تكلمت على مر القرون الأربعة الماضية في ميادين الفكر وأسرار العلم .
وعلينا بغير جدال أن نتبع في إنتاجنا الصناعى والزراعى وفى كل
ما يتعلق بتنمية ثروتنا أساليب الإنتاج الحديث لأنها آخر ما استطاع العقل
البشرى أن يصل إليه ، لتوفير الجهود وتحقيق أكبر فائدة ممكنة من أقل
مجهود ممكن . بل علينا أن نعاون بكل ما فينا من عبقرية على الترقى بهذه
الأساليب ، كى نصيف إلى الحضارة الحاضرة أساليب أكثر توفيراً للخبرات
والسعادة والرفاهية .

غير أنه لا ينبغي لنا أن ننسى بعض الحقائق الكامنة فى حياتنا ، وأن
نواجهها بصراحة . لأن إنكار الحقائق لا ينفى عنا شيئاً فى معركة الحياة ،
وهى معركة تحتاج منا إلى الجهاد الأكبر وهو الجهاد فى داخل أنفسنا .
فهناك ميادين للجهاد الداخلى أوسع من ميادين الحروب وأكثر تطلباً
للتضحية بالجهود والأموال . هناك ما خربته يد الإهمال على مدى القرون
من مرافق البلاد وما عطله الاستغلال الأجنبى من تقدمها ، وتعمير ذلك
التخريب ، وهناك تدارك ما ضاع على الأمة من وجوه الإصلاح فى وقت
انعزالها وانكماشها عن الاهتمام بشئون حياتها . كل ذلك يتطلب منها جهوداً
ضخمة ونشاطاً متصللاً وأعباء ثقيلة . هناك فى الأمة العربية ملايين من
الجهلة ولا يمكن أن تنهض أمة تفشى الجهل فيها ، وهناك ملايين من المرضى
والضعاف ولا يمكن أن تنهض الأمة بهم . وهى تحتاج إلى بذل الجهود الكبرى
فى التعمير والإصلاح . وهناك طبقات فوق طبقات من رواسب قديمة

خلفتها جهود الظلم والاستغلال، وكان لها أثر بشع في إفساد النفوس وتحطيم القيم السامية، وإضعاف الثقة بين الأفراد، ولا يمكن لأمة أن تتقدم إلا بالنفوس السوية والقيم العليا والثقة التامة بين الناس . وقد كان من أسوأ هذه الرواسب وأشدها وبالاً على حياتنا العامة طغيان الأنانية التي عملت على تفتيت الجهود وتشتيت الصفوف مع أن مفتاح نجاح الأمة في الحاضر والمستقبل هو تعاونها معاً، ووقوفها صففاً واحداً في الدفاع عن حريتها وفي إصلاح ما فسد من شئونها. وتاريخ الأمة العربية دليل قاطع على أن نهضتها الكبرى لم تتحقق لها إلا حين آمنت بالرسالة الإنسانية العليا التي جعلتها تنبذ الأنانية المحطمة، وتوحد كلمتها لنشر رسالتها، كما أن هذا التاريخ يبين في وضوح أن نهضة الأمة لم تضمحل إلا عند ما نسيت رسالتها، وتخلت عن الإيمان بمثلها العليا وأطاع قادتها وحكامها دوافع الأنانية طاعة هوجاء، وقنع كل منهم بما يعود عليه من المنافع العاجلة فتنافسوا على تلك المنافع تنافساً عاد عليهم جميعاً بأوخم العواقب . ولسنا نريد التعرض لمناقشات جدلية حول الأنانية، وهل من الطبيعي أن يتجرد الناس منها، فإن هذه المجادلات لا تستطيع أن تشكلك في الحقيقة التي ينطق بها تاريخ الإنسانية في كل العصور، وهي أن الغرائز الإنسانية ومنها الأنانية إذا انطلقت من كل قيد أدى ذلك إلى انفرط عقد المجتمع وفساده . ولم تنهض أمة من الأمم في الماضي القريب أو البعيد إلا حين آمنت بعقيدة تحدد أنانية أفرادها، سواء كانت هذه العقيدة منبعثة من منبع ديني

أوفلسفى أو من إجماع رأى عام قوى . ولسنا فى حاجة إلى التماس عقيدة تحدد الأنانية فى مجتمعنا الحديد لأن موارثنا كفيفة بذلك إذا نحن جلوناها وأزلنا ما تراكم عليها من غبار عصور الاضمحلال ، وأعدنا لإيها اعتبارها كى تستطيع أن تقاوم المؤثرات الأجنبية التى طرأت على حياتنا وزعزعت عقيدتنا فى موارثنا .

وقد برهنت لنا التجربة على أن تلك الموارث متأصلة فى نفوسنا وفى أعماق عقولنا، وإن مظاهر الحياة الأجنبية الطارئة علينا لا تلبث أن تصطدم بالمشاعر العميقة فى نفوسنا، وتؤدى إلى نكبات ومآس لا حصر لها . إن الذين يندفعون فى التقليد ويأخذون بأساليب الحياة الأجنبية، إنما يقبأون تلك الأساليب بسطح عقولهم وهم فى باطن شعورهم يرفضونها . فإذا ما انساقوا معها وأوغلت بهم فى الاندفاع حتى بلغت الحد الذى لم يتوقعوه، ثارت مشاعرهم المتأصلة من أعماقها وتراجعوا عنها فى حنق، وقد يؤدى بهم الحنق إلى بوادر عنيفة تؤدى إلى وقوع المآسى . فهناك طائفة من العرب مثلا اندفعوا فى تقليد أساليب الحياة الأوربية فى اختلاط الرجال والنساء، وكانوا فى هذا التقليد مندفعين وراء أفكار طارئة على حياتنا وأساليبها المتأصلة فى النفوس، وكان قبولهم لهذه الأفكار لا يتعدى سطح عقولهم . فحين يسوقهم هذا التقليد إلى مواقف تأباها مشاعرهم العميقة يرفضون ما سبق أن خيل إليهم أنهم قبلوه، وقد يصاحب رفضهم لها قليل أو كثير من العنف، فتفسد العلاقة بين الرجل وزوجته أو بين الفتاة وأبيها أو أخيها ، وقد يؤدى فساد

هذه العلاقة إلى وقوع المأسى الفاجعة التي تطلع علينا بين حين وآخر .
على أننا حين نتحدث عن موارثنا لا نقصد كل ما انحدر إلينا من الماضي ،
فلا ينبغي لنا أن ننسى أن كثيراً من الشوائب خالطت هذه الموارث على
مر الدهر ، وكان لها أثرها السيئ في الهبوط بحياة الأمة ، وكان من أشدها
ضرراً ما أثر في حياة الأسرة العربية وفي عقلية جماهير الأمة نحوها ،
وحسبنا أن نذكر بعضها على سبيل المثال :

لقد نحيث المرأة العربية الحرة في كسريتها في المجتمع العربي منذ حين
وصارت إلى ما صارت إليه المرأة الحرة في أثينا القديمة من الجهل وضعف
الشخصية والانزواء عن الحياة العامة ، وكان السبب في الحالين واحداً .
ففي أثينا القديمة كان السبب في هذه الحال إقبال الرجال على اتخاذ نساء
مسامرات كن من الطبقة الدنيا ، ولكنهن كن على حظ وافر من الثقافة ،
ولذلك استطعن مجازاة الرجال في تفكيرهم وإيناسهم في مجالسهم بدكاثن
وثقافتهم وعنايتهم بجلاء محاسنهن . وهكذا كان الحال في المجتمع العربي
في وقت من الأوقات إذ أقبل الرجال على اتخاذ السراري من الإماء وجعلوهن
في محل الزوجات الحرائر ينجن لهم الأولاد كما جعلوهن مسامرات لهم
في مجالسهم ليخلعن عليها البهجة بدكاثن وثقافتهم . وكان تجار
الرقيق الكثيرون يعنون عناية كبرى بتعليم هؤلاء الجوارى وتدريبهن على فنون
الأدب والرقص والغناء ، فكان لمن شأن كبير في الأسرة والمجتمع . والذي يعيننا
من هذه الظاهرة التي طرأت على المجتمع العربي القديم أنها أفسدت حياة

الأسرة في قصور الخلفاء والأعيان بل تسربت إلى بيوت جماهير الأمة من التجار، وكل من كان يستطيع شراء الجوارى . وقد انحدر أثر هذه الظاهرة في المجتمع العربي إلى العصور التالية في صور شتى : منها أن تعليم البنات الحرائر صار ينظر إليه على أنه هبوط بهن إلى مرتبة الجوارى ، فسادت الجهالة أجيالاً متتالية من المرأة العربية، إلى أن أمكن لبعض البلاد العربية أن تحطم ذلك التقليد الخاطئ بعد مقاومة شديدة من الرأي العربي العام . غير أن هذه الآثار ما تزال قائمة في بعض البلاد العربية التي يجاهد مفكروها في تخفيف حدة المعارضة لإخراج المرأة العربية ، من عزلتها عن مجتمعتها بغير أن يتعدى ذلك حدود موارثنا الأصيلة . وقد كان لذلك التقليد القديم أثر آخر في الآداب والفنون العربية ، فإن ارتباط مجالس الإيناس بالجوارى جعل تلك المجالس في أكثر الأحوال مغرقة في اللهو والمجون وشرب الخمر ، ولم تلبث الجارية المؤنسة أن اتخذت أداة للمتعة الحسية . فكان لهذا الاتجاه أثره الخطير في الإسفاف بفنون الأدب العربي والموسيقى والرقص، وحال بينها وبين السمو إلى الآفاق العليا . ويمكن أن يقال إن شيئاً من هذا الأثر الخطير ما يزال قائماً في مجتمعاتنا العربي، إذ أن ظاهرة المتعة الحسية ما تزال غالبية على كثير من الإنتاج العربي في الأدب والموسيقى والرقص .

وهذه حال لا يمكن معها الرقي الاجتماعي الذي ننشده في حياتنا الجديدة، وعلينا أن نغني بالتساي بالأدب والفن فوق تلك المرتبة التي هبط

بهما إليها ذلك الاتجاه الخاطئ القديم .

وهناك مثال آخر لتلك الشوائب الضارة، وهو احتقار الأعمال المهنية في الصناعة والزراعة وما إليها من الأعمال الخطيرة في ميادين الإنتاج . فند سيطرت العناصر الأجنبية على الحكم والسياسة في الأمة العربية عكفت جماهيرها على شئون المعيشية بمعزل عن الحكم والسياسة ، وأصبح الامتياز في الأعمال المهنية لا يؤدي إلى الارتقاء في المستوى الاجتماعي إلا في حدود الجماهير المنعزلة عن الحكم والسلطان، فكان الممتازون في الحرف لا يتعدون الطبقة الدنيا من المجتمع الذي قسم إلى طبقتين منفصلتين، وتكادان تكونان متعاضدتين وهما طبقة السادة وطبقة الجماهير العاملة . وكان حظ العلماء والأدباء خيراً من حظ الممتازين في الحرف، لأن السادة كانوا يقربونهم ليستعينوا بهم على تقوية سلطانهم ، فكانوا يقربون العلماء ليكونوا عوناً لهم على إحراز ثقة الشعب، وكانوا يقربون الأدباء ليقوموا بالدعاية لهم . وإذا كان ذلك قد هبط بقدر الأدب إلى مرتبة التبعية والدعاية لأصحاب السلطان ، فإنه قد جعل المثقفين كذلك يترفعون عن أعمال المهن وأصحابها . وقد استمر هذا الاتجاه إلى عهد قريب مع اختلاف الظروف، فإن المتعلمين عامة كانوا يحرسون على أن يلتحقوا بالوظائف التي يعدونها خاصة بالسادة فهي أعلى مرتبة في المجتمع من أعمال المهن. وقد كان لهذه الحال أثر سيئ آخر عن طريق غير مباشر، فإن طبقة الموظفين في الأمة العربية كانت ولعلها ما تزال إلى الآن تعد نفسها سادة بالنسبة لجماهير الأمة ،

وهذا من أكبر العواقب التي تحول دون الحياة الديمقراطية الحق ، ولا يمكن أن يستقيم الحال في مجتمعنا الحديد إلا إذا عاد التوازن العادل بين طوائفه ، فأعيد الاعتبار إلى أعمال المهن ، وجعل لها المكان المناسب في التقدير الاجتماعي ، وأعيد النظر في حقيقة المكانة التي ينبغي أن تكون للوظائف وشاغليها على أنهم خدام للمصلحة العامة وليسوا سادة للجماهير ولا ملحقين بطبقة من السادة .

وإذا شئنا أن نعدد الأمثلة على الشوائب السيئة التي داخلت موارثنا لأضفنا عدداً آخر تضيق عنه هذه الصفحات ويكفي أن نذكر واحدة منها تتصل اتصالاً قريباً بالعوامل التي أدت إلى إبعاد الشقة بين طبقات الأمة . فقد استطاع عدد من الأفراد في المجتمع العربي القديم أن يحتلوا مكانة اجتماعية سامية عن طيق المال الذي أحرزوه في ظل العصور التي كانت فيها الأناية الفردية مطلقة من كل قيد ، وكان الكثير منهم عاطلاً عن العمل ، إذ كانوا يعدون الأعمال المهنية دون كرامتهم الاجتماعية ، واستطاع بعضهم أن يستخدموا الأدياء للدعاية لأنفسهم كما استطاعوا أن يكتسبوا عطف الحكام بهداياهم وأن يكتسبوا خضوع العامة لهم بما كانوا يقدمون لهم من العطايا في صور من (الإحسان) المباشر الذي تمتد به يدهم العليا . وكان بعضهم يكتسب مكانة دينية تزيد اعتبارهم الاجتماعي بما يظهرونه من مظاهر التدين مثل بناء المساجد . فكان لعلو المكانة الاجتماعية للأغنياء العاطلين أثر سيئ في المجتمع

لأنهم كانوا أداة في إضعاف هذه الأمة بما انصرفوا إليه من حياة البذخ والترف والإسراف والهبوط بالمستوى العام الخلقى بما جرّوه على المجتمع من آثار استهتارهم باللهو، وإغراقهم في الملذات الحسية، وهدم القيم العليا في جماهير الأمة .

وقد فطن المفكرون من أبناء الأمة العربية الحديثة إلى ما حاق بحياتنا من آثار هذه الأحوال ، وأخذوا في الكشف عن مكان هذه العلة الزمنية ومحاولة التماس العلاج لها . ولكننا ما نزال في أشد الحاجة إلى مزيد من الجهد في معالجة الآثار التي ما نزال قابضة في ثنيات مجتمعتنا، مثل قبوع الميكروب في ثنيات البدن كي يهيج في أول فرصة للفتك به . إن الاتجاه الذي اتجه إليه الأغنياء العاطلون ما زال ماثلاً في حياتنا في مظاهر شتى يمكن أن نلخصها تحت عنوان واحد وهو إثثار اللهو على الجسد . ونحن في نهضتنا الحاضرة في أشد الحاجة إلى الجسد الصارم ، وإذا كان ولا بد أن نتيج لأنفسنا فرصة للترفيه والاستجمام فللترفيه والاستجمام متسع لصنوف كثيرة في مجالات لا تهدر كرامة الجسد ولا تنافيه . إن الأغنياء العاطلين كانوا في أكثر الأحوال يؤثرون اللهو الرخيص ، وهو لا يؤدي إلى ترفيه ولا إلى استجمام ، بل هو إذا حققنا النظر فيه نوع من الإجهاد الذي يلجأ إليه العاطلون ليدخلوا إلى حياتهم الخاوية نوعاً من النشاط المجهّد، وفي موارثنا الأصيلة مقاييس سامية لا بد لنا أن نحفظ بها كي نهتدى إلى ما هو جدير بنا من الجسد وما هو جدير بإنسانيتنا من الترفيه الكريم .

وهناك موضوع هام بالنسبة إلينا في نهضتنا الحاضرة، وهو العمل بكل ما نستطيع على وحدة اتجاهنا في بناء حضارتنا الجديدة . لقد بنى العرب حضارتهم الأولى وهم صف واحد لا انصداع فيه ، ولكن الظروف القاسية التي مرت بها هذه الأمة أدت إلى تصدع الصف في الأمة بوجه عام بتفتت الوطن العربي إلى قطع صغيرة، وإثارة النزعات بين كل من هذه القطع ، كما أدت إلى تصدع المواطنين في كل وطن إلى أحزاب وفرق . وقد نشأ هذا التصدع في عصور كانت الظروف تسمح به من أثر الحوادث الطارئة التي أشرنا إليها خلال هذا الحديث . ولكن نهضتنا الحاضرة جديرة بأن تزيل آثار تلك الظروف وأن تقتلعها من أساسها . والذي يدعونا إلى ذكرها شيء واحد وهو أن بعض الأعداء يحاولون إقامة العقبات في سبيل وحدة الصف العربي بدعائياتهم المسمومة . والجدير بنا أن نواجه هذه الدعايات المسمومة بكل ما نستطيع أن نقوم به لإظهار حقيقتنا . فإن الأمة العربية معروفة في كل عصور تاريخها بأسمى أنواع التسامح وفي موارثنا من ميادين المساواة والعدالة ما ينفي كل تفريق بين المواطنين على أساس إختلاف الدين أو الجنس أو اللون .

هذه أمثلة فنصربها للدلالة على أن أمتنا في وقتنا هذا تواجه جهاداً ضخماً في جهات عدة وعلينا أن نكون على وعي تام بالمواطن التي ينبغي لنا أن نوجه إليها جهادنا ، حتى نتمكن من حسن الاختيار للطراز الذي نقيم عليه حضارتنا . إنه لا معدى لنا عن الأخذ بجانب هام من أساليب

الحضارة العالمية الحديثة ، ولكننا في الوقت نفسه لا معدى لنا عن الحرص على العناصر الأساسية من حضارتنا العربية الصميمة ، وهى العناصر التى أشرنا إليها من قبل فى حديثنا عن شخصية الحضارة العربية .

وإذا كان هناك أكّداس من الرواسب الضارة فى العادات والتقاليد أو النظم الاجتماعية فلا بد لنا من تطهير موارثنا منها حتى لا تعرض حضارتنا الجديدة إلى آثارها المدمرة .

لمحة من المستقبل

لقد كان من نصيب الأمة العربية أن تبتدئ في التحرك من جديد وأن تتحرر وتبدأ في بناء حضارتها أو تستمر في بناء حضارتها . في هذا العصر الذى تقدم فيه العلم تقدماً مذهشاً ، وكان تقدمه في السنوات العشرين الماضية أعظم مما قطعه في ألوف من السنين مجتمعة . ولا مفر لنا من أن نواجه الحياة في عصرنا هذا وأن ننظر إلى أنفسنا لنعرف أين مكاننا بين الأمم وأن نحاول جهدنا أن نساير ركب التقدم الحضارى ، كما ينبغى لأمة فتية دبت فيها حياة جديدة . ولعل عصور الخمود والركود التى مرت بنا كانت بمثابة التجاء العربى إلى أعماق الصحراء عند ما ينهزم في معركة كى يتحفظ للعودة إلى الميدان مرة أخرى إذا استجم وضمد جراحه . وليس من طباع الأمة العربية الغرور والادعاء ولا الكبرياء ، فلنأخذ ما بدأت بناء حضارتها الأولى بلحأت إلى علوم الإغريق وإلى فنون العراق ومصر وشمال أفريقيا والأندلس فاغترفت منها ثم طورتها وتفتنت فيها واستطاعت على مر الزمن أن تبتكر وأن تبتدع وأن تهب لغيرها مما عندها . ومع كل ما ابتدعته وابتكرته لم تنس فضل الحضارات السابقة عليها ، بل كانت وما تزال تعترف لها بالفضل والسبق ، على خلاف ما جرت عليها شعوب أوروبا التى اغترفت ما اغترفته من حضارة العرب ثم كافأتها على

فضلها بالإنكار وتعتمد التبرؤ منها . فنحن مثل أجدادنا نعرف أننا في حاجة إلى الاعتراف من الحضارة الحديثة التي وجدناها سابقة تحتل ميادين النشاط عند ما بدأنا ننتبه . ولكننا أيضاً مثل أجدادنا نستطيع عند ما نأخذ عن سوانا أن نصيف إلى ما نأخذه إضافات نفيسة، وأن نطور الحضارة التي نستعيرها ونفتن في تطويرها وأن نبتدع ونبتكر وأن نهب لغيرنا من آثار ابتداعنا وابتكارنا .

غير أننا مع هذا نرى الأدلة كلها تشير إلى أن حضارتنا لا ينبغي لها أن تكون نسخة طبق الأصل من الحضارة الحديثة ، بل لا بد لها أن تصطبغ بصبغة خاصة تميزها لأنها تنطوى بطبيعتها على عناصر جوهرية في موارثنا لا تشبه العناصر الجوهرية في هذه الحضارة الحديثة .

ونحن إذا تحررنا الصراحة التامة والصدق في تفكيرنا لم يخف علينا أن الحضارة الحديثة السائدة اليوم في العالم مهددة تهديداً مخيفاً ، لأنها كما سبق أن قلنا تنطوى في كيائها على بعض العناصر المدمرة الموروثة من الحضارات الوثنية القديمة . وقد فطن كبار المفكرين في العالم في وقتنا هذا إلى الأخطار الشديدة التي تهدد الحضارة الغربية الحاضرة ، وكثير منهم يوجهون إليها لوماً شديداً لحلوها من العنصر الروحي الإنساني ، ويقول بعضهم في صراحة إن هذه الحضارة في أشد الحاجة إلى أن تجدد دماغها بإضافات من المبادئ العليا المسيحية . ولا عجب في هذا فإن المبادئ العليا المسيحية هي المبادئ العليا التي جاءت بها الأديان الأخرى ،

وكلها تدعو إلى الإنسانية والعدل والتسامح والرحمة والإنصاف وغير ذلك من الفضائل .

وقد كان من أخطر عناصر التدمير في الحضارة الغربية الحديثة اتجاهها إلى الاستغلال الذي تحدثنا عنه فيما سبق ، وهو اتجاه وثني ورثته هذه الحضارة عن الحضارة الوثنية الموروثة عن روما التي كانت تتحكم في الشعوب وتسيطر عليها من أعلى كما يسيطر السادة الجبابرة على المستضعفين .

وهذا الطغيان الذي تتميز به الحضارة الغربية في حد نفسه رذيلة، ويكفي أن يكون عنصراً مدمراً خطيراً . غير أنه أدى إلى فساد آخر يمكن أن يقع الدول الاستغلالية بالخطر الذي يهددها إذا كانت رذيلة الطغيان لا تكفي وحدها لإقناعها بالعدول عن مسلكها . فإن التنافس الذي تفاقم أمره بين الدول المستغلة نفسها وأدى إلى سلسلة من الحروب الطاحنة وما يزال يؤدي إلى التوتر المستمر بين الدول الكبرى منها يمثل تهديداً ظاهراً أمام الأعين جميعاً . وها هي الدول الكبرى تحس الآن بأنها تقف على فوهة بركان قد ينفجر في أية لحظة ، ولهذا بدأت تفكر في الوسائل التي تنجها من ذلك الموقف الانتحاري . غير أنها مع ذلك مقيدة ولا تستطيع أن تتحرك حركة طبيعية حرة طاعة لتفكيرها وإخلاصاً لنفسها في التماس النجاة من الخطر الداهم . هي مقيدة باندفاعها الأول في اتجاه الاستغلال ولن تستطيع التحرر إلا إذا عدلت عن ذلك الاتجاه . هي مستعبدة لشهوة

الاستغلال ، ومستعبدة لموارثها الثقافية الوثنية ، ولا تستطيع أن تعود أدراجها لتلتمس سبيل الخلاص من الأخطار الكبيرة التي تهددها .

ولو قارنا بين الدول الغربية وبين الدول الشرقية في آسيا وأفريقيا لوجدنا أن موارث الشرق أخرى أن تجنب الأمم الشرقية تلك المواقف الانتحارية التي تشكو منها الأمم الغربية .

فالمأمول مثلاً أن تتمكن الهند والصين — وهما ورثة حضارة إنسانية أرق — من الوصول إلى تعامل يجنبهما الاصطدام الخطير الذي يوقع الضرر البالغ بكل منهما . والدلائل كلها تشير إلى أن ذلك ممكن جداً وقريب الحدوث .

فإذا استطيع الحضارة العربية الجديدة من الناحية العملية أن تهدي إلى الحضارة الغربية الانتحارية ؟ والجواب على هذا السؤال يبدو واضحاً مما سبق لنا للتحدث فيه .

إن رسالة حضارتنا واضحة وهي رسالة التحرر والفضيلة الإنسانية والسلام . نحن ورثة هذه الرسالة ونحن جديرون أن نجعلها أساس حضارتنا ، بل إن الحوادث كلها تشير إلى أننا متمسكون بها حريصون على عقيدتنا فيها . وإذا كانت الحضارة الغربية تبدو مترددة في العدول عن اتجاهها الاستغلاي فلأننا جديرون بأن نساعد على تراجعها عن ذلك الاتجاه بغير إرادتها . وقد يكون منطق الواقع أقرب إلى إدراك ورثة الحضارة الواقعية القائمة على الاعتداد بالقوة وحدها . وشعوب الأرض قد تنهت وهبت

للتحرر ، وفى تحريرها علاج شاف لداء الاستغلال فإن الدول المستغلة لا تجد فرصة لأفتراس غيرها حين تتمسك الشعوب جميعاً بحرياتها وتهب للدفاع عنها . ففى تحرر شعوب الأرض نجاة للدول المستغلة من موقفها الانتحارى . فنحن فى بناء حضارتنا الجديدة نقدم خدمة كبرى إلى الحضارة الإنسانية . بأن نعاون بقدر استطاعتنا على كل حركة ترى إلى تحرير الشعوب أياً كانت وأنى كانت . فما دامت هناك شعوب مستعبدة وما دام هناك استغلال لهذه الشعوب المستعبدة فسوف يبقى تنافس الدول المستغلة ، وسوف تستمر فى ابتكار وسائل القتل والتدمير والمضى فى سير أعمى نحو الهاوية .

وما من شك فى أن تحرير الشعوب وزوال عهد الاستغلال يكون بمثابة جرعة مرة من ترياق فيه شفاء من الداء الكامن فى الحضارة الغربية الحاضرة .

وهذا هو السبيل الذى تشير لنا موارثنا الحضارية إليه لنسير نحوه فى إيمان بأننا نضيف إلى الحضارة الإنسانية إضافة نفيسة ، وهو سبيل الحرص على حريتنا والمعاونة على التحرير لكل شعب تتحكم فيه قوى الاستغلال . بهذا نكون قد أضفنا إلى الحضارة الإنسانية إضافة كبرى بأن نبعدا عن خطر الدمار ونتجه معها نحو حياة قائمة على التعاون الإنسانى فى ظل الحرية الشاملة .

الفهرس

صفحة	
٥	المقدمة :
١٦	سؤال « من نحن » ؟
٢٣	ستن تطور الأمم وأحوار حضارتها
٣٨	الدور الأول من حياة الأمة العربية (العصر الجاهلي)
٥٧	جيران العرب في العصر الجاهلي
	الدور الثاني من حياة الأمة العربية :
٧١	الرسالة الجديدة
٨٩	بعد انطلاق الأمة العربية
٩٧	تكوين أمة عربية جديدة
١٢٠	الدولة العربية
	الدور الثالث من حياة الأمة العربية :
١٤٧	انقسام الدولة
١٥٢	انعزال الأمة العربية عن الحكم والدفاع
	الأمة العربية أمام العواصف (الحملات الصليبية وهجوم
١٥٨	التتار)

صفحة	
١٦٨	بناء الحضارة العربية (شخصيتها ورسالتها)
	لمحة من آثار الحضارة العربية :
١٧٥	الفلسفة
١٨٥	العلوم
	الدور الخامس من أدوار حياة الأمة العربية :
٢١٢	نكبة الاستعمار
	فجر الحياة الجديدة للأمة العربية :
٢٢٠	يقظة مصر (الحملة الفرنسية وما بعدها)
٢٢٨	يقظة شعب المغرب العربى
٢٣٠	بدء يقظة العرب فى شمال أفريقيا
٢٣٤	يقظة الشعب السورى والعراقى
	حركات التحرر العربية فى القرن العشرين :
٢٣٧	الصدمات تهز الأمة العربية
٢٣٩	المعجزة العربية فى ليبيا
٢٤٢	جهاد شعب مصر من الاحتلال إلى الاستقلال
٢٦٢	خيانة الحلفاء الكبرى للعرب
٢٦٦	الموقف فى سوريا
٢٧٢	الموقف فى لبنان

٣٢٥

صفحة

٢٧٥	الموقف في العراق
٢٨٠	الموقف في الأردن
٢٨٥	انتصار الشعب في ليبيا
٢٩١	حركة التحرر في تونس
٢٩٣	البعث الجديد في المغرب العربي
٢٩٧	الجهاد الباسل في الجزائر
٣٠٢	حضارة عربية جديدة في عهد جديد
٣١٧	لمحة من المستقبل

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

أمتنا العربية

هذا الكتاب تعريف واف بأصول الأمة العربية الحديثة منذ نشأتها إلى اليوم ، وبيان للعناصر الجوهرية التي تنطوي عليها الرسالة السامية التي حملتها إلى العالم وجلاء لمعالم حضارتها الكبرى التي كان لها فضل كبير على الحضارة العالمية وتنويه بالإضافات القيمة التي أضافتها إلى التراث العلمي والفكري والفني للإنسانية . وقد قسمت فصول الكتاب بحيث تظهر أدوار الحياة التي مرت بها الأمة العربية ظهوراً واضحاً وفقاً لنظرية التطور الحضاري ، ومنها يتضح أن هذه الأمة كانت تواجه ظروف الحياة مما على مرّ العصور وأن مصيرها كان واحداً في كل عصر ، وكفاحها ومبادئها ومبناها واحدة ، وأ ، بدأت في أول عهدها كقوة تحريرية لمكافحة الظلم واستعباد الشعوب واستمرت تحمل راية التحرير ومكافحة الاستعمار إلى العهد الحاضر الذي تجدد فيه نهضتها وتبدأ دورة جديدة لاستئناف جهادها في حركة التحرير ومقاومة الاستعمار وبناء حضارة جديدة عصرية تنطوي على العناصر الجوهرية في الحوادث العربية والعناصر الإنسانية الصالحة من الحضارة العالمية الحديثة .

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع